

الطريق إلى مكة مراد قوفمان



الطريق إلى مكة
الطريق إلى مكة

الطريق إلى مكة

الطبعة الأولى

١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

أسسها محمد المصطفى عام ١٩٦٨

القاهرة ٨ : شارع سيويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مُرَادُ هَوِّ فَمَان

الطَّرِيقُ إِلَى مَكَّةَ

دار الشروق

مقدمة

عندما نشرت دار ديتريش الألمانية ، فى عام ١٩٩٢ ، كتابى « الإسلام كبديل » ، ثارت زوبعة هائلة فى وسائل الإعلام ، وفى دوائر الأحزاب ، وفى البرلمان . وكان القبول بما ثار آنذاك يعد تفريطا ، لأنه كان يتجاوز شخصى بكثير ؛ فقد كان حملة قذف وتشويه منظمة تستهدف ما هو أبعد من شخصى .

لقد حاولت فى كتابى المذكور ، وبمنهج عقلانى ، دحض جميع التحيزات والأفكار الخاطئة واللامعقولة ، المسبقة والضاربة بجذورها فى أعماق الوجدان الألمانى حيال الإسلام ، خاصة وأنى كنت أشعر بضراوتها وتبادرها للذهن الألمانى قبل أى دراسة أو معرفة بالأمر .

وإذا كان الكتاب المشار إليه قد تناول الإسلام من خلال رؤيته هو لذاته ، وللصورة التى يريد أن يكون عليها ، ولتلك التى ينبغى أن يكون عليها ، فإن الكتاب الحالى يعنى بشىء آخر ، هو حقيقة الإيمان كما أعيشها أنا وأعاشها .

أما حقيقة أن الأديان الكبرى كافة لا تمارس بحذاقيها وفق نموذجها من جانب أتباعها ، فأمر طبيعى ، بل وإنسانى ، بالنظر إلى متطلباتها الأخلاقية والفكرية العالية ، كتلك التى يطمح إليها الإسلام . ومن هذا المنطلق :

إننى أتمنى أن يساعد كتابى هذا على إدراك القوة الدافعة التى يستمدها المسلم المؤمن من دينه ، وكيف تستطيع أن تسمو به ، وأن يساعد كذلك على تبين الأفق الذى يمكن أن يصل إليه العالم الإسلامى عند تمسكه بهذا الدين فى حياته اليومية .

مراد فلزفريد هوفمان

إسطنبول - يناير ١٩٩٦

الفصل الأول الرحلة إلى مكة

بعد أن سلمنا أمتعتنا المتواضعة لكي تشحن إلى جدة ، بعد انتظار طال في طابور بمطار الدار البيضاء ، فوجئنا بموظف الخطوط الملكية المغربية يخبرنا ، بدون مقدمات ، أن علينا أن نختار بين العودة إلى الرباط ، بما يعنيه ذلك من أنه يتعين علينا أن نقطع مسافة ١٢٥ كيلومتر ، أو أن نمضى وقتنا في الدار البيضاء .

كانت هذه هي الطريقة التي رأى أن يخبرنا بها أن طائرة الجامبو التابعة للخطوط الجوية السعودية لم تصل إلى داكار بعد في طريقها إلى الدار البيضاء .

كان هذا الأمر كفيلا ، في ظروف عادية ، باستفزاز الركاب وإثارة غضبهم . أما في هذه الظروف ، وكل الركاب من الحجاج ، وغالبيتهم من النساء ، القاصدين مكة لأداء فريضة الحج ، فإن الأمر يختلف ، لأن القرآن الكريم^(١) يعلمهم قائلا : ﴿الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب﴾ (سورة البقرة- الآية ١٩٧) . ومعنى ذلك أن على الحاج أن يتحلى بالصبر ، وأن يتفادى الدخول في خلاف أوحى الشروع فيه . ناهيك عن أنه محرم عليه أن يجرح شخصا أو شيئا ، أو أن يقتل نباتا ، أو يقتل حتى بعوضة .

لهذا السبب ، بقيت الأمور هادئة ، في إطار من السلوك المتحضر . وانتهى الأمر بتأجيل سفرنا من مساء يوم ٢٨ من مايو عام ١٩٩٢ ، إلى صباح اليوم التالي . وعلى الرغم من ذلك ، فإن أيا من الحجاج لم يرغب في مغادرة مطار محمد الخامس ؛ فمن ذا الذي يجازف بتعريض نفسه لاحتمال التخلف عن أهم رحلة في حياته ، خاصة وأنه كان قد ودّع بالفعل من قبل أقاربه وأصدقائه ؟ ! واستعادوا إلى الذاكرة أن رحلة المغربي

إلى الأماكن المقدسة بالحجاز كانت تستغرق في الأزمنة السالفة حولا كاملا ، ناهيك عن أنها كانت تعنى للكثيرين رحلة بلا عودة !!

لم يكن أحد ليرغب في العودة إلى الرباط ، قبل أن يؤدي فريضة الحج إلى بيت الله بمكة (٢) ، ويعود مسلما حاجا .

وعند صلاة العشاء ، يتحول مطار الدار البيضاء بصالة السفر وصالة كبار الزوار إلى مسجد كبير يمتد الأركان . ويتكرر هذا الأمر مرة أخرى عند صلاة الفجر .

وتقوم فلاحه من الريف برعاية زوجها الكفيف بشكل مؤثر . أما هو فمستغرق في الصلاة على نحو يحتذى به البصير !

ونحاول في تلك الأثناء ، والشحوب يكسو وجوهنا والكلام يندر بيننا ، أن نحصل على شيء من الطعام من مطعم المطار .

على المنضدة التي كنت أجلس عليها ، كان شاب سعودي يجلس . تحدث بدون مقدمات ، فقال : أتعرض في سفرياتي لإغراء احتساء الخمر ، ولكن يمنعني عنه ما تحدثني به نفسي : إنك من أهل مكة !

وأذكر بعضا من الدبلوماسيين ورجال الأعمال السعوديين المخمورين ، وأتمنى أن يسلكوا مسلك هذا الشاب ، وأن يفرض عليهم انتماؤهم إلى مكة نوعا من الالتزام .

أخيرا ، وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالي ، تقلع طائرة الخطوط الجوية السعودية من طراز بوينج ٧٤٧ متجهة إلى جدة ، مرورا بدكاك ، عبر كل من صحارى ليبيا الشاسعة والسودان .

وبدلا من الموسيقى « المخدرة » ، التي اعتدنا أن نسمعها عند إقلاع الطائرات ، تنبعث من أجهزة الاستماع بالطائرة آيات من القرآن الكريم .

في دكاك ، ينضم إلى رحلتنا عدد من الحجاج ، بينهم مختار ديورى فجل الرئيس السنغالي ضيوف . ونظر إليهم ، فنجدهم أمثلة مضيئة للحجاج ، تشع وجوههم سعادة واطمئنانا .

تقترب رحلة الطائرة من نهايتها ، ويعلن قائدها قبل هبوطها بنصف ساعة أننا سنطير فوق منطقة الحرم حول مكة ، وهى منطقة لا يدخلها الحاج ، حتى وإن كان محلقا في الفضاء ، إلا بلباس الإحرام .

كان هذا الإعلان بمثابة تنبيه لكل من عقد العزم والنية على أداء فريضة الحج وبدء مناسكه ، لكي يرتدى ملابس الإحرام . ولم تلبث مقاعد الركاب أن أشرقت في الحال ، وتلاّأت ببياض مبهر !

فالنساء جميعا يرتدين ملابس بيضاء ، تغطي معاصمهن وأقدامهن ، ويضعن على رءوسهن أغطية رأس بيضاء ، بينما يلف الرجال حول الكتف والخصر مناشف بيضاء ، طولها ١٨٠ سنتيمترا ، وعرضها ١٠٠ سنتيمتر .

لم أبدل ثيابي ، لأنني كنت قد عقدت العزم على التوجه أولا إلى قبر محمد ﷺ بالمدينة ، ثم أقوم بعد زيارته بمناسك الشروع في الحج قبل التوجه إلى مكة .

كان كل ما يحتاج إليه الحاج في حقيتي ، وقد حصلت عليه من سوق سالى ، مدينة القراصنة القديمة ، ذلك السوق الذى يرجع تاريخه إلى العصور الوسطى . وكل متاع الحاج قطعنا قماش ، وحافظة غير مخيطة لحمل القرآن الكريم وبعض من الماء ، ومظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس (شمسية) ، وحزام عريض من الجلد ، غير مخيط وإنما مبرشم ، لتثبيت المنشفة وبه الجيوب الثلاثة المعتادة التى يستخدم أحدها لحفظ جواز السفر ، والثاني لحفظ تذكرة الطائرة ، والثالث لحفظ بعض الأدوية . وكنت قد أحضرت معي ، عملا بنصيحة الطبيبة الخبيرة بالحج ، أدوية لعلاج آلام الرأس (الصداع) ، وآلام الأسنان ، واضطرابات المعدة ، والإسهال والقيء ، وارتفاع درجة الحرارة ، إلى جانب ضمادات للأقدام الملتهبة ، ومصل للوقاية من الالتهاب السحائى . وكان معي أيضا ، بالإضافة إلى ما تقدم ، زوجان من « الصنادل » غير مخيطين ، صنعهما بناء على طلبى ولصقهما وضفرهما إسكافى شبه كفيف فى سوق سالى . ويدعو على الأرجح أن هذا الشيخ عمل طوال حياته فى صناعة أحذية الحاج وتزويدهم بها ، غير أنه - على ما يبدو لى - لم يعد متمكنا من حرفته . فعند انصرافى من أمامه ، أو ما لى أحد جيرانه ، وأخذ منى زوجى الصنادل ، وقام ، فى صمت تام ودون أن يلحظ الشيخ المسكين شيئا ، بإصلاحهما بدون مقابل .

تمكن قائد الطائرة من الهبوط فى المطار الصحيح بين مطارات جدة الخمسة . فهذا المطار يبدو - على الرغم من كونه بناء أسمنتيا - وكأنه مدينة خيام تساب سابعة فوق الرمال .

تعهدنى منذ وصولى - كما تعهد غيرى - مطوف يضطلع بمسئولية إقامتنا وانتقالاتنا ، وطبعاً إرشادنا لمناسك الحج . وكان علمنا بهذا الأمر مبعث اطمئنان لنا ، مع أن المرء منا

كان قد حاول - فيما يشبه دراسة دينية - أن يحفظ كل ما عليه أن يفعله طبقا لما ورد فى القرآن والسنة ، حتى يتقبل الله منه^(٣) إن شاء الله .

فى الفندق الذى نزلت به ، حيث كنت أقيم تحت رعاية إدارة المراسم الملكية ، التقيت بمسلمين من أنحاء العالم كافة ، من جزر القمر إلى واشنطن العاصمة . وكانت أحاديثنا تدور حول شىء واحد ، هو الإسلام . وبفضل المناقشات الفكرية التى جرت بيننا ، بدت لى رحلة الحج وكأنها جامعة متنقلة . وكان أحد من تحاورت معهم هو الشيخ محفوظ نعناع ، من الجزائر . وقد قدر لى أن ألقاه أكثر من مرة أثناء رحلة الحج .

فى طريقنا إلى المطار الحربى يوم ٣١ من مايو ، اندفعت قافلتنا بسرعة جنونية ، مخترقة شوارع جدة ، حتى إننا فقدنا إحدى سيارتنا الليموزين . وحينما وصلنا إلى المطار قبل الموعد المحدد ، كان علينا أن ننتظر ركاب السيارة الليموزين المفقودة ، فى جوقائظ تصل حرارته ٤٠ درجة مئوية !! ألم أقل من قبل إن الصبر هو أولى فضائل الحج ؟

أقلتنا طائرة من طراز هرقل ١٣٠ ، تابعة للقوات الجوية السعودية ، فى رحلة استغرقت ٥٠ دقيقة ، إلى المدينة المنورة ، التى كانت ملجأ وملاذ محمد ﷺ من اضطهده من المكين ، وفيها أصبح الإسلام دينا ودولة ، ووضع رسول الإسلام ﷺ أول دستور مكتوب لكيان فيدرالى - يحقق اتحادا بين المسلمين واليهود - وفيها أكمل رسالته الخاتمة ، وفيها توفى .

توجهت على الفور ، بصحبة الشيخ نعناع ، إلى مسجد الرسول ﷺ حيث قبره . ولقد أنشئ هذا المسجد بجوار مقر إقامة محمد ﷺ . . ومع الحفاظ على منازلهم جرى توسيع المسجد أكثر من مرة . وتبدو كل المحاولات السابقة لتوسيعه شديدة التواضع بالمقارنة بالتوسعات الأخيرة كما يرى الجميع . ففى زيارتى الأخيرة ، فى عام ١٩٨٢ ، كان هناك ٦ مآذن فقط ، صارت الآن ١١ مئذنة ، ومن المخطط له بناء ٣ مآذن أخرى . وفيما مضى ، كان المسجد يسع بضع مئات من المصلين ، أما الآن فتبلغ مساحته حوالى ٧٠٠ ألف متر مربع ، تسع حوالى ٦٠٠ ألف مصل . أما أعمدته الكثيرة ، فصورة مصغرة للمسجد الأموى بقرطبة . ولقد قامت إحدى الشركات الهندسية ، التى يديرها مسلمون ألمان ، بتزويد المساحات غير المسقوفة من المسجد بمظلات واقية من أشعة الشمس ، يبلغ قطر كل منها حوالى ١٨ مترا ، تفتح وتغلق حسب سقوط أشعة الشمس ، وتستدير فى اتجاهها .

حينما حان موعد صلاة العشاء ، ودرجة الحرارة ٤٤ درجة مئوية ، اجتمع في المسجد مئات الألوف من المصلين ، جاءوا من شتى الاتجاهات .

وعندما تحاول سيارات الليموزين الأمريكية الفارهة ، التي تقل بعض الحجاج ، اختراق حشود المسلمين ، لا تسمع كلمة غاضبة ، ولا تصدر إشارة قبيحة ، ولا يضرب أحد بيده على السيارة حقدا على أصحابها .

ويبقى الانضباط والالتزام بهذا السلوك من جانب هذا الحشد من المسلمين مثيرين للدهشة ، حتى بالنظر إلى التزام الحجاج بمسألة الإنسان والحيوان والنبات . ولم أكن أعتقد قبل هذه التجربة أن التعاليم الدينية تستطيع أن تلغى بعض القوانين والقواعد الاجتماعية لفترة من الزمن .

كان يجاورني في الصلاة مواطن باكستاني يعمل في بنك بالبحرين ، ومواطن تركي يعمل في بوخوم . وهذا الالتقاء العالمي هو أحد أهداف الحج . وعلى الرغم من أن جوانب المسجد مفتوحة ، فإننا لم نكن نتوقع أن تكون درجة الحرارة بداخل المسجد ٢٨ درجة مئوية فقط . وهو ما أثار دهشتنا التي لم تلبث أن تبددت حينما علمنا أن المسئولين السعوديين يمررون ماء مثلجا تحت المسجد . ولا بد أن هذا الماء يأتي من مسافة بعيدة ، لأن الحرارة الناتجة عن عملية التبريد كانت كفيلة بأن تصل بهذه المدينة إلى درجة الغليان .

تمكننا عند منتصف الليل من زيارة قبر محمد ﷺ وقبري أبي بكر وعمر - أول وثنائي الخلفاء الراشدين - في أقدم أجزاء المسجد ، حيث كان منزل الرسول ﷺ ومقر إقامته . هاهنا مثواه ، حيث دفن في منزل زوجته الشابة عائشة ، التي تحظى باحترام كبير ، والمعروف عنها ذكاؤها الشديد ، وإليها يرجع الفضل في وصول عدد كبير من الأحاديث الصحيحة إلينا ، في صورتها الدقيقة .

إن الوجود حيث عاش الرسول ﷺ - الذي حظى باحترام شديد دون أن يؤله على الإطلاق - وحيث خطط ، وعمل ، ووعظ ، وأحب ، وعانى سكرات الموت ، لأمر يستحوذ على الأنفس كلها . وفي هذا المكان ، الذي يفوح منه عبق التاريخ ، هزت التجربة ، من الأعماق ، بعض الحجاج المصاحبين لي ، فأجهشوا ببيكاء حار .

و حين انصرفنا من المسجد عند منتصف الليل ، رأيت مجموعة من نساء ماليزيا ما تزال تحتل محرابه الوقور مع بساطته . إنهن لم يشبعن من أداء الصلاة في هذه البقعة الشريفة . ولم يخطر ببال أحد - حتى من مسئولى النظافة - أن يبعدهن ، ولو بمجرد النظر إلى الساعة !

عقب انصرافنا من المسجد ، شاركنا حتى صلاة الفجر فى نقاش مع مجموعة من طلاب الشريعة الجزائريين فى مكان إقامتهم المتواضع النظيف الذى يطلقون عليه - بحق - اسم « النهضة » . وكنت قد أدركت ، ونحن فى الطريق إليهم ، الشعبية المنقطعة النظير التى يحظى بها رفيق رحلتى . فلم يكن الشيخ نعناع يسير ٥٠ مترا دون أن يلقاه أحد الجزائريين مرحبا ، ومعانقا ، وسائلا المشورة .

فى اليوم التالى ، قمت بزيارة إلى البقيع ، المقابر الشهيرة ، حيث يرقد جثمان كثير من الصحابة وأهل بيت الرسول ﷺ ، الذين وافتهم المنية بالمدينة . ومن بين من دفن هنا : السيدة عائشة ، والسيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ زوجة على وأم حفيدى الرسول ﷺ : الحسن والحسين . وتطبيقا للفكر الوهابى ، لا توجد هنا مشاهد مميزة للمقابر ، خلافا لما عليه الحال فى طراز المرابطين فى المغرب . بل إن الأمر يختلف أيضا اليوم عما كان عليه فى عام ١٩٨٢ ، حيث أمكننا آنذاك التعرف على قبر الخليفة عثمان . فالمقابر قد سويت بالأرض ، ولم يعد هناك اليوم من سبيل إلى قصدها للزيارة ، وإحياء ذكرى من يرقدون بها من الموتى . ويمثل هذا المنع الجذرى لمظاهر التأليه استفزازا لمجموعة من الحجاج الشيعة من إيران ، وبصفة خاصة فيما يتعلق بفاطمة الزهراء .

وكان من وافته أجله من الحجاج ، يُحمل إلى المسجد لتقام عليه صلاة الجنازة . ولم يكن يحزننا سوى أنهم لم يكملوا أداء مناسك الحج . ولكن هناك موت أفضل من الموت بمكة أوفى المدينة ؟ ! أولايتى كثيرون إلى هنا بأمل قضاء أيامهم الأخيرة ؟ ! لقد كنت أدرك احتمال أن أكون بين من يُحملون إلى المسجد فى مرة قادمة ، لكن ، لم يفزعنى هذا الخاطر على الإطلاق .

بعد زيارة البقيع ، توجهنا إلى المسجدين التاريخيين : قباء والقبليتين ، وإلى موقع معركة أحد حيث مثوى سبعين من الصحابة ، بينهم الفارس حمزة عم محمد ﷺ ، وحيث منى المسلمون الأوائل بهزيمتهم القاسية والوحيدة ، بسبب ضعف الانضباط وعدم الالتزام التكتيكى ، وحيث أصيب محمد ﷺ بإصابات بالغة ، وتعرض للموت .

إن منطقة أحد لا تعدو اليوم أن تكون مكانا مقفرا قاحلا ، لا زرع فيه ولا ضرع ، ولا يتيح لسائح راغب فى العلم أو المعرفة أن يحقق رغبته . أما المسجدان الموصوفان بأنهما تاريخيان ، فبلا تاريخ ، للأسف الشديد . فبسبب النظرة الوهابية والخوف الوهابى من أن يؤدى التقدير العظيم لما هو قديم إلى الشرك ، أعيد بناء المسجدين - دون مراعاة

لمكانتيهما - على نحو طمس معالمهما التاريخية . لقد كان باستطاعتى فى عام ١٩٨٢ أن أرى القبليتين فى مسجد القبليتين . القبلة الأولى للمسلمين الأوائل باتجاه القدس ، والقبلة الثانية للمسلمين الأوائل أيضا باتجاه مكة .

فى اليوم الثالث من شهر يونيو ، عدنا إلى جدة على متن إحدى طائرات القوات الجوية السعودية .

وكنا قبل العودة قد زرنا أحدث مطابع العالم عند طرف المدينة المنورة ، حيث يطبع سنويا ٣٨ مليون نسخة من القرآن الكريم توزع مجانا ، من بينها ملايين من النسخ من الترجمات الإنجليزية والفرنسية ، وحتى الكورية ، للقرآن الكريم . ويحصل كل حاج على نسخة خاصة له .

عقدت النية على أداء فريضة الحج ، وعلى نحو أقرب ما يكون للذى فعله الرسول ﷺ ، أى أداء مناسك العمرة أولا ثم أداء مناسك الحج . فاغتسلت وتلوت الأدعية الواجبة ، وارتديت ملابس الإحرام ، وبذلك أتممت استعدادى لأداء فريضة الحج قبل أن نتوجه إلى المطار بفترة قصيرة بفترة قصيرة ١٩ لقد انتظرنا لمدة ساعتين وصول السيارة التى كانت ستقلنا إلى المطار ، حيث انتظرنا لمدة ساعتين آخرين قبل أن تقلع بنا الطائرة . ومع ذلك لم ينبس أحد بكلمة .

انتهزت فرصة وقت الانتظار للتحدث مع مجموعة من المتخصصين فى الكمبيوتر من أمريكا الشمالية ، سرعان ما تبين أنهم من الشيعة . هل يمكن للمرء أن يتخيل عملا يلقى نفورا واستهجانا أكثر من هذا لدى الرأى العام الأمريكى خاصة فى ظل حرب الخليج الثانية ١٩ ؟

على الرغم من أننى ارتديت ملابس الإحرام لمدة نصف يوم عندما أدت عمرتى الأولى - الحج الأصغر - فى عام ١٩٨٢ ، فإننى لا أشعر بعد بالراحة فى ملابس الإحرام هذه المرة . ومع ذلك ، يستطيع المرء أن يحمى نفسه من ضربة الشمس بواسطة الجزء العلوى الذى يتحرك دوما من مكانه ، كما أن نسيجها يمتص العرق ، وإن كانت الأبدان تقشعر من البرد فى الغرف المكيفة . ولكن أهم ما فى الأمر هو أن الحجاج كافة يرتدون الثياب نفسها ، يستوى فى ذلك أغنيائهم وفقراءهم ، أقويائهم وضعفائهم ، أذكياؤهم وبسطائهم ، كبيرهم وصغيرهم . ولما كانت ملابس الإحرام خالية من النقوش أو الخياطات ، فلا يمكن لأحد أن يتميز عن آخر ، ولو بمجرد الخياطة الأنظف

ولا ترمز ملابس الإحرام فقط إلى تساوى البشر أمام الله ، وإنما ترمز أيضا إلى يوم القيامة . فلقد كنا نبدو - ونحن نقطع صالة المطار جيئة وذهابا - كمن قام من الموت وما يزال يرتدى كفنه . بل إن كثيرا من الحجاج يحتفظون بالفعل بملابس إحرامهم كأكفان لهم .

عند إقلاع الطائرة ، كان بعض مسئولى البروتوكول فى المدينة المنورة يقفون هناك . كل حركاتهم وخطواتهم وقورة ومحسوبة . وهم جميعا يتمتعون بقامات فارعة ، وبروفيل نبيل معبر ذى أنف معقوفة قليلا ، ولحى قصيرة معتنى بها بشدة . وتوحي عباءاتهم الخفيفة السوداء ذات الحواشى الذهبية بجلال ملكى . . . أى تناقض بين ما هم فيه ، وما نحن فيه من أكفاننا ؟!

كان رفاق رحلة حجى من السنغاليين فى الطائرة شديدى الحساسية تجاه العرب ، الذين يعتبرون أنفسهم - تشبها باليهود - أفراد شعب الله المختار ، كما هو الأمر فى حالة قريش مكة وقبائل المدينة ، وهم ليسوا كذلك وحدهم بطبيعة الحال . ومن جانبى ، أقررت أنه لا بد للمرء من أن تدور رأسه غرورا إذا ما صادفه الحظ الأوفر مرتين فى تاريخ العالم : أولاهما ، عندما بعث خاتم الرسل فى الأرض العربية برسالة بالعربية . والثانية ، عند ظهور بركة النفط والغاز الطبيعى . . .

رفض جميع من بالطائرة القبول بأن العرب ينفردون بوضع يتيح لهم وحدهم فهم الرسالة الإلهية للقرآن . فالإسلام لا يعرف التفرقة العنصرية .

كان ضجيج الطائرة يجعل من مواصلة هذه الأحاديث أمرا شاقا . ولم يكن الحال كذلك بالنسبة للتلبية ، التى أخذنا نردددها كما فعل كل الحجاج قبلنا منذ ١٤٠٠ سنة : « لبيك اللهم لبيك . . لبيك لا شريك لك لبيك . . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . ولسوف يظل هذا الدعاء يتردد على مسامعى حتى يوم عيد الأضحى ، إن لم يكن منى أنا فمن شخص على مقربة منى . وكنا قد علمنا فى هذا اليوم بموعد العيد ، فلقد ظهر هلال شهر ذى الحجة بالليل . ومعنى ذلك أن وقفة عرفات ستكون يوم العاشر من شهر يونيو ، وسيكون عيد الأضحى يوم الحادى عشر منه ، حيث نصل إلى نهاية المطاف .

فى الرابع من شهر يونيو ، قمت برفقة وزير الشؤون الإسلامية السري لانكى وأسرته بأداء العمرة . ولقد كان انتظارنا فى جدة طوال فترتى ما بعد الظهر والمساء ، قبل أن

نغادرها إلى مكة ، أمرا مفيدا ، لأننا حينما وصلنا إلى مكة عند منتصف الليل كانت درجة الحرارة قد انخفضت إلى ٣٨ درجة مئوية . وقبيل أن نصل إلى غایتنا ، عبرنا أحد الأنفاق التي شُقت في صخور مكة المكرمة . ولكم كانت المفاجأة مذهلة ، عندما خرجنا من النفق لنجد أمامنا المسجد الكبير الرائع !

هانحن أولاء نقف في تقليد إبراهيمي أمام أقدم معابد التوحيد في العالم . . أمام الكعبة . والكعبة مكعب مجوف خال تماما ، مبنى بأحجار ضخمة . إنها صورة معمارية لكمال الله في أبسط تصوير ، بعيدا عن التعقيد الذي يبدو في الفن القوطي وفن الروكوكو . وهي تُكسى بمخمل أسود مطرز بآيات من القرآن الكريم بخيوط من الذهب . ويجرى تغيير الكسوة سنويا . وتتوفر مجموعة من المطرزين طوال العام على إعداد الكسوة في ثوب فني جميل . وفيما سلف من الزمان ، كانت كسوة الكعبة تأتي من القاهرة هدية من الخديوى ، وترفع الكسوة عن الكعبة أثناء فترة الحج ، حتى لا يتصور أحد أن بيت الله تحفة فنية ، أو يراد له أن يكون تحفة فنية .

عند دخولنا إلى الحرم المكي ، خضعنا لعملية تفتيش سريعة ، للتأكد من أننا لا نحمل أسلحة ، دلفنا بعدها إلى داخله برغبة تكاد تكون مقدسة للطواف سبعا وتواعدنا على اللقاء بعد ساعتين .

بدأنا بعد ذلك نظوف حول الكعبة . . التي يتجه إليها مليار من البشر في صلواتهم اليومية . ولم يغب عن خاطري طوال الطواف أننا نتوجه في طوافنا إلى الله . وأضفت إلى الأدعية المعتادة دعاء شخصيا مفاده : « اللهم اجعل الحق يقر في نفسى ، واجعل الحق حقيقتى الشخصية » .

تذكرت أن هذا البيت كان في سنوات شباب محمد مليثا بالأصنام ، ومن بينها تمثالان : أحدهما للمسيح ، والآخر لمريم . أى أنه كان يعكس تعددا دينيا اقتصاديا ناجحا ومذهلا ، إذ كان يتطابق مع معنى أيديولوجى حديث ألا وهو « كل شيء يصلح » . ولقد كانت مكة آنذاك مركزا تجاريا عالميا . أما اليوم ، فهي مركز حج عالمى . وكانت وقتها تستقبل في الأشهر الأربعة الحرم أى إنسان ، بينما لا تستقبل اليوم سوى المسلمين من أرجاء العالم كافة .

لم يكن من اليسير ، والحجاج يتدافعون ويتزاحمون ، أن تعى رمزا المكان ، وأن تحتفظ في هذا الخضم الهائل بروحانية الفعل الذى لولاه لتحول الحج إلى مجهود بدنى

بحث . وكنت غالبا ما أدفع من نساء أناضوليات عريضات البنية ، يتعلقن بأزواجهن الأقوياء الذين يتقدمونهن . وهذا أمر لا يفتقر إلى الغرابة ، خاصة أن قائد هذا التشكيل يرفع كتاب أدعية باللغة التركية ، يتلو منه بإخلاص واجتهاد ولكنه أبعد ما يكون عن الطرافة ، بل هو أمر يهدد الحياة نفسها إذا ما تحول المرء إلى كرة تتقاذفها هذه المجاميع التي تتصعب عرقا . وهذه ظاهرة يعرفها المرء في ملاعب كرة القدم . ويبلغ هذا الخطر ذروته عند الحجر الأسود . فهنا يتزاحم ويتدافع الوافدون الجدد لبدء الطواف من أجل الوصول إلى الداخل ، بينما يتزاحم ويتدافع من أتموا طوافهم للخروج . وهنا تتعطل الحركة وتشل ، لأن العادة جرت على أن يتوجه الحاج إلى الحجر الأسود رافعا يده مرددا : « الحمد لله » . وكانت الفرصة قد أتتحت لى من قبل لتقيل الحجر الأسود ذى الإطار الفضى القابع فى أحد أركان الكعبة . ولذلك ، لم يكن ملائما أو لائقا أن أنهكهم على انبهار الحجاج بهذا الحجر النيزكى ، مع أنه لا يحظى بأى أهمية أو دور فى مناسك الحج . ولما كان قدماء العرب قد عبدوا آلهة من حجر ، فإن الإسلام يتعامل مع توقير وتقديس الأحجار باستياء شديد ، سواء أكانت بيضاء أو سوداء أو رمادية .

ويعزى الاهتمام الذى يحظى به الحجر الأسود إلى أسباب تاريخية . فلقد تعرضت الكعبة مرارا لأعاصير . ومن رأى تحول الوديان الجافة فى شمال إفريقيا والشرق الأدنى إلى أنهار تجرف فى طريقها كل شىء ، لا يندهش من ذلك . وفى أثناء ذلك ، كان الحجر الأسود الذى لا ينفع ولا يضر هو الأثر الوحيد الباقي من فترة ما قبل الإسلام . وهو بإيجاز أقدم أجزاء الكعبة ، ناهيك عن أن محمدا ﷺ شخصا هو الذى وضعه حيث هو اليوم . فعند إعادة بناء الكعبة ، تنازع أشراف مكة شرف وضع الحجر الأسود فى موضعه القديم . وقام محمد ﷺ بحل نزاعهم ، عندما اقترح وضع الحجر الأسود فى ثوب يمسك بأطرافه جميع أشراف مكة لرفعه ، ليقوم هو - الحكم المحايد - بوضعه حيث هو الآن . ولذلك فإن من يلمس هذا الحجر يتصل اتصالا ماديا بالرسول ﷺ ، وينضم مثل ملايين سبقوه فى سلسلة متواصلة . ولم يكن هذا الأمر يمثل لرفاقى فى الحج إلا مصدرا لإلهام رمزى .

أفقت من تداعى أفكارى وخواطرى مذعورا على مشهد امرأة محمولة ، فاقدة الوعى . وكانت ، ككل المالىزيات المنظمات بطريقة مثلى ، تثبت ألوان علم بلادها وبياناتها الشخصية على قطعة من قماش تضعها خلف غطاء رأسها ، مما يسهل معه التعرف عليها . ولم تكن هذه أول امرأة تلقى حتفها بسبب الزحام أثناء الطواف .

وعلى الرغم من هذا الزحام الشديد ، كانت هناك عجائب وآيات من التسامح والرحمة . فلقد مرترت لتوى بحاج سعيد يطوف حول الكعبة على عكازين ، يمنعه كبرياؤه- وربما يمنعه فقره- من أن يحمله أحد الزوج الأقوياء ، أو يدفعه أحد على كرسى متحرك ، ويحيطه الحجاج بالعناية والحذر حتى لا يقع . واسترعى انتباهي أيضا مشهد مجموعة من الحجاج يخرون على الأرض سجدا وسط فيض من الحجاج . ولقد كدت أقول لهم : أيها الحجاج ، هل يتحتم فعل هذا الذي تفعلون ؟ ولكني لم أقلها .

في وجود هذا العدد الغفير من الحجاج ، يحتاج الطواف حول الكعبة سبعا إلى نحو الساعة أو ما يزيد . ولحسن الحظ ، كانت الليلة باردة بعض الشيء ، لأنه إذا ما تعرض إنسان وسط أوروبا لأشعة الشمس المباشرة- وهي في أوجها- لمدة ساعة واحدة، فلا بد من أن يفيق ليجد نفسه في إحدى وحدات العلاج المتخصصة في علاج المصابين بضربة الشمس .

بعد أن أتممت الطواف ، شربت ماء زمزم ، فأحسست بالانتعاش بكل ما تحمله الكلمة من معان ، وعقدت العزم على حمل ٢٠ لترا منه إلى الرباط ، ليرتشف الأصدقاء والخدم رشقات منه ، وكأن هذا الماء يماثل الذهب في قيمته . وهكذا ، يتحقق التواصل مع مكة ماديا .

حان الوقت لأداء ركعتين في مقام إبراهيم . وهذا الموقع القريب من باب الكعبة ، والمذكور في القرآن الكريم ، يذكرنا بأن الكعبة بناها أبو الساميين جميعا ، ومعه ابنه- من زوجته الثانية هاجر- إسماعيل أبو العرب . وكان إبراهيم يتردد على أسرته العربية ، التي كان قد أسكنها في مكة قبل ذلك بسنوات عديدة ، بعد أن صارت زوجته سارة- التي رزقت في سن متقدمة بأبي اليهود إسحاق- لا تقبل بوجود غريماتها (ضرتها) معها .

كان البعض ، حتى من المسلمين ، يميل إلى رؤية هذه الرواية ، التي وردت في القرآن والتوراة ، باعتبارها أسطورة حسنة . وكان لا بد من أن ينشر كمال صليبي ، وهو أستاذ بروتستانتى ، كتابه « لقد أتت التوراة من عسير » ، ليقتنع حتى أولئك المسلمون أن القبائل اليهودية استوطنت غربى أرض العرب ، وبالتحديد إقليم عسير الواقع بين الطائف واليمن ، حتى عام ٥٠٠ قبل الميلاد . ومن ثم ، فإن هذه « الأساطير » التي تستند إليها طقوس (مناسك) الحج قد وقعت بالفعل على نحو ما وصلت إلينا .

فى أثناء بحثى عن مكان لأداء الصلاة ، التقيت بكل من زميلى "سفير غينيا فى الرباط ، ومفتى لبنان . وكانت لهما نفس الرغبة ، وذات المشكلة . وعثرت أخيراً على مكان بجوار مجموعة من الحجاج التركمان أو المغول الذين يأخذون قسطاً من الراحة فى الجزء المسقوف من المسجد ، حيث يقرأ بعضهم القرآن ، ويتناول البعض شيئاً من الطعام ، بينما البعض نائم فى انتظار أذان الفجر . ومع ذلك ، تابعت السير مسرعاً لأسعى سبعة بين الصفا والمروة ، كما هو منصوص عليه فى القرآن الكريم : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ (سورة البقرة : آية ١٥٨) .

وللتذكرة ، جرى هذا السعى فى واقع الأمر من أجل العثور على بئر زمزم . فالرواية تروى أن السيدة هاجر وجدت نفسها فى عناء وبأس شديد ، بعد أن تركها إبراهيم مع طفلها الصغير إسماعيل فى الوادى المقفر ﴿ بواد غير ذى زرع ﴾ (سورة إبراهيم : آية ٣٧) بمكة . وراحت هاجر تسعى بين الجبلين بحثاً عن الماء . وعندما عادت منهكة بائسة لتضم طفلها إليها ، كانت المشكلة قد حلت ، فلقد كان إسماعيل يلهو وسط نبع ماء ، هو اليوم بئر زمزم . وإحياء للذكرى هذا الحدث ، بما يدل عليه من رعاية الله ورحمته ، كان السعى الذى يصبح فى ظروف الحج مشقة بدنية ، خاصة وأن على المرء أن يقطع بعض أجزاء الطريق مهرولاً . وعندما وصلت ، منهكا غير بائس ، إلى بئر زمزم لأنهل منه مرة أخرى ، لم أغفل عن الرمز الذى تنطوى عليه هذه الشعيرة .

أستطيع الآن أن أقص إحدى خصالات شعرى ، منها الجزء الأول من حجى ، بينما اختار آخرون ، كما هو حال رفاقى من الحجاج السنغاليين ، البديل الأكثر صعوبة وهو حج القران ، أى الإقرا ن بين الحج والعمرة (وصالهما) ، ومن ثم فإنهم سيرتدون ملابس الإحرام إلى أن تنتهى جميع المناسك .

ركنت إلى الراحة فى اليوم التالى ، حتى أشفى من الإسهال الذى أصابنى ، ومن نزلة البرد التى أملت بى كأمر لا بد منه ، بسبب الإجهاد . وقمت أثناء ذلك بتحليل برامج التلفزيون السعودى ، التى لا تختلف فى واقع الأمر عن « موعظة الأحد » . ولقد أكد أحد الأئمة اليوم على شاشة التلفزيون على أن من ينكر أن عيسى رسول من عند الله ليس بمُسلم . وقال : إن الإسلام لا يقبل التقليد الأعمى ، وإنه ليس هناك إنسان مُعفى من التفكير . وساق ، للتأكيد على ذلك ، تفسيراً مبتكراً غير تقليدى

للقول الكريم: ﴿نور على نور﴾ فى آية سورة النور بالقرآن الكريم: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارُ نُورٍ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور: ٣٥). فالمعنى المراد- حسب هذا التفسير - هو أن النور الجديد الذى أتت به الرسالة يكمل نور العقل الذى كان موجودا قبل مجيئها ويزيده إشعاعا .

بعد عشر سنوات من التطور المعمارى الرائع ، وتطور البنية الأساسية والتخطيط العمرانى ، لم يعد بمقدور المرء أن يتعرف على جدة . فلقد أصبحت مدينة على الطراز الأمريكى . . مدينة كبرى بمقاييس برلين . . إذ يرى المرء لافتات الشوارع ، وأنواع السيارات ، والإعلانات المضاءة ، ومحطات الوقود ، على نحو يوحى بمدينة كولورادو أو مينا بوليس . والغريب فى الأمر ، أن السواد الأعظم ممن يتجولون فى هذه المدينة هم من العرب والهنود والفلبينيين . ولولا ذلك ، لنسى المرء أنه فى أرض العرب القديمة ، وليس فى العالم الجديد .

قضيت الأيام المتبقية لى حتى بداية الجزء الثانى من الحج مع أصدقاء أمريكيين ومغاربة وسعوديين وألمان . وكنت أرتدى دائما الزى العربى : الجلباب المريح فى الملابس ، والجلباب المريح جدا فى النوم . ففى مثل هذا المناخ ، يكون مجرد التفكير فى ارتداء حُلل وأربطة عنق خائفة نوعا من العذاب .

وأصدقائى من غير السعوديين ، هم من العاملين الأجانب فى السعودية ، الذين يشكلون حوالى ٤٠٪ من مجموع عدد سكانها الحاليين (تصل هذه النسبة فى دُبى إلى ٩٠٪) ولو حدث أن أمسك الأجانب بزمام الأمور فى هذه المنطقة ، فلن يكون ذلك للمرة الأولى .

ففى العصر العباسى ، تمكن المرتزقة الأتراك من امتلاك زمام الأمور . وربما يكون هذا ما حدا بالسلطات لأن تمنع الكثير من العاملين الوافدين من اصطحاب عائلاتهم ، مع سهولة ترحيل أى منهم خارج البلاد . وربما يفسر ذلك ما يشعر به العامل الأجنبى ، حتى المسلم ، من فقدان للأمان . ولقد لمس Carten Niebutr ، عندما وصل إلى جدة فى ١٢ من نوفمبر عام ١٧٦٢ ، وجود كثير من الوثنيين الهنود فى أرض العرب ، أو بالأحرى فى اليمن ، وقال فى لهجة تذكرنا بحديث ممثلى منظمة العفو الدولية : «لا يسمح لهم باصطحاب نساءهم ، ولذلك يفضلون العودة إلى أوطانهم بعد تكوين ثروة» (٤) .

ومع ذلك ، فإن هذا أمر يسير في بلد يقل فيه ثمن لتر البنزين عن ثمن زجاجة مياه معدنية ، وحيث المياه والكهرباء والاتصالات التليفونية الداخلية خدمات مجانية .

أوصلنى صديق بدوى فى سيارته الكاديلاك إلى المسجد لصلاة العشاء . وما إن انتهينا من الصلاة ، حتى بدأ حاج يبنى يشكو من أن زوجته هربت منه ومعها النقود وجواز سفره . وسرعان ما امتدت يد كل فرد إلى حافظة نقوده . وهكذا استفاد الزوج المخدوع بالحق الأصيل فى الإفصاح عن المشكلات الشخصية فى المسجد .

وكان لقصة التضحية - أى استعداد إبراهيم للتضحية بابنه الوحيد ، امثالاً لأمر الله ، واستعداد الابن المطيع لهذه التضحية - أثر كبير . فالامثال التام والتوكل على الله ركن رئيس فى الإسلام ، ولذلك يبلغ الحج ذروته فى الاهتداء بهذا الحدث ، إذ يقوم كل حاج فى نهاية الحج بنحر فدية أو أضحية ، اقتداء بأن الله فدى ابن إبراهيم بكبش : ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ (الصافات : ١٠٧) . وليس من المحتم أن يقوم الحاج نفسه بذبح الأضحية . لذلك ، قمت أثناء تجوالى فى المدينة بإيداع ٢٨٠ ماركا ألمانيا بأحد البنوك ، ثمنا لخروفين حددت المستفيدين بهما ، وهم مسلمو البوسنة . وفى يوم عيد الأضحى ، سيقوم حوالى عشرة آلاف جزار ، جرى بهم من أقطار العالم الإسلامى كافة ، بذبح حوالى مليون من الأضاحى ، من بينها خروفاى .

ولقد كنت واثقا من أن لهما سير سل مجمدا إلى سبلت فى الأيام التالية .

كنت فى المساء أنظر دوما إلى ألوان نافورة المياه المتغيرة عند بحيرة جدة ، والتى يبلغ ارتفاع مائها ٢٦٥ مترا . وهى من معالم جدة الحديثة .

كنت متشوقا إلى ذروة الحج . وإياك والمرضى قبل يوم عرفة . والحج - كما يعلم الجميع - فرض على من استطاع إليه سبيلا : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ (آل عمران : ٩٧) . فهو فريضة على من تسمح له حالته الصحية ، ويفيض ماله عن حاجة أهله وجيرانه . إذ لا يجوز لمسلم أن يحج إذا كان جاره فى حاجة إلى مال . وبالرغم من ذلك ، يبيع بعض الفلاحين - عندما تتقدم بهم السن - ما يمتلكونه من أرض زراعية هى عماد معيشتهم ، ليحجوا .

فالحج ليس فريضة فحسب ، بل هو حلم لكل مسلم ، والعودة منه هى مفخرته . فهو يستطيع عند العودة أن يجد منزله وقد طلى بلون أخضر . ناهيك عن أنه سيحظى بمكانة رفيعة جدا . فلا لقب دكتور ، ولا لقب الحاصل على الماجستير ، ولا لقب «سعادة» ولا حتى لقب «أستاذ» تضاهى لقب حاج الذى يُخاطبُ به .

تحتاج رحلة الحج المكلفة ، والخطرة في بعض الأحيان - في عصر الطائرات - إلى ترتيبات روحية وأخرى مادية ، وبصفة خاصة بالنظر إلى أن تأشيرات الدخول للحج تخضع لنظام حصص محددة . (ونظرا لأنه من بين كل ١٠٠٠ مسلم يحصل مسلم واحد على تأشيرة حج ، فإنه يترتب على هذا النظام - وليس من قبيل الصدفة بطبيعة الحال - أنه لا يمكن توقع أن يكون هناك أكثر من ٤٠٠٠٠ حاج شيعي من إيران على أقصى تقدير) . ويجرى تجاوز نظام الحصص المشار إليه بواسطة العمال الأجانب الذين يعملون في السعودية ، ولا يمكن تحديد عددهم بدقة . فليس هناك حائل يحول دون توجيههم إلى مكة حاملين زجاجة ماء وقطعة من الورق المقوى (الكرتون) لاستخدامها بديلا للسريـر ، ومن ثم فإنهم يرفعون عدد الحاجاج إلى ما يزيد على المليونين .

يدعو القرآن الكريم المقبل على الحج إلى أن يراعى آداب الحج ، فعلى المحرم أن يتنزه عن مباشرة النساء ، وعن المعاصي من السباب وغيره ، وعن الجدل والمراء مع رفقته في الحج ، وعليه أن يجتهد في فعل الخير : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا لِإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ (سورة البقرة : الآية ١٩٧) .

لقد قرأت وصفا تاريخيا للحج من القرن التاسع عشر . قرأت لريتشارد بيرتون Richard Burtons في كتابه الصادر في جزأين عام ١٨٥٣ وصفا لرحلة حج إلى المدينة ومكة . وقرأت « رحلة حج إلى مكة » لـ Von Maltzan Hanrich (١٨٦٠) ، وفي وصف رحلة السويسري المسلم من مدينة بازل العريقة Johann Ludwig Burkler (١٨١٤) ، والذي عرف بالشيخ إبراهيم بن عبد الله بعد أن أعلن إسلامه . و درست إلى جانب ذلك إرشادات حديثة مفيدة ، مثل « دليل المرء للحج والعمرة » الصادر في السلسلة الألمانية « السفر اليوم » .

وكان أهم شيء فيما يتعلق بالإعداد الروحي هو دراسة آيات القرآن المتفرقات عن الحج ، وبصفة خاصة في السورتين ٢ (سورة البقرة) و ٢٢ (سورة الحج) ، وكذا حفظ أحاديث الرسول ﷺ الكثيرة التي تتناول الحج . وساعدني كتاب أحمد فون دنفر- الجامع على نحو مكثف للقرآن والحديث - كثيرا في ربط مناسك الحج ظاهريا وباطنيا ، ماديا وروحيا ، وهذا الأمر ليس بغريب على المسلمين الذين تؤلف عقيدتهم بين الروح والمادة معا ، إذ إن التوجه إلى الله في الإسلام لا ينحصر في الروح فقط أو الجسد فقط . فالمسلم في صلاته ، وفي صومه ، وفي نحره للأضحية ، وفي حجه ليس

حاضرا بروحه وعقله وقلبه فقط ، وإنما بلحمه ودمه أيضا ؛ فهو إما أن يكون هو كله حاضرا وإما ألا يكون حاضرا بالمرة . وهذا ناتج عن « التوحيد » كمبدأ جامع من منظور إسلامي .

ترقبا للأيام المشهودة ، جلست فى حجرتى بالفندق فى جدة أطلع ما حملته معى من مطبوعات عن الحج ، ومن بينها بعض سطور للأخ أحمد تقول : « ألا يمكننا القول إن الإحرام يشير إلى الموت ، وإن الطواف يسلم المرء إلى الله ؟ والسعى . . . أليس السعى إرهاقا وتعبا ؟ أليست زمزم هى الحياة والكينونة ؟ ويوم عرفة . . . ألا يجعلنا نتوقع يوم القيامة ؟ والمزدلفة . . . أليست هى الظلام الذى يسبق اليوم الجديد ؟ ومنى . . . ألا تمثل الوفاء من خلال نحر الأضحية ؟ وخلع ملابس الإحرام بنى . . . ألا يعنى حياة جديدة ؟ ورمى الجمرات . . . ألا يرمز لكفاح مدى الحياة ضد كل ماهو شر ؟ ولكن الله هو محور الحياة . . . » .

ينطلق صوت المؤذن عبر مكبرات الصوت مناديا إلى صلاة العصر . ويגיע دورى لأرفع أذان الإقامة فى مسجد الفندق الذى راح يمتلئ رويدا رويدا بالمصلين . ورحلت أردد باللغة العربية ماردهه بلال أول المؤذنين قبل ١٤١٣ سنة قمرية ، ولكن بصوت أضعف من صوته . وطلبنا من رجل من المالديف ذى بشرة داكنة جدا أن يؤمنا فى الصلاة ، فاستجاب لطلبنا على الفور .

لاحظت ، ونحن مجتمعون حول مائدة العشاء ، أنه لا يبدو على أحد منا أن لديه شهية للطعام . والسبب فى ذلك هو ترقبنا للانتقال فى الغد ، وهو ثامن أيام ذى الحجة ، من مكة إلى منى ، حيث محل إقامتنا الأساسى فى الأيام القادمة . ولم نلذق ليلتها طعم النوم . وفى صباح اليوم التالى ، تجمع القسم الأعظم منا فى ملابس الإحرام ببهو الفندق من الساعة الخامسة صباحا .

توقفنا بمكة لنؤدى طواف القدوم حول الكعبة مرة أخرى . وكان الطواف هذه المرة تحت الشمس الحارقة ، مما دفع كثيرا من الحجاج إلى محاولة الاحتماء مثلى بالمظلات ، وهو ما كان ينطوى فى مثل ذلك الزحام على خطر إلحاق أذى بالآخرين . وفى ظل هذا الزحام ، كان الطائفون لا يكادون يتقدمون خطوة إلى الأمام فى فناء المسجد الفسيح . ولذلك ، توجهت إلى الطابق الأعلى حيث يزداد نصف قطر دائرة الطواف ، ولم يكن بوسعى إلا ذلك . وطواف الكعبة هنا يعنى أن يقطع المرء مسافة ٦ , ٥ كيلو مترات فى حرارة تصل إلى ٤٤ درجة مئوية . ومع ذلك ، لا تأخذ المرء شفقة بنفسه ، حيث يهون

كل شيء على الحاج . ولقد كان جارى فى الطواف يحمل ابنه على كتفيه مسافة الطواف بأكملها .

النظر من هنا إلى أسفل يكاد يكون كالتنويم المغناطيسى . والمشهد شديد الجمال . فالكعبة تبدو كمركز ثابت لا يتحرك لأسطوانة تدور ببطء وفى سكون تام فى اتجاه مضاد لاتجاه عقارب الساعة . ولا يتغير هذا المشهد إلا عند الصلاة ، حيث تصير الكعبة مركزا لدوائر عديدة متحدة المركز ، تتكون من مئات الآلاف من أجسام ناصعة البياض لأناس يرغبون فى ، ويبحثون عن ، ويفعلون الشيء ذاته ، رمزا لتسليم النفس إلى بارئها . ويحيط اليوم بفناء المسجد ، الذى تتوسطه الكعبة ، عدة طوابق من الرخام الأخضر اللون ، ويحيط بالكعبة سبع مآذن مقامة على الطراز الهندى - الإسلامى ، مثلما يحيط الإطار بالجوهرة .

كان لا بد من أن انتزع نفسى من هذا المشهد لأواصل سفرى إلى منى بالسيارة ، فى رحلة استغرقت ٤٥ دقيقة لقطع خمسة كيلو مترات . ومنى هى « نقطة الانطلاق » إلى يوم عرفة . . وما أدراك ما عرفة !؟ يقول الرسول ﷺ : الحج عرفة .

وفى التاسع من ذى الحجة ، تنقل حوالى ٥٠ ألف حافلة ، ما يزيد على المليونى حاج إلى عرفة ، عبر شوارع قليلة موازية لمنى أو لمكة ، لمسافة تتراوح بين ١٠ و ١٥ كيلو متر . وتسبب هذه الحافلات فوضى فى المرور تعانى منها هى نفسها ، وهى فوضى جديدة بأن تدون فى موسوعة الأرقام القياسية .

يحاول البعض أن يقطع المسافة إلى عرفة سيرا على الأقدام ، إلا أن هذا لا يعد بدىلا مناسباً ، نظرا لارتفاع درجة الحرارة بشدة منذ الساعة الثامنة صباحا . وأرى رجلا يسعى مع أبيه المسن إلى بلوغ عرفات ، وهو ينهار بسبب هبوط حاد فى الدورة الدموية .

عند وصولنا إلى مدينة الخيام المقامة حول جبل عرفات ، كان الهواء يلفح الوجوه من شدة الحرارة التى تجاوزت الخمسين درجة مئوية فى الظل ، وتزيد على ٦٠ درجة مئوية فى الشمس ، وليست هناك نسمة هواء منعشة . فالشمس شديدة القسوة ، والمراء يعانى صعوبة بالغة فى التنفس . وكل حركة يترتب عليها إحساس بالتعب . وكان لا بد لى من أن ألاحظ ، أثناء انتظارى أمام الحمام ، أن الأقدام الألمانية تحترق خلال بضعة دقائق فى درجات الحرارة المرتفعة على هذا النحو . ولذلك ، التجأت فى فترات اليوم

الأشد حرارة إلى خيمة صغيرة تقاسمتها مع حاج يعمل أستاذا بجامعة جورج تاون في واشنطن . وكان الشيخ نعناع الذى من الجزائر يقيم فى الخيمة المجاورة لخيمتنا .
وكان يوما طويلا رائعا . . كان يوما للتأمل وللسلام . . يوما للصلاة ، وللأحاديث القيمة .

لم أكن ، منذ كنت أمارس التمارين الجيزويتية فى سنوات الصبا ، قد عاشرت مثل هذا التوجه الكامل إلى الله بكل هذا الصفاء الداخلى الباهر . فلا شىء يوم عرفة سوى مناجاته . وهنا يتجسد نداؤنا الدائم : لبيك اللهم لبيك . . هذا الإذن هو معنى الوقوف بين يدي الله بعرفات . . ملايين من الناس يتشحون بأكفان ، ويتركون فى هذا اليوم كل شىء وراء ظهورهم . . فوجودهم اليوم مكرس لله وحده . . يتوقعون موتهم . . يصلون ويتضرعون فى خشوع ويقين لم يحدثا من قبل ، ولن يحدثا فى الغالب من بعد .

فى هذا المكان ، ألقى محمد ﷺ قبل وفاته بأسابيع قليلة - فى عام ٦٣٢ ميلادية - خطبة تقرأ كل عام فى ذات اليوم ، وذات المكان . لقد خاطب المسلمين فى ذاك اليوم قائلا : « أوصيكم بالنساء خيرا . . » وأنهى خطبته قائلا : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدا : كتاب الله وستى . وإنى مسائلكم يوم القيامة فيما أنتم فاعلون » . ووفقا للرواية ، أجابه الحاضرون : « نشهد أنك أدت الأمانة ، وبلغت الرسالة ، ونصحت الأمة » . وهذا نفسه هو ما أشهده اليوم مع مليونين ومائتى ألف من النساء والرجال من أنحاء العالم كافة .

وفقا لشعائر الحج ، ينتقل الحجاج بعد غروب الشمس إلى المزدلفة التى تقع على بعد ٧ كيلو مترات من عرفة . وفى أثناء ذلك ، يحدث الكثير من الهرج والمرج ، وبسببه فقدت أنا وأستاذى حافلتنا ، ورحنا نبحت دون جدوى عن مكان شاغر فى مئآت الحافلات . . وإذ بى الملح وزير الصناعة المغربى عزماني ، الذى تربطنى به علاقة صداقة ، وهو يلوح لى وسط أكثر من مليونين من البشر . ولقد قوى ذلك من يقينى بأنه ليس هناك مصادفة حقيقية فى دنيا الله . وهكذا أصبحت ، مؤقتا ، عضوا غير رسمى فى بعثة الحج المغربية الرسمية . وفى بادئ الأمر ، كان هناك حث على الإسراع ، ولكننا جلسنا بعد ذلك نتصبب عرقا فى الحافلة لمدة ثلاث ساعات قبل أن نتحرك بسبب الزحام .

يتحرك جميع الحجاج الآن مرة أخرى فى اللحظة نفسها ، متجهين صوب هدف واحد . وتتدخل شرطة المرور ، ولكنها تزيد من فوضى المرور . . ويحاول بعض الحجاج قطع المسافة سيرا على الأقدام عبر الجبال السوداء التى تميزهم ملابسهم البيضاء عن أحجارها .

بلغنا المزدلفة حوالى الساعة الحادية عشرة مساء ، بسبب كثرة التوقف فى الطريق ، ونحن نشعر بالآلام فى ركبنا . وفيها أمنا إمام من الرباط لصلاتى المغرب والعشاء جمعا على الصخور التى سنجمع منها ٤٩ حصاة ، استعدادا لرمى الجمرات فى اليوم التالى . وكنا قد وعدنا بطعام إلا أنه كان لا بد لنا من أن نتحرك قبل مجيئه . ولم أسف لذلك كثيرا ، إذ اعتدت أثناء أيام الحج أن أكتفى بقليل من لحم الدجاج ، ومن البازلاء ، وتفاحة وثمره موز . ولقد كان شرب الماء هو الأهم . ولحسن الحظ لم نعان على الإطلاق نقصا فى مياه الشرب ، فالمستولون السعوديون يوزعون أثناء الحج ٨٠ مليون كيس من البلاستيك يحوى كل منها لترا من مياه الشرب ، كما يقومون عند كل تقاطعات الشوارع الكبيرة بإلقاء أكياس تحتوى على عصير الفاكهة إلى هذا الحشد الكبير من الحجاج . ولذلك ، لم أشعر بحاجة إلى مئوتى من الكوكاكولا .

وصلت حافلتنا فى الساعة الثانية صباحا إلى منى ، قريبا من موضع رمى الجمرات . . ذلك الرمى الذى يرمز لرفض الإنسان القاطع للشر بداخله هو نفسه ، وفى العالم أيضا . واقتربت من العمود ، حتى أضمن إصابته باستخدام إصبعين فقط ، مع احتفاظى بمسافة تحمينى من التعرض لوابل من حصى الحجاج من الخلف . إنه موقف صعب حقا ، لأن بعضا من البسطاء يتتابهم شعور بأن فى مقدورهم أن ينالوا من إبليس لمرة واحدة فى حياتهم ، فيرموا رمزه بأحجار كبيرة وبأحذية ومظلات .

تجمع حول حافلتنا مجموعة من الصبية يحملون - كما توقعت من قبل - مقصات لكى يقصوا لكل منا خصلة من الشعر فى مقابل ثلاثة ريالات ، ما لم نكن نرغب فى حلق الرأس تماما . ومع أنه كان مسموحا لنا أن نخلع ملابس الإحرام ، فقد هرعنا إلى مكة قبل الشروق . ولم نكن بحاجة إلى إقناع سائق الحافلة ، الذى أمضى الليل ساهرا ، بأن يحملنا إلى مكة ، إذ كان هو نفسه يرتدى ملابس الإحرام . وبعد وصولنا إلى مكة ، طفنا للمرة الثالثة حول الكعبة طواف الإفاضة . وكان الزحام فى هذه المرة أشد من ذى قبل ، إذ كان عدد الطائفين فيها لا يقل عن مائتى ألف حاج . ولذا استغرق منى الطواف حول الكعبة والسعى بين الصفا والمروة ساعتين حافلتين بالإرهاق .

الساعة الآن هي الرابعة والنصف صباحا . ولقد حان الآن موعد صلاة فجر يوم عيد الأضحى ، عاشر أيام ذى الحجة ، بالحرم المكي . وسوف أؤديها ، بآخر ما تبقى لى من قواى ، مع ٨٠٠ ألف مؤمن . وبالنظر إلى فخامة الصوت وكمال القراءة ، يعد مؤذنو الحرم المكي وأئمتة صفوة الصفوة . فأذانبهم نداء فنى رائع . . وقراءتهم للقرآن مناجاة مسموعة . ومن حسن الحظ ، أن يسمح الحنابلة السعوديون بهذا البعد الجمالى للصلاة ، على عكس ما يفعله المالكيون فى شمال إفريقيا . فهذا الجمال ينقل حاجا ساهرا مرهقا مثلى إلى عالم خال من التعب .

أخيرا ، عدنا بعد الساعة السادسة صباحا إلى بيت ضيافتنا فى منى ، بعد أن قضينا ٢٦ ساعة على أقدامنا متأثرين عاطفيا وبدنيا . وتعانقنا أنا ورفاقى فى الحج مرددين : حجا مبرورا ، وحجا مقبولا إن شاء الله . وهنأى الشيخ نعان فى سعادة بوضعى الجديد . وعدت إلى غرفتى حيث خلعت أخيرا ملابس الإحرام . لهذه المرة - واستلقيت فى سريرى ملتهب العروق . وحمدت الله أن منحنى القدرة على أداء فريضة الحج ، داعيا أن يتقبلها منى . ثم رحت فى نوم عميق ، لم يزعجنى فيه ضجيج صوت جهاز التكييف المرتفع .

بينما كان المنهكون أمثالى يحاولون استعادة قواهم فى يوم عيد الأضحى ، كان حجاج آخرون - ممن يتمتعون بقدرة أكبر على الاحتمال - ينحرون الأضحية أينما شاءوا . للحاج أن يأكل جزءا صغيرا من لحم الأضحية . أما القسم الأكبر منها ، فيوزعه على المحتاجين من الحجاج . ويعلق الهيكل العظمى فى الشمس إلى أن يجف ، ويتم ذلك أحيانا خارج عربات خشبية . وللمرء أن يتخيل الرائحة . . لا ، لا يمكن ذلك إلا لمن خبرها فعلا .

طرقت - أكثر من مرة - باب غرفة جارى القادم من واشنطن لكى أطمئن عليه ، لعلمى أنه كلف نفسه ما لا طاقة له به . ولقد طلب منى بالفعل أن أقوم عنه بما تبقى من رمى الجمرات . وهو أمر مسموح به بالنسبة لفريضة الحج بأكملها ، إذ يجوز أن تؤدى بالإنابة إذا كان الإنسان غير قادر على أدائها بنفسه .

كنت مدعوا فى ثانى أيام عيد الأضحى - ضمن ١٥٠ حاجا من أنحاء العالم كافة ، من بينهم سلطان بروناى ، وأحد أبناء الرئيس الإيرانى رافسنجاني - إلى قصر الملك فهد ابن عبد العزيز بنى . وكان العاهل السعودى قد وجه فى ذاك العام دعوة للحج ، وليس للغداء فقط ، إلى ١٣٠٠ مسلم من الاتحاد السوفيتى السابق . وجاء مجلسى بين

الكاتب المصرى أنيس منصور، والقاضى الأعلى فى باكستان محمد حفظ الله ، الذى أخبرنى أنه لم يصادق على الإطلاق على حكم بقطع يد سارق . ولما كان الملوك يحبون كثيرا أن ينتظرهم الناس ، فقد أتيح لنا وقت طويل للحديث ، مرارا وتكرارا، عن الإسلام ، تأكيداً على أن الحج تجمع هائل للمسلمين كافة .

يتولى حراسة الملك فهد ثلاثة حراس شخصيين ، شديدي الوجوم، يرتدون الملابس الوطنية . وأغلب الظن أنهم عملوا من قبل فى حراسة أبيه الملك الأسطوري عبد العزيز آل سعود (توفى عام ١٩٥٣) . ولكنهم مسلحون اليوم، لا بخناجر ومسدسات فحسب ، وإنما بمدافع آلية أيضا .

ظهر جليا أثناء حديثي مع الملك أنه يعرف الكثير عنى . وكانت دعوته لى قد فسرت على أنها رد على حملة التحريض ضدى فى ألمانيا .

طبقا لأداب الطعام العربية ، تقدم الأطعمة كلها فى وقت واحد ، بحيث تكون فى متناول الجميع ، حتى لتكاد المناضد أن تنقوس . ومن هذه الآداب أن يأكل المرء بسرعة ، ويتحدث قليلا ، وينصرف إذا ما شبع ، ويبقى الملك إلى أن ينصرف الجميع .

فى مساء اليوم نفسه ، حاولنا أنا والوزير عزمانى اختراق الشوارع التى تفوح منها رائحة كريهة ، والمكتظة بالناس ، بهدف الوصول إلى حيث الجمرات لرميها للمرة الثانية ، مستعينين بالشرطة . كنا نضع مناديل معطرة على الأنف والفم . فمخلفات الحجاج الذين يفترشون أسفلت الشوارع ، ومحركات السيارات الدائرة باستمرار لتشغيل أجهزة تكييفها ، تجعل الطريق محل انتقاد شديد من حماة البيئة .

وهؤلاء الحجاج الذين يفترشون الأسفلت هم من الحجاج الأجانب ، الذين يحجون بدون مطوف ، وهم يمارسون وجودا غير قانونى ، ولكنه وجود حقيقى جدا . ولقد وضعت امرأة فى هذا اليوم طفلتها على ما تفرشه من ورق .

فى اليوم الثالث (١٣ يونيو) ، وهو آخر أيام عيد الأضحى ، توجهت بمفردى بعد صلاة الفجر مباشرة لرمى الجمرات لى ولزيملى . وكان الحجاج قد بدءوا ينهضون من فراشهم الذى يفترشونه فى الشارع . وكان هؤلاء يستخدمون مخزونهم القليل من الماء للوضوء فى المقام الأول (انظر فصل : « خمس مرات كما أمرنا ») . وكان بعض الباعة الجائلين يبدءون عملهم أيضا . ومزج الحج بالتجارة أمر مسموح به دائما . فبعض الحجاج يمولون رحلة عودتهم إلى أوطانهم من حصيلة ما باعوه من منتجاتهم الوطنية ،

من حلى من العاج وفضيات وأقمشة . ويمر بى أحد الحجاج الأتراك ، ويسألنى باقتضاب : أين الشيطان؟ وكأنه ينبغى على الجميع أن يعلم أين هو ، بل وأن يتحدث التركية أيضا ! ولقد أرشدته فى أدب شديد ، وباللغة التركية ، إلى العامود الثالث (الجمرة الثالثة) التى سنرميها اليوم . ولم يكن باستطاعتي قبل اليوم أن أحدد مكان الشيطان بهذه الدقة !

فى اليوم التالى ، وفى طريق عودتنا من منى إلى جدة ، طفنا فى مكة طواف الوداع حول الكعبة . وكان المسجد قد امتلأ حتى آخره ، إذ كنا قد وصلنا إليه وقت صلاة العصر . وفى هذه المرة ، طفت حول الكعبة فوق السطح على الرغم من عدم قدرة القدمين على احتمال سخونة السطح الملتهبه إلا لثوان معدودات . ولقد خلّت نفسى مثل دب يحاولون تعليمه الرقص على سطح من صفيح ساخن . ومع ذلك ، جلست فيما بعد لفترة طويلة فى الشرفة للتملى من صورة هذا المسجد ذى الجمال المبهر لحفظها فى الذاكرة !

لاحظت يوم ١٦ من يونيو وأنا أسلم جواز سفر الحج ، استعدادا للعودة بالطائرة إلى الدار البيضاء ، أن المسئولين يبدوون سعداء كلما غادر حاج البلد راضيا . ولقد اتجهت الطائرة الجامبو مباشرة ، وفى خط مستقيم ، إلى تونس . وبذلك ظل اتجاه القبلة ثابتا طوال رحلة الطائرة ، مما مكن المضيفين من أداء الصلاة فى ممرها . ولقد وقع اختيارى على عدد مجلة « تايم » الصادر فى ١٥ من يونيو لكى أقرأه أثناء رحلة الطائرة . وكان يحتل غلاف هذا العدد صورة لأحد المساجد ، بينما عنوانه الرئيس هو : « إسلام . . هل يجب أن يخاف العالم ؟ » .

الفصل الثانى دروب فلسفية إلى الإسلام

لم يدر بخلدى على الإطلاق ، وأنا أتوجه إلى وزارة الخارجية على جبل فينوس في بون يوم ٨ / ٩ / ١٩٨٠ ، أننى سأسافر إلى مكة بعد سنتين لأداء فريضة الحج . فلقد بدأ ما حدث بعد ذلك ، من تحول في حياتى يتكشف لى ، عندما أمنت التفكير في محاضرة شائقة ألقاها زميلى المسلم محمد أحمد هوبوم ، وفي حديثى مع محمد أحمد رسول المدير المصرى - الألمانى لدار نشر « المكتبة الإسلامية » بكونلون ، وأنا أعرض عليه مخطوطا من اثنتى عشرة صفحة ، جمعتها لولدى على مر السنين ، كى أحدد له بشكل جازم ما أراه فلسفيا حقا . فلقد أذهلنى رد فعل رسول ، وهو يقول لى : إن كنت مقتنعا بما استخلصته ، فأنت مسلم !! ولم يكن بوسعى آنذاك أن أدرك هذا . ومع ذلك ، فقد أقنعتى برغبته في نشر هذا النص ، عن طريق دار نشره ، تحت عنوان « درب فلسفى إلى الإسلام »^(٥) .

لم يمر سوى أيام معدودات قبل أن أشهر إسلامى بنطق الشهادتين يوم ٢٥ / ٩ / ١٩٨٠ وليس من الأمور الهيئنة أن يقدم المرء كشف حساب وتقييما لتطوره الفكرى . لقد كتب هيرمان هسه في إحدى رواياته القصيرة « نوفاله » < Klein und Wagner > عام ١٩١٩ : « التحدث هو أضمن السبل لإساءة فهم كل شىء وجعله ضحلا ومجديا » . وكتب أيضا في روايته « لعبة الكرات البللورية » محذرا من صياغة معنى داخلى في كلمات ، إذ يقول على لسان قائد الأوركسترا : « أظهر المهابة للمعنى ، ولكن لا تظنه قابلا للتعلم » .^(٦) لقد فشل عظماء كثيرون في هذه المحاولة .

فعمر القوي ، ثانى الخلفاء ، كان يضطهد المسلمين إلى أن اعتنق الإسلام ، ولا يمكن حقا فهم كيفية اقتناعه بالإسلام على نحو مفاجئ بعد أن قرأ سورة طه إثر مشاجرة مع أخته^(٧) .

ويقول الصوفى العظيم أبو حامد الغزالى (القرنين الحادى عشر والثانى عشر) م في اعترافاته : « إن العقيدة لم تتغلغل في نفسه من خلال دليل واحد واضح بعينه ، وإنما من

خلال عدد لا يحصى من أسباب الإيثار ، وخبرات ومواقف مصاحبة يمكن تعديدها تفصيلاتها . ويقول أخيرا : إن عودته إلى الإسلام كانت بفعل «نور ألقاه الله في صدره»^(٨) .

وفي كتابه الرائع « الطريق إلى مكة » ، يعرض محمد أسد لأمر هدايته إلى الإسلام في سطور قليلة لا تكاد تقنع بعض القراء المتشككين ، بينما يشير في موضع آخر من كتابه إلى أنه تشرب الإسلام ارتشاحا^(٩) .

ويكاد هذا الأمر يشبه أمر اهتداء كريستيان (عبد الهادي) هوفمان إلى الإسلام ، إذ يصفه بما لو كانت « ضربة من السماء » قد أصابته^(١٠) .

أما أنا ، فكنت لسنوات ، بل لعقود ، منجذبا إلى الإسلام كالمغناطيس ، لأنني ألفت أفكاره ، كما لو كنت قد عايشته من قبل .

لقد وجهني على هذا الدرب ثلاثة أحداث أساسية ، ذات طبيعة إنسانية ، وجمالية فنية ، وفلسفية . ويرتبط أول هذه الأحداث ارتباطا عجيبا بالجزائر .

ففي عام ١٩٦٠ ، أمضيت شهرين في Chateau Neuf sur Loire لا يمكن من إجادته اللغة الفرنسية ، استعدادا لامتحانات القبول بوزارة الخارجية . وهناك ، كنت أقرأ يوميا تقارير الصحافة الفرنسية عن حرب الجزائر .

وفي اختبار القبول بوزارة الخارجية ، كان على كل متقدم أن يلقي محاضرة لمدة لا تتجاوز خمس دقائق في موضوع يحدد عشوائيا ، ويكلف به قبلها بعشر دقائق . ولكم كانت دهشتي عندما تبين لي أن موضوع محاضرتي هو « المسألة الجزائرية » . وكان مصدر دهشتي هو مدى علمي بهذا الموضوع ، وليس جهلي به . وبعد شهور قليلة من الاختبار ، وقبل أن أتوجه إلى جنيف بوقت قصير ، أخبرني رئيس التدريب ، عندما التقينا مصادفة أثناء تناولنا للطعام ، أن وجهتي قد تغيرت إلى الجزائر .

في أثناء عملي بالجزائر في عام ١٩٦٢ / ٦١ ، عايشة فترة من حرب استمرت ثمانين سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطنية الجزائرية ، وانضم إليهما أثناء فترة وجودي هناك طرف ثالث هو « منظمة الجيش السري » ، وهي منظمة إرهابية فرنسية ، تضم مستوطنين وجنودا متمردين . ولم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر . وغالبا ما كانوا يقتلون رميا بالرصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة . ولم يكن لذلك من سبب ، إلا كونهم عربا ، أو لأنهم مع استقلال الجزائر .

وكنت عند سماعى صوت سلاح آلى ، أتصلت تليفونيا بزوجتى الأمريكية لتسرع إلى شراء ما نحتاج إليه ، لأن الهجوم التالى فى المنطقة نفسها لا يتوقع حدوثه قبل عشرين دقيقة .

وكانت أنبل مهامى هى إعادة أفراد الفرقة الأجنبية من الألمان الفارين إلى الوطن بمعاونة من السلطات الفرنسية . وكان عدد هؤلاء الرومانسيين المساكين غير قليل ، منذ فر قائد قوات المظلات فى العام السابق . وكلم كان الموت يجذبهم ! وكانت منظمة الجيش السرى قد جندت عددا منهم ضمن قوات خاصة (كوماندوز) . ومن ثم وجدوا أنفسهم بين نارين . كما كانت فرص نجاتهم من الموت ضئيلة جدًا . وكنت ، بصفتى ممثلا للقنصلية العامة الألمانية ، أضع الزهور على قبور الكثير منهم .

كنت ، وأنا أبحث عن ألمان بين الجرحى فى المستشفيات ، أحمل سلاحى معدا للاستخدام . وكنت أدقق النظر فى وجه من يقابلنى ، بل وفى يديه . وعندما كانت القامات تتقابل ، كان كل شخص يتعد عن الآخر عائدا إلى الخلف ، طلبا للأمان . وفى بعض الأحيان ، كانت زوجتى المدعورة تصر على حماية ظهرى ، فكانت تسير خلفى على مسافة عدة خطوات حاملة فى كُمّ ثوبها سكينًا حادًا .

وما يزال بعض ذكريات تلك الأيام يثير كآبة فى نفسى حتى الآن . فعندما كنت فى طريقى إلى مقر إذاعة فرنسا ٥ ، حيث كان من المقرر أن ألقى ، تنفيذًا لتكليف من القنصل العام ، محاضرة عن «وضع الرقص المسرحى» فى ألمانيا ، تعطلت مضخة البنزين فى سيارتى الفولكس واجن من طراز «الخنفسة» فى شارع إيزلى الضيق ، كثير المنحنيات . وسرعان ما اصطفت السيارات خلف سيارتى ، مطلقة أصوات النفير . وفى تلك الأثناء ، كان أمامى رجل يعبر الشارع ، وأطلق عليه شخص الرصاص من الرصيف المقابل ، فسقط جريحًا أمام رفرف سيارتى الأيسر . وإذا بالمهاجم يشير لى بسلاحه أمرًا أن أواصل سيرى ، كى أدخل ساحة إطلاق الرصاص . ولم أكن أرغب فى ذلك ، بل ولم أكن أستطيعه أيضًا . وأخيرًا ، تقدم الشخص الذى يحمل السلاح من الرجل المصاب ، وأطلق عليه رصاصة أخرى أردته قتيلا ، ثم اختفى فى زحام البشر فى تودة وعلى مهل !

ولقد استأثرت كثيرا أيضا ، عندما رأيت مضطرا أعضاء منظمة الجيش السرى ، وهم يشعلون النار فى سيارات شحونها سلفا ببراميل من الوقود ، ويدفعونها من فوق منحدر إلى حى يسكنه العرب . ولا بد للمرء من أن يتوقع أن يكون على قائمة القتلى ، إذا ما أصبح شاهدا غير مرغوب فيه . وكان حلاقى فى البيار يدرك ذلك جيدا ، فحين هاجمت قوات «منظمة الجيش السرى» مكتب التلغراف المقابل لمحله فى شارع جالينى ، أداذ مقعده

حتى لا يكون شاهدا على ما يجري . ولم يكن تصرفه أقل غرابة من تصرف أحد أفراد الشرطة الذى عرض علىّ فى مايو عام ١٩٦٢ أن يجرس سيارتى ، بينما كانت النيران مشتعلة خلف ظهره فى مكتبة البيار .

عندما توصل الرئيس دييجول ، فى إيفيان فى مارس عام ١٩٦٢ ، إلى اتفاق مع الحكومة المؤقتة لجبهة التحرير الوطنى الجزائرى على وقف إطلاق النار فى يوليو التالى^(١١) ، صعدت منظمة الجيش السرى من أعمالها الإرهابية ، بهدف استفزاز الجزائريين لخرق الاتفاق . فبدأ أفرادها فى تصفية النشء الأكاديمى الجزائرى ، وراحوا يقتلون ، رميا بالرصاص ، النساء اللائى يرتدين الحجاب . وقبل تحقيق الاستقلال بأيام قلائل ، أطلقوا الرصاص على آخر بائع جزائرى جائل فى البيار ، فأردوه قتيلا أمام مكتبى مباشرة . وكان هذا البائع قد عاش ينادى على أسماكه منذ عقود طويلة ، دون أن يلحق أذى بأى إنسان كائنا من كان . وفى الشارع الذى كنت أقطنه ، كان جيرانى من الفرنسيين يلقون من النوافذ على المتصرين . بكل ما لا ييخلون به . وكانت الثلاثجات التى يلقون بها تسقط على أكوام من القمامة التى لم تُزل منذ أسابيع ، وهو ما كان من حسن حظ الفئران .

شكلت هذه الوقائع الخزينة خلفية أول احتكاك لى عن قرب بالإسلام المعيش . ولقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم ، والتزامهم الشديد فى رمضان ، ويعينهم بأنهم سيتصرفون ، وسلوكهم الإنسانى ، وسط ما يعانون من آلام . وكنت أدرك أن لديهم دورا فى كل هذا . ولقد أدركت إنسانيتهم فى أصدق صورها ، حينما تعرضت زوجتى للإجهاض تحت تأثير « الأحداث » الجارية آنذاك .

فلقد بدأت تنزف عند منتصف الليل . ولم يكن باستطاعة سيارة الإسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحا ، بسبب فرض حظر التجول ، وبسبب شعار « القتل دون سابق إنذار » المرفوع آنذاك . وحينما حانت الساعة السادسة ، أدركت ، وأنا أطل من نافذة مسكنى فى الطابق الرابع ، أن سيارة الإسعاف لا تستطيع العثور علينا ، لأن منظمة الجيش السرى كانت قد غيرت فى تلك الليلة أسماء كل شوارع الحى الذى أقطنه ، بحيث أصبحت كلها تحمل أسماء مثل شارع « سالان » ، وشارع « يهود » ، وشارع « منظمة الجيش السرى » .

بعد تأخير طال كثيرا ، كنا فى طريقنا متجهين إلى عيادة الدكتور شمعون (قبل أن تنسفها منظمة الجيش السرى بوقت قصير) ، حيث صادفنا حاجزا أقامته الجمعية الجمهورية للأمن . وعلى الرغم من صفير البوق الذى كان السائق يطلقه ، فإنه لم يكن

باستطاعته أن يشق طريقه إلا ببطء شديد . وكانت زوجتي تعتقد ، في تلك الأثناء ، أنها ستفقد وعيها . ولذلك ، وتحسبا للطوارئ ، راحت تخبرني أن فصيلة دمها هي (O) ذات (RH) سالب . وكان السائق الجزائري يسمع حديثها ، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من نفس فصيلة دمها . ها هو ذا العربي المسلم يتبرع بدمه ، في أتون الحرب ، لينقذ أجنبية على غير دينه .

لكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الأصليون الميثرون للدهشة ، بدأت أقرأ « كتابهم » . . القرآن في ترجمته الفرنسية لـ Pesle/ Tidjani . ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين ، حتى الآن . وحتى تلك اللحظة ، لم أكن قد تعرفت على القرآن إلا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في متزاب جنوبي الجزائر ، حيث يحفظه أطفال البربر ، ويتلون في لغة غريبة عنهم ، وهو ما دهشت له كثيرا . وفيما بعد أدركت أن حفظ وتلاوة القرآن ، باعتباره رسالة الله المباشرة ، فرض تحت الظروف كافة .

ولقد أزعجني رد الفعل الغاضب من جانب أحد الجزائريين ، عندما حدثته في بار فندق ترانس ميدترانيان في غاردايا ، عن قراءتي للقرآن ، إذ استنكر في صراحة لا ينقصها الوضوح وجود ترجمات له . واعتبر محاولة ترجمة كلام الله إلى لغة أخرى بمثابة تجديف . ولم أستغرق وقتا طويلا قبل أن أستوعب رد فعله . فاللغة العربية تشتمل على مفردات لا تدل على وقت محدد بعينه . فالمفردات التي تشير إلى مستقبل مؤكد يمكن أن تدل على أمر حدث في الماضي أيضا . ناهيك عن أن اللغة العربية تتضمن بعض ما يمكن للعربي أن يفهمه تلميحا . وبغض النظر عن ذلك ، فهناك المشكلة المعتادة التي تكمن في أن الكلمات التي تعبر عن ذات المعنى في لغتين لا تتطابق فيما يختص بتداعي الخواطر إلا نادرا . ومن ثم ، فلإن كل ترجمة للقرآن إن هي إلا تفسير يفقر المعنى ويجرده من مضمونه . وهكذا كان الرجل في البار على حق .

لم تشأ هذه الجزائر ، التي أدين لها بالكثير، أن تتركني لحالي ، وإنما تبعتني كالقدر . فعندما أصبحت سويسرا ترعى مصالحنا في الجزائر ، في عام ١٩٦٦ ، كان عليّ أن أعمل من السفارة الألمانية في برن على استمرار الاتصال مع من تبقى من بعثتنا الدبلوماسية في الجزائر ، من خلال القسم السياسي في السفارة السويسرية . وكان البريد المرسل من بون إلى الجزائر ، يمر من خلال أسبوعيا . وبعد ٢٥ عاما من عملي بالجزائر لأول مرة ، عدت إليها سفيرا في عام ١٩٨٧ . ومنذ اعتمدت سفيرا في المغرب ، المجاور للجزائر ، في عام ١٩٩٠ ، يندر أن

تفارق تخيلتي صورة الجزائر التي ماتزال تعاني آلاما مأساوية . فهل يمكن أن يكون ذلك كله محض مصادفة؟!

* * *

هدانى إلى الإسلام أيضا ، تجربة مهمة ، ذات طبيعة جمالية متصلة بالفن الإسلامى . ولهذا التجربة ، قصة تتلخص فى أننى « مولع بالجمال » . وكنت منذ صباى معجبا بالجانب الشكلى للجمال ، وأرغب الغوص فى أعماقه حتى عندما كانت حماتى الأمريكية تقول - استنادا إلى المنهج البيوريتانى - إن الجمال مجرد أمر سطحي ، وإنه ليس إلا خداعا على السطح .

عندما تلقيت فى عام ١٩٥١ الدفعة الأولى من منحة التفوق ، التى تمنحها وزارة الثقافة فى بافاريا « للموهوبين جدا » ، دفعتها بأكملها ثمنا لشراء نسخة مطبوعة على قطعة من الجوت من لوحة بول جوجان : « الفتاة وثمار المانجو » . وبها أننى لم أكن ممن يقطنون حى Maximilianeum ، الواقع على اليمين من نهر إيزار، Isar وإنما كنت أقيم فى المستوطنات السكنية للتوريين الديمقراطيين ، عند ميدان ماسان ، حيث يتقاسم العمال والطلبة غرفها ، فقد نقلت لوحة جوجان التى اشتريتها إلى مسكنى هناك ، ورحت أحللها . ولم ألبث أن اقتنعت بأن الفن الساكن (غير المتحرك) - الرسم ، والنحت ، والعمارة ، والخط ، والأعمال الفنية الصغيرة - مدين بالفضل فى تأثيره الجمالى للحركة المجمدة ؛ ومن ثم ، فإنه مشتق من الرقص . ولذلك ، يزداد إحساسنا بجمال الفن التشكيلى كلما ازادت قدرته على الإيحاء بالحركة .

وهذا هو ما يفسر انبهارى الشديد بالرقص الذى دفعنى إلى مشاهدة عروض الباليه كافة فى مسرح برينزرجتسن فى ميونخ . ومنذ ذلك الحين ، ازداد اهتمامى بالرقص ، واتسع ليشمل كل ما يتصل به . وكنت أقضى كل ساعة فراغ بين مواعيد المحكمة فى صالات عروض الباليه ، بالقرب من قصر العدل . وحصلت على تمارين الباليه ، لكى أتعلم - ولو على نحو متخلف - رقص الباليه الكلاسيكى ، حتى أعرف ماهية ما أكتب عنه . ويعتمد هذا الفن اللطيف ، فى نهاية الأمر ، على جهد بدنى خارق . وهكذا تعلمت أن أميز ، على سبيل المثال ، بين الحركات المختلفة وأساليب أدائها (١٢) .

كان أكثر ما يروق لى هو مدرسة لونا فون زاخنوفسكى الروسية ، التى تعيش فى المنفى . ولقد تربى فى هذه المدرسة تلميذات نجيبات مثل أنجيلا ألبريشت . ومنها تكونت فى

منتصف الخمسينيات فرقة « باليه زاخنوفسكى » ، التى قدمنا بواسطتها عروضاً راقية فى ميونخ وفى مدن أخرى فى بافاريا . وكنت مسئولاً فى هذه الفرقة عن التعاقدات ، والدعاية والإضاءة ، ووحدة الماكياج . وفى عام ١٩٥٥ ، أسست فى ميونخ بالاشتراك ، مع كارل فيكتور بريتنس تسوفيد ، جماعة أصدقاء الباليه ، وتوليت معه باب نقد الرقص فى صحيفة ميونخ المسائية .

كانت المراحل التالية فى حياتى هى بإيجاز : العمل فيما بين عامى ١٩٥٤ ، ١٩٨٠ ، ناقداً متخصصاً للباليه فى صحف فى ألمانيا وبريطانيا وأمريكا ، والعمل محاضراً للمادتين تاريخ وعلم جمال الباليه بمعهد كولونيا للباليه فيما بين عامى ١٩٧١ ، ١٩٧٣ . وتقدمت بمذكرات إلى مؤتمر وزير الثقافة حول تأسيس باليه قومى ألمانى .

لم يكن بعض معارفى يعلم أن القانون والدبلوماسية هما مهنتى الأساسيتان ، وليس الباليه . وكان الكتاب الأثير حقاً عندى ، هو كتاب جيلبرت وكونز عن تاريخ علم الجمال كعلم فلسفى^(١٣) . وكعاشق للباليه ، ذلك الفن المجرد الذى يجسد الموسيقى ، كنت فى الواقع أبحث عن الأسباب التى ترغمنى على الإحساس بجمال أشياء أو حركات بعينها^(١٤) ولهذا السبب ، كنت أقبع لأسابيع طويلة فى إحدى الغابات البفاريتية باحثاً فى أسس علم جمال الحركة . وهناك تبين لى أننا كبشر لا نملك إلا أن نحس بجمال الجسد البشرى الصحيح وما يتطابق مع مقاييسه . وهو ما ينطبق أيضاً علينا كمحللين بصريين لما تفرزه الطبيعة من صور وأنواع . يضاف إلى ذلك أننا نقرأ الصور فى ذات الاتجاه الذى نكتب فيه . وتبين لى أخيراً أن الحركات تستحوذ على انتباهنا بسبب ما يمكن أن تنطوى عليه من مخاطر . وتبين لى آخراً أننا نَعْجَبُ بحركات الطرد المركزى ، لأننا نستطيع أن نتخيلها ممتدة فى ما لا نهاية^(١٥) .

عبر هذا الطريق ، صار الفن الإسلامى بالنسبة لى تجربة مهمة ذات قيمة عالية ومثيرة . ألا يماثل فى سكونه تماماً ما أسعدنى فى حركات الباليه . . . التجريدية : القدرة الإنسانية ، والحركة الداخلية ، والامتداد فيما لا نهاية ، وذلك كله فى إطار من الروحانية التى يتسم بها الإسلام ١٩

أهتمنى أعمال معمارية ، مثل الحمراء فى غرناطة والمسجد الكبير فى قرطبة ، اليقين بأننا إفراز حضارة راقية رفيعة . واستوعبت جيداً ما كتبه راينر ماريا ريلكا بعد زيارته لكاتدرائية قرطبة ، إذ كتب : « . . . تملكنى منذ زيارة قرطبة عداً وحشياً للمسيحية . إننى أقرأ القرآن وهو يتجسد لى صوتاً يستوعبنى بقوة طاغية ، وأندفع بداخله كما تندفع الريح فى الأرغن »^(١٦) .

صار الفن الإسلامى لى وطننا جماليا ، مثلما كان الباليه الكلاسيكى من قبل . وأصبحت أرى الأعمال الفنية للعصور: الإغريقى والرومانى والقوطى ، ولعصر النهضة والروكوكو مثيرة ، وعريقة ، وأصيلة ، بل وعبقرية ، ولكنها لا تنفذ إلى داخلى ، ولا تحرك عواطفى ولا مشاعرى .

إننى أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذى قبل حيث إننى محاط فى المنزل الآن بفن تجريدى ، ومن ثم بفن إسلامى فقط . وأدركها أيضا عندما يستمر تاريخ الفن الغربى عاجزا عن مجرد تعريف الفن الإسلامى . ويبدو أن سره يكمن فى حضور الإسلام فى حميمية شديدة فى كل مظاهر هذا الفن ، كما فى الخط ، والأرابيسك ، ونقوش السجاد ، وعمارة المساجد والمنازل والمدن . إننى أفكر كثيرا فى أسرار إضاءة المساجد وفى بنائها الديمقراطية ، وفى بناء القصور الإسلامية ، الذى يوحى بحركة متجهة إلى الداخل ، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة وينابيعها ومجاريها المائية ، وفى الهيكل الاجتماعى - الوظيفى المبهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذى يهتم بالمعيشة المتجاورة تماما كما يهتم بإبراز موقع السوق وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح ، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل فى منطقة السوق ومنطقة السكن .

إن من يعرف واحدا من هذه الأسواق - وليكن فى دمشق ، أو إسطنبول ، أو القاهرة ، أو تونس ، أو فاس - يعرف الجميع . فهى جميعا ، كبرت أم صغرت ، منظمات إسلامية من ذات الطراز الوظيفى . فما أكثر ما تجولت فى سوق مدينة سالى المؤاخية للرباط لكى أستعيد حيويتى . إنه ذروة مجتمعية حيوية يجد فيها كل إنسان مكانا له ، شيخا كان أم شابا ، صحيحا كان أم معاقا ، فقيرا أم غنيا ، أبيض أم أسود . ولا يوجد به عجلة ، ولا أزمة ضيق وقت ، ولا مبالغة فى تقييم الذات ، ولا خمور ، ولا وسائل نقل ثقيل ، ولا سياج ، ولا ابتزاز ، وحيث الجميع سواسية ، وكل عملية شراء ترتبط بـ «دردشة» ، وحيث تغلق الحوانيت أبوابها وقت الصلاة .

كان ما أحسست منذ البداية أنه إسلامى وباعث على السعادة هو فى واقع الأمر التأثير الناضج للتناغم الإسلامى ، وللإحساس بالحياة والمكان الإسلاميين على العقل والروح . وهذا ما أحسست به فى متحف جوليينكيان الإسلامى فى لشبونة ، مثلما أحسست به فى المسجد الأموى بدمشق ، وفى مسجد ابن طولون بالقاهرة ، وفى مسجد القيروان القديم أو المسجد السليمى فى درنه .

قبل أن يقودنى الدرب الفلسفى إلى الإسلام ، الذى قادنى بدوره إلى تجربة أساسية ثالثة فى حياتى ، كنت قد حصلت ، وأنا بعد فى سن المراهقة فى مدينة أشفنبيرج ، على قسط وافر من التعليم الجيزويتى ، من خلال عضويتى لجمعية Congregatio Mariana ، وهى المقابل لحركة « ألمانيا الجديدة » المتمركزة فى الشمال .

ويعود ارتباطنا ، بل تعلقنا الرومانسى ، بهذه المنطقة إلى فترة حكم النازى ، وذلك لأن الجستابو لم يتمكن من الكشف عنها عندما كانت تقاوم هذا الحكم سراً . ولم يكن حتى أبى المشتت الفكر يعلم بعضويتى لهذه المنظمة . وكنا نجتمع أسبوعياً مع أحد القساوسة الجيزويت فى إحدى المقابر ، فى ظل إجراءات أمنية مشددة . فكان كل فرد منا لا يعرف سوى أفراد مجموعته فحسب . ولكننا تمكنا بمرور الوقت من استقطاب أفضل عناصر تلاميذ المدارس الثانوية . وقطعنا بذلك الطريق على منظمة « شبيبة هتلر » ، أى أننا منعنا هذه العناصر الجديدة من أن تنضم إلى منظمات الشباب التابعة للحكم النازى . ولقد أدهشنا أن عدد أفراد المنظمة بلغ عند انتهاء الحرب ٨٠ فرداً .

بعد أن انقضت الحرب ، عدنا إلى الاستمتاع بحياة وأساليب منظمات الشباب التى كانت سائدة فى عشرينيات هذا القرن .

ونظراً لما سبق ذكره ، فقد كنت على دراية تامة بالديانة الكاثوليكية ، وبأدق شئونها من الداخل . ولكننى فى الوقت ذاته ، كنت قد بدأت أضع هذه الديانة محل تساؤلات وشكوك .

كنت أنا و Carl Jacob Burckherdt نتساءل دوماً عما إذا كان من الصواب أن يكون عالم اللاهوت ودارس الأديان مسيحياً الديانة^(١٧) .

وبالرغم من إعجابى بفلسفة Ludwig Wittgenstein ، فإننى كنت على يقين تام من عدم وجود دليل ينفى وجود الله . وكنت شديد التمسك بالرأى القائل بأن عدم وجود الله غير مؤكد بشكل قاطع ، وأن الاعتقاد بوجود الله أو نفيه وجوده يظل مسألة تحسمها العقيدة ويقرن الفرد^(١٨) .

ولقد حسمت هذه باعتقادى فى وجود الله . وبعد ذلك ، ثار سؤال عن ماهية الاتصال بين الله والإنسان .

ولقد كنت شديد الاقتناع بإمكانية ، بل قل بضرورة ، تدخل الله وتسييره لمجريات الأمور . ويرتكز اقتناعى هذا على دراستى ودرايتى بتاريخ الإنسانية والعلوم والحق ، التى استنتجت من خلالها أن مجرد مراقبة الطبيعة وتتبعها فقط لن يقودنا إلى إدراك حقيقة

علاقتنا ببيتنا وبالله . ألا يشهد تاريخ العلوم على حقيقة مفادها أن الحقائق العلمية يغير بعضها بعضا بسرعة شديدة (١٩)؟!

كنت بهذه الخطوة قد حسمت يقينى بإمكانية ، بل بضرورة ، الوحي والدين . ولكن أى دين ؟ وأى عقيدة ؟ هل هى اليهودية ، أو المسيحية ، أو الإسلام (٢٠)؟

وجاءتنى الإجابة من خلال تجربتى الثالثة التى تتلخص فى قراءة المتكررة للآية ٣٨ من سورة النجم : ﴿الأنزلة وزر أخرى﴾ (٢١). ولا بد من أن تصيب هذه الآية بصدمة شديدة كل من يأخذ مبدأ حب الآخر الوارد فى المسيحية مأخذ الجد ، لأنه يدعو فى ظاهر الأمر إلى النقيض .

ولكن هذه الآية لا تعبر عن مبدأ أخلاقى ، وإنما تتضمن مقولتين دينيتين تمثلان أساسا وجوهرا لفكر دينى ، هما :

١ - أنها تنفى وتنكر وراثه الخطيئة .

٢ - أنها تستبعد ، بل وتلغى تماما ، إمكانية تدخل فرد بين الإنسان وربه ، وتحمل الوزر عنه .

٣ - والمقولة الثانية هذه تهدد ، بل وتنسف ، مكانة القساوسة ، وتحرمهم من نفوذهم وسلطانهم الذى يتركز على وساطتهم بين الإنسان وربه وتطهيرهم الناس من ذنوبهم .
والمسلم بذلك هو المؤمن المتحرر من جميع قيود وأشكال السلطة الدينية .

أما نفى وراثه الخطيئة وذنوب البشر ، فقد شكل لى أهمية قصوى ، لأنه يفرغ التعاليم المسيحية من عدة عناصر جوهرية ، مثل : ضرورة الخلاص ، التجسيد ، الثالوث ، والموت على سبيل التضحية .

وبدا لى أن تصور فشل الله فى خلقه ، وعدم قدرته على تغيير ذلك إلا بإنجاب ابن والتضحية به - أى أن الله يتعذب من أجل الإنسانية - أمر فظيع ومروع ، بل وتجديف وإهانة بالغة .

وبدت لى المسيحية وكأنها تعود لترتكز فى أصولها على أساطير متنوعة ومتعددة .

وتبين لى جليا الدور الخطير والشرير الذى لعبه بولس الرسول . لقد قام بولس ، والذى لم يعرف المسيح أبدا ولم يصاحبه فى حياته ، بتغيير بل وبتزوير التعاليم اليهودية - المسيحية التى صاغها برنابه وترى فى المسيح أحد رسل الله وأنبيائه .

وتيقنت أن المجلس الملى ، الذى انعقد فى نيقيا (عام ٣٢٥) ، قد ضل طريقه تماما ، وحاد عن الصواب وتعليقات المسيحية الأصلية ، عندما أعلن أن المسيح هو الله . واليوم ، أى بعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرنا ، يحاول تصحيح هذا الخطأ بعض علماء اللاهوت الذين يتمتعون بجرأة شديدة .

ومجمل القول إننى بدأت أنظر إلى الإسلام كما هو ، بوصفه العقيدة الأساسية للحقة التى لم تتعرض لأى تشويه أو تزوير . عقيدة تؤمن بالله الواحد الأحد الذى ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (سورة : الإخلاص) . رأيت فيه عقيدة التوحيد الأولى ، التى لم تتعرض لما فى اليهودية والمسيحية من انحراف ، بل ومن اختلاف عن هذه العقيدة الأولى . . عقيدة لا ترى أن معتنقيها هم شعب الله المختار ، كما أنها لا تؤله أحد أنبياء اليهود .

لقد وجدت فى الإسلام أصفى وأبسط تصور لله . تصور تقدمى . ولقد بدت لى مقولات القرآن الجوهرية ومبادئه ودعوته الأخلاقية منطقية جدا حتى إنه لم تعد تساورنى أدنى شكوك فى نبوة محمد .

ولقد سمعت مرارا قبل اعتناقى الإسلام مقولة أن التحول من دين إلى دين آخر ليس له أى أهمية ، حيث إن الأديان كلها تؤمن فى آخر الأمر بإله واحد ، وتدعو إلى الأخلاقيات والقيم ذاتها . وإن السلوكيات والأخلاق الحميدة ، بالإضافة إلى الإيمان بالله فى قلب الإنسان ، وأن يتوجه الإنسان إلى الله سرا ، لأهم من الصلاة خمسا ، ومن صوم رمضان وأداء فريضة الحج . كم من مرة اضطرت إلى الاستماع إلى هذه المقولات من مسلمين أترك تخلوا عن عقيدتهم دون أن يدركوا ذلك (٢٢) .

إن إلهًا خاصا سريا ليس بإله . . وكل هذه الحجج والمقولات تبدو واهية ، إذا ما تيقنت أن الله يتحدث إلينا فى قرآنه . ومن يدرك هذه الحقيقة لا يجد مفرا من أن يكون مسلما بأعمق معانى هذه الكلمة .

الفصل الثالث

خمس مرات يوميا كما هو مفروض

ربما يمكن القول إننى كنت قريبا من الإسلام بأفكارى قبل أن أشهر إسلامى فى عام ١٩٨٠ ، بنطق الشهادتين متطهرا كما ينبغى ، وإن لم أكن مهتما حتى ذلك الحين بواجباته ونواهيه فيما يختص بالحياة العملية . لقد كنت مسلما من الناحية الفكرية أو الذهنية ، ولكنى لم أكن كذلك بعد من الناحية العملية . وهذا على وجه اليقين ما يتحتم أن يتغير الآن جذريا . فلا ينبغى أن أكون مسلما فى تفكيرى فقط ، وإنما لا بد أن أصير مسلما أيضا فى سلوكياتى .

إذا كان الدين يعنى رباطا يربط الإنسان بربه ، وإذا كان الإسلام يعنى أن يهب المسلم نفسه لله ، فقد كانت أهم واجباتى ، كمسلم حديث عهد بالإسلام ، فى الخمسينيات من العمر ، أن أتعلم صلاة الإسلام . وليس من الضروري أن يكون المرء خبيرا فى الحاسب الآلى ليدرك أن الأمر هنا يتعلق بمسألة اتصال . . ما أصلح فنون الاتصال للاتصال به ؟

من المؤكد ، على أى حال ، أنه لا شئ يعرض لإسلام المرء للخطر أكثر من انقطاع صلته بربه . ومن ثم يصبح التسبيح بحمد الله هو العنصر المحورى فى حياة كل من يعى ويدرك معنى ما يقوله ، عندما يقول إنه يؤمن بالله . وبناء على ذلك ، فإن من لا يصلى ليس بمؤمن من وجهة نظرى . فمن يؤكد لامرأة غائبة حبه لها ، دون أن تكون لديه رغبة فى التحدث إليها تليفونيا أو فى الكتابة إليها ، ودون أن يلقي نظرة واحدة على صورتها طوال اليوم ، ليس محبا لها فى حقيقة الأمر . وهذا ما ينطبق تماما على الصلاة . فمن يعى ويدرك حقا المعنى الحقيقى لوجود الله ، ستكون لديه بالضرورة رغبة فى التأمل وفى التوجه إلى الله كثيرا . وبذلك فقط ، يصير ما يردده المسلم كثيرا وهو يقرأ سورة الفاتحة : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ حقيقة واقعة .

كنت حتى تلك اللحظة أجهل ما يجب فعله واتباعه في الصلاة . ناهيك عن قدرتي على الحفظ والتلاوة باللغة العربية . ومن ثم ، كانت أولى أولوياتي آنذاك هي التغلب على هذا النقص . وقبل أن أمعن في دراسة مقدمة مصورة باللغة الألمانية للصلاة الإسلامية ، تحظى بأكبر قدر من الثقة ، طلبت من صديق تركي أن يعلمني الوضوء وكيفية الوقوف في الصلاة ، والركوع ، والسجود ، والجلوس على الأرض مستندا على القدم اليسرى ، ورفع الذراعين ، واتجاه النظر ، ومتى يقرأ المرء جهرا ، ومتى يقرأ سرا مع تحريك الشفتين في القراءة ، وكيف يقف المرء موقفا صحيحا خلف الإمام ، وكيف يتصرف المرء عندما يأتي متأخرا إلى المسجد ، وكيف يتحرك داخل المسجد . إنه علم كامل ! وفي الحقيقة ، فإنه من الخطر أن يتصرف المسلم كمسلم دون أن يكون كذلك .

* * *

تبدأ الصلاة الإسلامية ، وإن بدا ذلك أمرا غريبا ، في الحمام أو عند مصدر المياه في الفناء الأمامي للمسجد بالوضوء . وينبغي تعلم ذلك بحسب تتابعه وتسلسله ، وكيف يغسل المرء اليدين ، وكيف يمسح الرأس ، وكيف يتأكد من غسل الكعبين . . كل شيء وضع وحدد على نحو دقيق تماما (٢٣) .

حينما ينوي المرء الصلاة ويرفع اليدين إلى الرأس مكبرا مفتتحا الصلاة ، فإنه يتفصل تماما عن مشاغل حياته اليومية ، مما يؤكد قدسية الصلاة بالنسبة له .

لا يمثل الوضوء مشكلة في البلدان الحارة ، حيث تؤدي الحرارة المرتفعة إلى سرعة الجفاف . وفي حالة عدم توفر الماء ، فإنه يكفي تنظيف اليدين بالرمل على سبيل الرمز (التيمم) . ولقد تعرضت لمثل هذا الموقف ، حينما غاصت السيارة التي يقودها سائقنا الخبير بالصحاري في السابع من شهر ديسمبر عام ١٩٩٣ ، أثناء رحلة في منطقة ليوا الغنية بالنفط في الإمارات العربية المتحدة ، حيث تبدو الرمال صالحة تماما للتيمم .

أما في مناطقنا الباردة ، فليس من المريح حقا ، في حالة عدم وجود مناشف ، أن يضطر المرء إلى ارتداء جواربه وقدماءه مبتلتان .

* * *

تبين لي أن تعلم كيفية أداء الصلاة أيسر كثيرا مما كنت أتوقع ، لأن الصلاة تتكون من وحدات ثابتة تسمى «ركعة» . فالركعات هي وحدات الصلاة .

وينبغي أن يتعلم المرء أيضا عدد الركعات في كل من الصلوات الخمس : الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، وأن يعرف مواقيتها ، وما ينبغي على المسافر أن يراعيه من أحكام الصلاة .

تعلمت أخيرا كيفية الوقوف في صلاة الجماعة ، حيث ينبغي أن يصطف المصلون في صف مستقيم تتلاقى فيه الأقدام وتُسَدُّ الفرج . وهذا التلاصق يرمز بالنسبة لى أكثر من مجرد ضم صفوف . إنه يرمز إلى التضامن على نحو يؤثر في مجددا كل مرة . ويتجدد هذا التضامن في نهاية كل صلاة مع تحية « السلام عليكم » التي ينطقها المصلّي وهو يلتفت يمينا ثم يسارا ، وبعد ذلك يمسح وجهه بكلتا يديه إعلانا عن انتهاء الصلاة ، وبعدها يمد يديه إلى جاره في الصلاة مصافحا متمنيا أن يتقبل الله صلاته « تقبل الله صلاتك » .

روى لى عبد الوهاب عبادة ، السكرتير العام السابق لوزارة الخارجية الجزائرية ، أنه غير هذه التحية مرة عندما كان طفلا . فلقد بدا له أنه من الأقرب إلى المنطق أن يقول : « السلام عليك » . وكانت نتيجة ذلك أنه تلقى على وجهه صفعة من والده الذى علمه أن المسلم يقول دائما : « السلام عليكم » لأن تحيته تشمل جميع المخلوقات المرئية وغير المرئية . . . تشمل الملائكة . . . وتشمل الصراصير .

من الأهمية بمكان ، أن يعرف كيف يحدد موضع صلاته ، بحيث يضع نظارته وحافضة أوراقه على مسافة نحو ٩٠ سنتيمترا أمامه . فلن يتتهك أحد موضع صلاة أحد آخر ، ولن يمر أحد من أمام أحد المصلين مباشرة . وإننى لأتذكر أننى هممت بمغادرة مسجد الرسول ﷺ في المدينة ، بعد أن انتهيت من الصلاة ، يوم ٢٦ من ديسمبر عام ١٩٨٢ . وعندما بلغت الباب الرئيسى ، كانت حركة السير بطيئة . وكان السبب أن أحد القادمين إلى الصلاة متأخرين ، لحق بها فور وصوله إلى الباب ، وما يزال يكمل صلاته على الدرج في هدوء تام ، بينما انقسمت جموع المصلين المنصرفين من المسجد حوله كما تنقسم حول صخرة . ولم يجرؤ أحد على أن يزعبه ، أو يشوش عليه في صلاته ، أو أن يقتحم موضع صلاته . أما ما هو أشد غرابة وإثارة للدهشة ، فذلك الذى رأيته أثناء الطواف حول الكعبة في عام ١٩٩٢ . . . فلقد راحت امرأة ضعيفة البنية تؤدى الصلاة دون اكتراث ، في قلب الزحام على مسافة بضعة أمتار من الكعبة ، محاطة بأربعة رجال أشداء يصنعون حولها سياجا بسواعدهم . ومرة أخرى ، يتكرر نفس رد الفعل الهادىء من جانب الناس . فلا لوم ، ولا تأنيب ، ولا كلمة غاضبة ، وإنما احترام للصلاة .

ربما يكون من العسير أو حتى من المستحيل ، بسبب هذه القواعد الصارمة ، أن يغادر

المسجد أحد من المصلين في الصفوف الأمامية قبل أن يغادره الجميع . ولقد اضطرت في عام ١٩٩٣ إلى أن أترك مضيفي في أبو ظبي ينتظرنى ، لأننى لم أجد وسيلة لمغادرة المسجد تتفق مع القواعد . فلكى أغادر المسجد عبر طريق جانبي ، كان لا بد من أن أمر أفقيا من أمام المصلين ، وهذا هو « الحرام » بعينه .

* * *

أحب كثيرا أن أؤدي الصلاة بمفردى ، حتى أستطيع أن أتحكم في سرعة إيقاعها الذى يتسم عادة بالسرعة إلى حد ما عند الصلاة في المسجد ، بسبب مراعاة ظروف المرضى ومن يكونون على عجلة من أمرهم . ومع ذلك ، فإن لصلاة الجماعة فضلا على الصلاة منفردا .

بعيدا عن المساجد التى لها إمام محدد ، يؤم الصلاة فيها ، ينبغى قبل كل صلاة جماعة أن يختار في لحظتها من يؤمها . ويتمتع المضيف بالحق في أن يؤم الصلاة . ومع ذلك ، فإننى أحب بشدة أن أفوض في إمامتها واحدا من ضيوفى (مثل السفير السعودى ، أورئيس حزب الاستقلال المحامى محمد بوستة ، عندما نلتقى معا على مائدة الإفطار في رمضان بمقر إقامتى في الرباط) .

وذات مرة ، اقتضت ظروف غريبة أن أصلى أنا نفسى إماما . (٢٤) فعند وصولي إلى سان فرانسيسكو في العاشر من أكتوبر عام ١٩٨٥ ، للمشاركة في الاحتفال السنوى لتجمع شمالي الأطلسي ، رحت أبحث في دفتر التليفون وفي سجل الكنائس عن مسجد . وكنت موقنا أننى سأجد في عاصمة المذاهب الأمريكية جماعة إسلامية . وشد ما كانت دهشتي حينما قرأت : « المركز الإسلامى ، ٨٥٠ ، شارع ديفيزاديرو ، تقام شعائر الصلاة يوميا في الساعة الثانية عشرة ، وأيام الأحاد في الساعة الثالثة عشرة » ، تماما كما هو معتاد في الكنائس التى لا تحدد مواعيد الصلاة بها تبعا لوضع الشمس كما هو الحال عند المسلمين . وعندما وصلت إلى هناك ، وجدت جماعة تتألف من ثلاثة أعضاء من السود . وانتظارا لارتفاع الأذان مناديا للصلاة راح شيخ أشيب الشعر ، يضع على عينيه نظارة واسعة مائلة إلى أسفل ، يقرأ في نسخة عربية من القرآن واضعا الإصبع على السطور . وينضم إلى الحاضرين عضو آخر من أعضاء الجماعة . إنه يوسف سيمون . . شاب شيعى أسود يدرس العلوم السياسية . ولقد قابل دهشتي بالصمت ، إذ لا بد من أنه اعتاد أن يعانى التفرقة كاسود بين بيض ، وكمسلم بين مسيحيين ، وكشيعى بين سنة .

لم تفارقنى الدهشة على الإطلاق . فها هو ذا المؤذن يؤذن للصلاة ، ولكنه يبدأ بالإقامة

قبل الأذان . ولأن « بلالا » ، أول مؤذن للإسلام بالمدينة ، كان أسود ، فقد شعرت بحرج شديد في أن أصبح خليفته في سان فرانسيسكو . ولكنى ما كنت لأستطيع الصمت إزاء كل هذه التطورات المتناقضة ، فرحت أروى بحرص شديد أنه سبق لى أن كنت في مكة ، وأنهم هناك يبدءون بالأذان ثم الإقامة .

ولم يدهشنى رد الفعل لما قلت ، بل اعتبرته رد فعل طبيعيا ، إذ دعتنى الجماعة الصغيرة على الفور للصلاة بها إماما ، لأننى « الأكثر علما » بين المسلمين الموجودين . ولم يؤثر فى ذلك بأى حال كونى ألمانيا أبيض وأننى جئتهم لأول مرة . وهكذا وجدت نفسى على غير انتظار فى مواجهة القبلة . وتمنيت لو أنها كانت ، على الأقل ، موجهة توجيهها صحيحا نحو مكة . وصفت جماعتى الصغيرة جدا فى صف مستقيم ، ورفعت يديّ مكبرا « الله أكبر » .

إن للمعرفة وحدها وزنا يعتد به . وهذا ما تؤكدُه أيضا واقعة أخرى . ففى ديسمبر عام ١٩٨٢ ، أم صبى عربى فى الخامسة عشرة من العمر ، بفندق شيراتون المدينة ، صلاة مجموعة من المعتنقين الباكستانيين الأُميين .

فيما يختص بصلاة الجمعة ، التى تتألف بصفة أساسية من خطبتين قصيرتين ثم صلاة ركعتين ، فإنه لا بد لأدائها من الذهاب إلى المسجد . وينهى الخطيب خطبته فى العادة برفع يديه بالدعاء إلى الله . وبما له أهمية سياسية كبيرة ، أن يدعو الخطيب بالبركة للحاكم .

وبناء على خبرتى لسنوات طويلة ، لا تحقق هذه الخطب ، للأسف ، فى العالم العربى ما كان يمكن أن تحققه ، لأنها تخاطب المشاعر أكثر من مخاطبتها للعقل . فهى تردد ما يؤمن به المؤمنون أكثر مما تعمقه . ويظهر ذلك فى نبرة صوت الخطباء . فبعضهم يصرخ كما لو كان يستثير حماسة جيش لخوض معركة . وينبغى مع ذلك أن أقر ، على الجانب الآخر ، أنه لا مجال فى العالم الإسلامى للوعظ بأسلوب حديث ، لأنه لا يكاد يوجد به من يدعى الإلحاد . فلماذا ينبغى على المرء إذن أن يدعم أسس ومبادئ العقيدة بحجج وبراهين عقلية ومعقدة ، بدلا من أن يوظف تربويا ما يسود العالم الإسلامى من إيمان ؟ (وهناك أيضا استثناءات إيجابية . فكما يتحمل بعض المسيحيين فى ميونخ مشقة الوصول عبر طرق أطول إلى خطيب بعينه ، كنت فى فترة وجودى بالرباط أذهب حتى مشارف المدينة لأستمع إلى إمام مسجد لالا « السيدة » سكيته ، المثقف فى خطبة صلاة الجمعة) .

أثناء عملى الوظيفى ، كان علىّ ، تنفيذا لقاعدة بروتوكولية ، أن أصلى صلاتى عيدى

الفطر والأضحى خلف قادة دول ، مثل الرئيس الجزائري الشاذلى بن جديد ، والملك الحسن الثانى ملك المغرب . وكان ذلك يجرى أمام عدسات كاميرات التلفزيون . وكنت فى كل مرة ألمس الروح الديمقراطية التى تضيفها الصلاة الإسلامية حتى على مثل هذه الأجواء . فسجود ملك على الأرض مرتديا جواربه أمر جد مختلف عن خطو رئيس فرنسا فى كاتدرائية ريمس نحو موضع جلوسه المميز .

يتسم حفظ النصوص العربية ، التى تتلى أثناء الصلاة ، ومن بينها مقاطع قصيرة أو طويلة من سور القرآن ، بالنسبة للبعض ، بقدر من الصعوبة ، يفوق ذلك الذى يتسم به تعلم كيفية أداء حركات الصلاة . ولقد ساءنى ألا أستطيع أن أحفظ جيدا النصوص العربية ، مما جعلنى أشبه بمساعد قس يفتقر إلى المعرفة اللاتينية . ولذلك ، قررت مثل المسلمين كافة ، منذ الأزل إلى الأبد ، أن أتعلم من اللغة العربية ما يكفى على الأقل لفهم الصيغ النحوية وأصول المتون . (ولقد استفدت كثيرا من هذه المعرفة الأولية ، عندما عملت فيما بعد سفيرا فى الجزائر) . وكان أول ما تعلمته بطبيعة الحال هو سورة « الفاتحة » ، أول سور القرآن وفاتحة الكتاب ، وهى مكون رئيسى لكل ركعة . ومن ثم ، فإنها تُتلى يوميا ١٧ مرة على أقل تقدير :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الرحمن الرحيم ﴿ مالك يوم الدين ﴾ إياك نعبد وإياك نستعين ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴿ . بعد الفاتحة تعلمت السورة رقم ١١٢ ، أى سورة الإخلاص ، التى تعادل من حيث مضمونها ، وفقا لما يروى عن الرسول ﷺ ، ثلث القرآن بأكمله ، على الرغم من قصر آياتها الأربع : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل هو الله أحد ﴾ الله الصمد ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ ولم يكن له كفوا أحد ﴿ .

وتلا ذلك المعوذتان ، وهما : سورة الفلق (رقم ١١٣) ، وسورة الناس (رقم ١١٤) ، ثم سور مكية أخرى قصيرة مثل سورة الفيل (رقم ١٠٥) ، وسورة قريش (رقم ١٠٦) ، وسورة الكافرون (رقم ١٠٩) ، وسورة النصر (رقم ١١٠) ، وكذا الآيات من ١ إلى ٥ من أول سورة نزل بها الوحي ، وهى سورة العلق رقم ٩٦ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ خلق الإنسان من علق ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ الذى علم بالقلم ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ . ولم أغامر بعد ذلك بمحاولة تعلم (حفظ) مقاطع أطول من القرآن مثل آية الكرسي (سورة ٢ - آية ٢٥٥) ، وآية النور (سورة ٢٤ - آية ٣٥) ، وكذا المقاطع الخاصة بأسماء الله الحسنى ، أى صفات الله ، (سورة ٥٩ - الآيات ٢٢ - ٢٤) ، إلا بعد تقدمى المتنامى فى المعارف العربية .

إن من يحلل نصوص الصلاة ، يصل إلى اليقين بأن جوهر الصلاة هو ذكر الله ودعاؤه . وهذا يتفق مع إرشاد القرآن إلى أن أسمى واجبات الإنسان : أن يهتدى بفضل قدراته الذهنية إلى معرفة الله والتسبيح بحمده . وهذا هو جوهر سلوك المسلمين . فإذا سألت أحدهم عن أحواله ، فلن يجيب : جيدة أو سيئة ، وإنما سيقول : الحمد لله .

بعد الصلاة ، يقوم المرء بشغف شديد بالتسبيح بحمد الله ، مستخدماً إما مسبحة مكونة من ثلاث وثلاثين أو من تسع وتسعين حبة ، وإما أصابع يده مردداً في همس : «سبحان الله وبحمده» أو «الشكر لله» و «الحمد لله» ، و«الله أكبر» . ولعلنا نلاحظ أنه - خلافاً للمسيحية - تتعدد أشكال التسبيح والدعاء في الإسلام .

وإذا كان للدعاء مكانته الرئيسية ، فإن الانصراف عن الدعاء إلى الله يصير نوعاً من نقص الإيمان ، لأن «الله قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه» . (انظر : سورة ٢ آية : ١٨٦) .

وكما أنه ليس للدعاء صورة أو قالب محدد ، فليس له أيضاً موقع أو زمن محدد ، ولا يشترط أن يكون باللغة العربية ، وهو في حالته المثلث ذكر دائم لله . وهذا الذكر الدائم لله هو ما يجتهد فيه متصوفة المسلمين . ولقد قامت أنا ماري شيميل بجمع قدر كبير من هذه الأذكار والأدعية الإسلامية الجميلة (٢٥) .

ويرجع إلى التصوف الإسلامي الفضل في تماسك وعدم تفكك الأذكار والأدعية الإسلامية شكلاً ومضموناً ، بدءاً من المتصوف الأندلسي ابن عربي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر م حتى فريشجوف شوون (٢٦) في عصرنا الراهن . فلم يتحلل الصوفيون الإسلاميون الحقيقيون على الإطلاق من الشكليات المفروضة ، وإنما قاموا بعقلنتها . فما هو ذا شوون يقول في موضع آخر (٢٧) : «إن المسلم - وبصفة خاصة من يتبع السنة حتى في أدق وأصغر تفريعاتها - يعيش في شبكة من الرموز ومن يحمل هذا في قلبه لا يترك صلاته تتحول إلى روتين . وسواء أديت الصلاة في مسجد شيعي في هامبورج ، أو في مسجد مبني بالطوب اللبن (الطوب الأخضر) وجذوع النخيل في واحة فيجيج شرقي المغرب ، أو في المسجد الأموي في دمشق بفسيفسائه المبهرة ، فإن الصلاة واحدة ، فقد تعلموها على يد معلم واحد (وهو ما حدث بالفعل) . وهذا التوحد الشكلي يوفر الهدوء والطمأنينة اللازمين للتركيز التام .

* * *

تنطوي الصلاة في الإسلام ، بالإضافة إلى جانبها الروحي ، على بعد مادي ملموس ، فضلا عن بعد سياسى محتمل . فالمرء يحتاج إلى وقت طويل حتى يتعلم كيف يجلس على قدميه مسترخيا على أرض صلبة ، دون أن يتعرض لتقلصات عضلية ، مدركا أن وضع القدمين عاريتين في الوضع المناسب أسير منه وهما داخل الجوارب . ولكن الجلوس على الأرض دون حراك لساعات طويلة على نحو ما يفعله إخواننا في الشرق أمر لم يعد بمقدورنا أن نتعلمه في سن متقدمة .

ومن المؤكد ، أن الصلاة في الإسلام تفيد في علاج أعراض التوتر المعاصر ، الذى لا يحتاج إلى وقت طويل لتحليل ومعرفة أسبابه . فالإنسان المعاصر لا يعمل من حيث الكم ، فيما يختص بالعمل العضلى بصفة خاصة ، أكثر مما كان يعمل فيما مضى من الزمن ، بل إن العكس هو الصحيح . أما الجديد ، فهو السرعة التى تجرى بها كل الأحداث وتجرى بها كل الأعمال - بواسطة التللكس ، والفاكس ، والبريد الإلكتروني ، والإنترنت ، والبريد السريع - والتى ترهق المرء وسين - أكثر من الرئيس - الذين يساورهم القلق من احتمال فقدان السيطرة على الأمور ومداومة المواعيد لهم ، والخوف من الفشل . ويزيد تعاطى الخمر ، والتدخين ، والأقراص المخدرة ، والأقراص المنشطة ، الأمر سوءا . ولقد ارتفعت تكاليف علاج انسداد الشرايين عند من يشغلون وظائف الإدارة العليا ، إلى درجة أنهم أصبحوا يرغمون على القيام بإجازات إجبارية . وكذلك تتناول البرامج التدريبية لمديرى شئون العاملين التغذية الحيوية المرتدة ، والتأمل الاستشرافى ، وضرورة اكتشاف الفرد بنفسه لطقوس الشاى اليابانية كوسائل للتخلص من التوتر والقلق .

ومقولتى في المقابل ، هى أن الصلاة الإسلامية تحقق كل هذا وأكثر منه ، إذ إنها لا تساعد المؤمن على التوقف عن التفكير والاسترخاء فحسب ، وإنما تساعد أيضا على تحقيق تحرره الداخلى من سحر المال والجاه والمنصب . فبينما يجد الأمريكى الذى يعيش تحت ضغوط مختلفة أنه أمام خيارين لا ثالث لهما : إما الحرب وإما الهروب بالانتحار ، يختار المسلم اختيارا ثالثا هو أن يفيض مع الأشياء . (ربما يقصد المؤلف هنا توكل المسلم على الله) . فبفضل الصلاة الإسلامية لا يستطيع مسلم حقيقى أن يكون متوترا مؤرقا ، ولا أن يكون مصدرا للتوتر والأرق .

إننى أعرف تماما عما أتحدث . فلقد كان بمقدورى أن أعرف كل العوامل التى تسبب الضغط والتوتر والأرق من خلال عملى مديرا لقسم حلف شمالى الأطلسى والدفاع بوزارة الخارجية في الفترة (١٩٧٩ - ١٩٨٣) ، ومن خلال عملى مديرا لإدارة المعلومات الخاصة

بخطر التهديدات بالعدوان في حلف شمال الأطلسي ببروكسل في الفترة (١٩٨٣-١٩٨٧).

ابتداء من عام ١٩٨٠ ، لم أعد أحمل معي في رحلات العمل سوى سجادة للصلاة وبوصلة (صنع تايوان) ، لتحديد اتجاه القبلة ، وإن كنت على يقين بأن منشقة نظيفة تفي بالغرض ، وأن الله ليس غربيا ولا شرقيا ، إذ ﴿ . . فأينما تَوَلَّوْا فَوَجَّهْ وَجْهَ اللَّهِ . . ﴾ (سورة البقرة : الآية ١١٥) . وراحت أيامي تتشكل أكثر فأكثر تبعا لمواقيت الصلاة ، وليس تبعا للساعة التي تسبب القلق والتوتر . (فعندما يتواعد المرء مع مسلمين ، فإنه لا يواعدهم «الساعة الثالثة والربع» ، وإنما يواعدهم لوقت غير محدد إلى حد ما « بعد صلاة الظهر » ، أو « بعد صلاة المغرب ») .

ومجمل القول إنني وجدت عبر الصلاة تلك الطمأنينة والتحرر الداخلي الذي ينتزع المسلم من الضغوط كافة ، لأنه يستطيع أن ينتزعه من عالم يقاس الوقت فيه بالمال ، والمال فيه هو كل شيء .

عندما تعرضت في عام ١٩٩٢ لحملة طعن وتجريح شرسة في وسائل الإعلام بسبب إيماني ، لم يستطع بعض من زملائي أن يفهم عدم اكتراثي بهذه الحملة (أو أنهم اعتبروه نوعا من الكبرياء والغطرسة) . وكان من الممكن العثور على تفسير لهذا السلوك من جانبي في الآية الخامسة من سورة الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

في تلك الأثناء ، صارت الصلاة بالنسبة لي عنصر تنظيم لحياتي على جانب كبير من الأهمية ، حتى إنني لم أعد أرغب العيش في بلد لا أستطيع أن أسمع فيه نداء المؤذن الجميل للصلاة كما هو الحال في فاس ، وفي إسطنبول مرة أخرى أخيرا .

لاحظت مرارا أن الصلاة المنزهة عن الغرض يمكن ، بحكم طبيعتها ، أن تصبح عنصرا سياسيا . فإلى ما قبل إقدام الجبهة الإسلامية في الجزائر على العمل العلني في عام ١٩٨٨ ، كان أتباعها قد بدءوا يتجنبون المساجد الخاضعة لإشراف الحكومة (كما يتجنب كثيرون من الأتراك العاملين في ألمانيا المؤسسات التابعة لوزارة الأديان التركية) . فإسلامهم الموازي ينعكس في صلاة موازية أيضا . ففي البليدة ، على سبيل المثال ، أدينا الصلاة في عام ١٩٨٧ في مسكن خاص مجاور للمسجد مباشرة ، بدلا من أن نصلي في المسجد .

وبالمثل ، كان من المظاهر المميزة أن تدخل المسجد مجموعات من الشباب ، قبل أو بعد صلاة الظهر بوقت قصير ، لتصل في أحد الأركان كمجموعة مغلقة ، وخلف إمام خاص . وهذه هي ذات الظاهرة التي لا حظتها في سبتمبر عام ١٩٩٤ في مسجد سنان باشا بحى بارباروس بإسطنبول .

كانت النتائج السياسية باهرة ، عندما أرادت حكومة جبهة التحرير الوطنى الجزائرى أن تدلل ، في أحد المساجد بالقرب من ميناء الجزائر يوم عيد الأضحى عام ١٩٨٨ ، على مدى ما صارت إليه من تدين وورع . فلقد غضب الشعب بأكمله ، (أو سخر) ، عندما تبين له على شاشات التلفزيون أن عناصر قيادية من حزب الوحدة الاشتراكى تجهل بشكل واضح كيفية أداء الصلاة . ولم تمض سوى شهور قلائل حتى أصيبت جبهة التحرير الوطنى في شهر أكتوبر بهزيمة قاسية ، في انتفاضة شعبية ، بينما اكتسبت الجبهة الإسلامية للإنقاذ وضع حزب شرعى .

ما يزال هناك الكثير مما يمكن قوله في هذا الصدد . ولكن حان الآن موعد انطلاق صوت الأذان مناديا عبر عشرات من مكبرات الصوت لصلاة المغرب التى تحين بغروب الشمس مباشرة ، وهو أمر لا يحتمل التأجيل .

الفصل الرابع الإفاقة من السكر

كان أبرز مظاهر تحولى إلى الإسلام ، هو رفضى المذهب لاحتساء الخمر ، واختفاء زجاجة النبيذ الأحمر من فوق مائدة طعامى . ولقد ظننت فى بادىء الأمر أننى لن أستطيع النوم جيدا بدون جرعة من الخمر فى دمى ، بل وأن النوم سيجافينى من البداية . ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تماما . فنظرا لأن جسمى لم يعد بحاجة إلى التخلص من الكحول ، أصبح نبضى أثناء نومى أهدأ من ذى قبل . صحيح أن الخمر مفيد ومريح جدا فى هضم الشحوم والدهون ، لكننا كنا قد نحينا لحم الخنزير عن مائدتنا إلى الأبد ، بل إن رائحة هذا اللحم الضار أصبحت تسبب لى شعورا بالغثيان .

* * *

كنت فى جاهليتى الشخصية « زمن الظلام » قبل اعتناقى الإسلام ، خبيرا بالخمر ، حتى إننى كنت أحدد أنواع الأنبذة الحمراء المدهشة بمجرد تذوقها بطرف لسانى . وكأ التمييز بين أنواع الخمور « الذكورية » و « الأنثوية » أيسر منه بين الأنواع المختلفة دا . كل مجموعة منهما ، حيث يتطلب الأمر بالنسبة لكل حالة تحديد الزيت الأثيرى الخاص عن طريق التذوق . ولقد أتاحت لى الحياة الدبلوماسية ، وبصفة خاصة حفلات العشاء الرسمية فى ختام مؤتمرات وزراء حلف شمالى الأطلسى ، فرصة هائلة لاكتساب هذه الخبرة .

لقد « تدربت » بنشاط وجد ، لأنمى وأدرب ملكة التفرقة والتمييز بين أنواع النبيذ . وأثناء عملى بباريس فى عام ١٩٦٧ ، كنت فى عطلة نهاية الأسبوع أحجز عن طريق دليل ميشلان منضدة فى أحد المطاعم ذات النجمة الواحدة . وكنت أختار النبيذ بواسطة الهاتف ، وأطلب فتح الزجاجاة على الفور ، حتى يتأكسد النبيذ بدرجة كافية ، ويصل إلى كامل نضجه ومذاقه عند وصولى إلى المطعم . وكنت فى المساء أختار قائمة طعامى بما يناسب النبيذ ، وليس العكس .

عندما كنت أشغل منصب المستشار الأول بالسفارة في بلجراد ، في عامى ١٩٧٧ / ١٩٧٨ ، كنت أقوم حفلات اختبار وتذوق للنبيذ ، أدعو إليها الأصدقاء . وكنت أعرض على ضيوفى كيف يمكن عن طريق سقف الحلق تحديد أنواع الكروم والتربة وطرق القطف وطرق التخمر والسنة ، مستخدما أنواعا من النبيذ الأبيض عديم اللون ، كنت أجلبها من متاجر متخصصة ، ومن مناطق مختلفة . وكنت « كتربرى » أعرض أنواع النبيذ على نحو تتابع فيه أنواع تجمع بينها صفات مشتركة ، وتميزها بعضها عن بعض صفات أخرى . ولقد تطورت قدرات بعض ضيوفى ، فى واقع الأمر ، بحيث استطاعوا بعد سابع محاولة للتذوق أن يميزوا بين أنواع النبيذ المختلفة تبعا لمعايير مختلفة .

* * *

لقد وجدت مع ذلك أن التحريم القرآنى للخمر والمخدرات^(٢٨) ليس ضرورة اجتماعية فحسب ، وإنما هو أيضا منفعة شخصية للفرد ، إذ يمكنه من أن يكون متيقظا صافى الذهن دائما . ومن ثم ، أنهت هذه المرحلة من حياتى مرة واحدة ، وإلى الأبد . فإن الإنسان ، بفضل قدرته على التفكير وإعمال عقله ، يفاخر بأنه أعظم المخلوقات . فنحن البشر نستطيع أن نعمن التفكير فى العالم من حولنا وفى أحوالنا ، وأن نتصرف بحكمة . وهذه الصفات التى ترقى بنا ، هى ذات الصفات التى ندمرها على نحو منتظم بتعاطى الخمر والمخدرات . ونحن بذلك نمتهن أنفسنا ونحط من قدرنا داخل المنظومة الكونية ، وننحدر بالتالى إلى مكانة أدنى من مكانة الحيوانات ، التى لا يغيب عنها وعيها أبداً . فإدمان تعاطى الخمر والمخدرات نوع من التشويه الذهنى الذاتى . وكانت مديرية منزلى الصربية فى بلجراد مثالا مندرالى ، إذ كانت تعود دائما إلى إدمان الخمر ، حتى بعد علاج لفترات طويلة .

إن مشهد مدمنى تعاطى الخمر مشهد مهين ، يبعث على الاكتئاب ، ويشير الشفقة . وكثيرا ما يقدم هؤلاء على الانتحار . وهم يعلمون حقيقة حالهم ، ولكنهم لا يستطيعون الرجوع عما هم فيه ، لأن الخمر سلبتهم العزيمة والإرادة والقدرة على اتخاذ القرار .

من النادر أن تجد عدد مدمنى الخمر فى المجتمع الأحدث فى المدن التركية الكبيرة أقل من عددهم فى ألمانيا . فهم يمسكون - من وقت الظهيرة - بكأس الراكيا فى يد ، وبالسجارة فى اليد الأخرى ، مبرهنين بذلك على أنهم لم يعودوا سادة أنفسهم . وهم ، من الناحية الدينية ، يبارسون بذلك نوعا من « الشرك بالله » ، لأن الخمر ونيكوتين الدخان أهم عندهم من كل ما عداهما فى العالم بمن فى ذلك ربهم الذى خلقهم . فهم يستطيعون - فى ظنهم - أن يعيشوا بدونها ، ولكن ليس بدون الراكيا .

يهدف القرآن من وراء التحريم المطلق للخمر إلى منع البدء في تعاطيها ، حيث لا يبدو ضارا في حالة احتساء كأس واحدة . فالكأس الواحدة التي لا تبدو خطيرة في الظاهر يمكن في يوم ما أن تصبح كثوسا عديدة . ومن المعتاد ألا يرى المدمن أنه معرض للخطر ، وأن يقدم مالا حصر له من الأعذار والحجج لتبرير اعتياده التدخين أو احتساء الخمر ، في هذا الوقت بصفة خاصة ، ومن ذلك كون المدمنين سعداء أو تعساء ، يعانون من ضغط العمل أو في إجازة منه ، جماعة أو فرادى ، مرضى أو أصحاء ، جوعى أو شبعى .

لقد واجهت كرئيس مسئول هذه المشكلة . فكنت ، عندما أنه أحد العاملين معي حتى قبل احتسائه الخمر بيوم واحد ، كنت أعدُّ معتديا على حقه في أن يعبر عن شخصيته بحرية (وأواجه بذلك مشكلة مع مستشار شئون العاملين) . ومع ذلك ، كان مستشار شئون العاملين نفسه يستطيع أن يتأكد في اليوم التالي أن الموظف المعنى صار في واقع الأمر مدمنا للخمر . ومن ثم ، فإنه يعد رسميا من هذه اللحظة مريضا بإدمان الخمر .

إن من لا يتعاطى الخمر ، إذا وُجد بين سُكاري ، سرعان ما يكتشف أنه في مكان خطأ ، إذ يرى هؤلاء أنفسهم ظرفاء ومبدعين وقادرين على التخیل . ولقد استطعت أن أثبت لنفسى عكس ذلك تماما ، عندما قمت بعزف مقطوعات موسيقية بذاتها على إحدى الآلات النحاسية وتسجيلها ثلاث مرات . وكنت بين المرة والأخرى أحس كآسين من ويسكى البريون من النوعية المفضلة لدى . وكان توقعي : أن عزفي سيكون أفضل في كل مرة أحس قبلها الويسكى ، لكن جهاز التسجيل كشف الحقيقة الصاعقة !

شعرت بخجل شديد من سلوك بعض مواطني ونحن على متن إحدى طائرات شركة لوفتهانزا ، في طريقنا إلى جدة . . فكنا كلما اقتربنا من السعودية بمناخها الشديد الجفاف ، ازداد طلبهم ، وبإلحاح شديد ، للخمر حتى إنهم طلبوا من المضيف أربع زجاجات في وقت واحد - كما لو أن المرء يستطيع أن يجتر الخمر بعد ذلك كالجمل . ولقد كان مشاهدهم مخزيا ، وهم يغادرون الطائرة حاملين في أيديهم شجرة عيد الميلاد مغلفة بالبلاستيك ، ويترنحون من السكر .

أثبتت لي هذه الوقائع أنه قد لا يكون هناك عائق في طريق انتشار الإسلام في ألمانيا أقوى من التحريم القرآني للخمر (ولحم الخنزير) . فلن يتنازل الألمان في بافاريا ولا في كولونيا عن طعامه المفضل من لحم الخنزير ، ولا عن خمره المفضلة .

لقد نظم ليسنج في القرن الثامن عشر قصيدة ساخرة في هذا الصدد ، بعنوان

«الأترك»، يتغنى فيها بجمال الفتيات التركيات، وبحق المرء في تعدد الزوجات إذا أراد، ورغبته بالتالى في أن يكون تركيا. ولكنه سرعان ما يعدل عن هذه الرغبة، ويصرح بأنه لا يريد أن يكون تركيا لأن الأترك لا يشربون الخمر. وما كان يمكن أن يكون مجديا لليسنج على الإطلاق أن يصير تركيا، وإن كان الأترك يتعاطون الخمر الآن، إذ يعاقب القانون في تركيا حاليا على تعدد الزوجات.

إن المسلم، بتناوله كوبا من الماء أو العصير بين أناس يحتسون الخمر، يفسد عليهم بهجتهم، لأن ما يفعله ينطوى على عقاب معنوى لهم. لذلك، أصبح من النادر بعد اعتناقي الإسلام أن ندعى، زوجتى وأنا، إلى حفلات خاصة أو إلى حفلات رقص، وكان المرء لا يسعد إلا بالخمر. وهكذا، أصبحنا معزولين «منبوذين».

كثيرا ما يساق اختلاف البيئة المناخية كحجة ضد التحريم الإسلامى للخمر ولحم الخنزير في مجتمعنا - (يقصد المجتمع الألماني) - بدعوى أن هذا التحريم لا يناسبه مناخيا. وهذه حجة تفتقر إلى المنطق. فالحقيقة أن أضرار الخمر في العصر التكنولوجى أكبر بكثير منها في القرن السابع، حيث كان أقصى ما يمكن أن يحدث للمخمور هو أن يسقط من فوق صهوة جواده، أو أن يعتدى بالضرب على زوجته وأطفاله، أو أن يقطع أوتار سيقان الجمل. (كان وقوع حدث شرير من هذا القبيل مناسبة لنزول إحدى آيات تحريم الخمر في القرآن) (٢٩).

وما يزال النساء والأطفال يتعرضون اليوم للضرب تحت تأثير الخمر. وكذلك تسقط الطائرات اليوم تحت تأثير الخمر. ولقد تسبب قائد إحدى الناقلات البحرية تحت تأثير الخمر في وقوع أسوأ كارثة بيئية حتى الآن. وعلى الرغم من توفر إحصاءات عن حوادث الطرق وحوادث المصانع، فإنه لا يمكن تقدير الخسائر البشرية والمادية التى تصيب المجتمع الغربى بسبب إدمان الخمر والمخدرات. وفي بعض المستشفيات التركية، تتجاوز أقسام علاج الإدمان وأقسام علاج الأمراض العقلية، لما ينطوى عليه ذلك من إنذار، إن عاجلا أو آجلا. هذا إذا ما دمر العقل قبل أن يتوقف الكبد عن أداء وظائفه.

لقد كنت واحدا من ضحايا حوادث المرور التى تقع تحت تأثير الخمر. ففي نهاية عام دراسى في كلية الاتحاد بشينيكثادى بولاية نيسويورك، قمت بجولة في الولايات المتحدة «بطريقة الأوتوستوب»، (أى إيقاف السيارات والانتقال بها مجانا من موقع إلى آخر). وفى أثناء هذه الجولة، تعرضت يوم ٢٨ من يونيو عام ١٩٥١ لحادث سبى بالقرب من هولى سبرنجز (بولاية مسيسى). فبينما كنا في طريقنا على الطريق السريع من أتلاتنتا (بولاية

جورجيا) إلى ممفيس في ولاية مسيسيبي ، ظهر أمامنا ونحن على مقربة من غايتنا شبح . ولا أتذكر شيئا عما حدث بعد ذلك . ولكنى علمت فيما بعد أن هذا الشبح لم يكن سوى سيارة اصطدمت بنا ، كان سائقها ومرافقه قد احتسبا كميات كبيرة من الخمر في تينيسى ، التى تسمح باحتسائه أثناء القيادة ، قبل أن يتوجها إلى مسيسيبي التى تمنع احتسائه أثناءها . وكانت خسائرنا أقل فداحة من خسائرهم ، لأننا كنا نركب سيارة شيفروليه مصنوعة في عام ١٩٤١ ، أى قبل الحرب ، وكانت أشد متانة من السيارة التى كانوا يركبونها وهى شيفروليه من إنتاج عام ١٩٤٣ ، أى أثناء الحرب .

ولقد تبين لى بوضوح أن ذراعى المصابة الآن ، والتى كنت أضعها على وسادة المقعد الخلفية ، قد وقتنى مما هو أكثر . وكان من الواضح أيضا أننى ما كنت لأنجو لو أن قامتى كانت أقصر بمقدار ثمانية سنتيمترات فقط ، لأننى كنت سأنكفى في هذه الحالة على أنفى وعينى بسرعة حوالى ١٦٠ كيلومتر في الساعة . ومع ذلك ، كانت خسارتى في هذا الحادث تسع عشرة من أسناني . وبعد انتهاء الجراح من خياطة ذقنى وشفتى السفلى ، واسانى قائلا : إنه من الممكن إصلاح وجهى بعد سنوات عن طريق إجراء عملية تجميل . وأضاف قائلا : إن « مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد ، وإن الله يدخر لك يا عزيزى شيئا خاصا جدا » .

ولقد كنت أفكر في هذا الأمر ، وأنا أتجول في هولى سبرنجز بذرارح مربوطة وضادة تحيط بالذقن وفم مخيط . وكنت أفكر أيضا فيأ أرفه به عن نفسى في يوم عيد ميلادى العشرين . ولكن كل شيء كان يؤلمنى . . تناول الطعام أو الشراب ، أو التنزه ، أو الإجابة عن الأسئلة . وأخيرا ذهبت لأقص شعرى ، فهذا على الأقل لا يؤلم . ولم أدرك المغزى الحقيقى لنجاتى وبقائى على قيد الحياة إلا بعد ثلاثين سنة ، عندما أشهرت اعتناقى للإسلام .

الفصل الخامس اختبار الجَدِّ

بعد بضعة أشهر من اعتناقي الإسلام ، حل شهر الصيام ، شهر رمضان ، وهو الشهر التاسع بين أشهر السنة الهجرية . وكنت أنتظر حلوله بشيء من القلق والخوف ، لأنه اختبار صعب لجَدِّ المسلم وقوة احتماله ، يجسد قمة وعيه وصحوته . فيه ينبغي على أن أمتنع لمدة ٢٩ أو ٣٠ يوما من الفجر إلى غروب الشمس عن الطعام والشراب والتدخين ومعاشرة الزوجة ، ولكن مع ممارسة عملي كالمعتاد (٣٠) .

عرفت الصيام لأول مرة في عام ١٩٧٧ ، على متن إحدى طائرات شركة الخطوط الجوية اليوغسلافية JAT المتجهة من بلجراد إلى إسطنبول . فلقد لاحظت أن يد جاري في الدرجة الاقتصادية لم تمتد إلى الطعام إلا بعد رفع أنية طعام بقية الركاب ، وعندما حان موعد الإفطار الذي كان يتابعه بالنظر إلى ساعته من حين إلى آخر . وأثناء إقامتنا في بلجراد ، كنا كثيرا ما ندعو رمضان رمضان ، البستاني الذي يرضى حديثنا ، إلى طعام الإفطار ، إذ كان يثير شفقتنا بإصراره الشديد على الصيام . فلقد كان يمتنع تماما عن تناول أى طعام عندما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ولقد قمت بصيام أسبوع من قبيل التعاطف معه . ومع ذلك ، فإن المرء لا يتعلم صيام ٣٠ يوما إلا بصومها فعلا .

في بون ، كان من بين المهام الموكولة إلى إقامة حفلات عشاء لضيوف أجانب . وكان عدم مشاركتي لهم الطعام يثير حرجا شديدا : فهل أعاني توعكا في معدتي ؟ أم إن الطعام الذي طلبته لهم بنفسى لا يرقى إلى مستوى ؟ وفي مثل هذه المناسبات ، كنت أتذكر السهولة التي كان يمكن بها الاعتذار عن عدم تناول العصير أو القهوة التركية التي كانت تقدم لي في وزارة الخارجية اليوغسلافية في شهر رمضان . وفي واقع الأمر ، فإن صيام رمضان لا يصبح مناسبة تسعد المرء على مدار العام كله إلا عندما يكون في محيط مسلم ، حيث يكون شهرا مشبعا تماما بالروحانيات . . شهر سلام داخلي وإخاء .

يشتمل الصوم في الإسلام، مثل كل العبادات، على مكونات مادية وأخرى معنوية، لا يفصل بعضها عن بعض. ويبدأ الحرمان البدني بامتناع المرء عن تناول قهوة أو شاي الصباح. وينخفض السكر في الدم أثناء النهار، حتى ليكاد المرء يصاب بالإغماء. ويسهل على المرء، من ناحية أخرى، أن يعرف كيف يعمل نظامه البيولوجي. فبالنسبة لي، هناك على سبيل المثال فترتان للنشاط الوفير في النهار، هما الساعة الحادية عشرة والساعة السادسة عشرة بعد الظهر. ولقد استفدت من ذلك على نحو نظامي، حيث وزعت عملي اليومي تبعاً له إلى: ما ينبغي، وما يجوز، وما يمكن عمله.

وكانت المجموعة الأولى من الأعمال هي ما أقوم بأدائه بقدر الإمكان عندما يستفيد ضغط دمي من الذروة البيولوجية المخططة. فكنت أحاول أن أقود سيارتي لمسافة ١٣ كيلومتر في طريقى من مقر قيادة حلف شمالى الأطلسي إلى مسكننا في إكسيل، وأنا في أوج نشاطي. وكنت أزيد من حذري حتى لا أعرض نفسي أو غيري للخطأ. ففي شهر رمضان، تزداد بالفعل حوادث المرور، وبصفة خاصة عندما يحاول أرباب الأسر اللحاق بالإفطار في منازلهم. ولقد لقى خمسة من مواطنينا من ألمانيا الشرقية سابقاً حتفهم بالقرب من القنيطرة يوم ٢٥ من فبراير عام ١٩٩٣، ثالث أيام شهر الصوم، عندما حاول سائق سيارة نقل أن يتجاوز الحافلة التي يستقلونها، فصدمها، فانقلبت بهم. وأرجع الحادث إلى ضعف تركيز قائد السيارة بسبب الصيام.

واليوم الثالث من أيام الصوم يوم عصيب، يكون فيه المرء في أسوأ حالاته، ويصاب بصداع شديد تزداد حدته إذا ما استلقى ليسترخي. ومع ذلك، يبدأ جسدنا بقدرته الهائلة على التكيف في التأقلم منذ هذه اللحظة مع المعطيات الجديدة، فتخف حدة الصداع والإحساس بالجوع، ويستطيع المرء أن يرى من يتناول الطعام دون أن يحسده. ومع أنني كثيراً ما أشعر في المساء بأنني قد أنقصت، ولا أستطيع القراءة، وأجلس أمام شاشة التلفزيون بلا إرادة، فإنني لا أشعر برغبة في الطعام وبخاصة اللحوم.

* * *

يعلن عن نهاية يوم الصوم في العالم الإسلامي بإطلاق مدفع، وعندئذ يتناول المرء بعضاً من الماء أو من العصير، وعدداً فردياً من ثمرات التمر أو الزيتون، ثم يؤدي صلاة المغرب شاكرًا لله أن أعانه على صيام اليوم. ويبدأ تناول وجبة الإفطار في كل من الجزائر والمغرب بتناول شاي بالنعناع الأخضر، وحساء داكن اللون هو شوربة الفريك الجزائرية، والحريرة المغربية التي يختلف مذاقها إلى حد ما من منزل إلى آخر، إلى جانب بيضة مسلوقة وقمر وقمر

بالعسل ، الذى كان طعام الرسول ﷺ المفضل . وسرعان ما ينتعش الجسد مرة أخرى . وبعد فترة توقف قصيرة ، يتناول المرء وجبة كاملة من اللحوم ، وفى المغرب من الدجاج ، ولحم الضأن المشوى ، والكسكى باللحم البقرى ، وحلوى وفواكه . وكان كل ذلك يتم للأسف بسرعة حتى إننى أعود إلى منزلى فى الساعة التاسعة من دعوات للإفطار فى الساعة السابعة والنصف .

يختلف مفهومى عن رمضان ، المبني على اتباعى للسنة ، عن الكيفية التى يُمارس بها فى بعض البلدان الإسلامية ، ومن بينها المغرب . فالناس هناك يميلون إلى أن يعوضوا فى الليل ما فاتهم فى النهار ، فيشاهدوا التلفزيون ، ويلعبوا الورق (الكوتشينة) ، ويحتسوا الخمر أحيانا ، حتى منتصف الليل ، حيث يتناولون وجبة ثالثة (السحور) . ومن ثم ، لا يأخذ كثيرون من الجزائريين والمغاربة قسطا كافيا من النوم ، بل إنهم لا يتمتعون فى الساعات القليلة التى يخلدون فيها إلى النوم بنوم مريح من فرط إتمام معداتهم بالطعام . ويترب على ذلك ، أنهم لا يلحقون بصلاة الفجر ، وبصفة خاصة فى رمضان . ولا يفيدون بشيء فى ضحى اليوم التالى . ومن شأن هذا أن ينمى الاتجاه الغريب نحو استبدال الليل بالنهار فى رمضان .

وفى واقع الأمر ، يرتفع كثيرا استهلاك الأغذية فى هذه البلدان فى رمضان ، بدلا من أن ينخفض . أما ما ينخفض بالتأكيد ، فهو إنتاجية العمل . ويؤثر رمضان على الإنتاج القومى فى هذه البلدان ، كما لو كان فترة إجازة ثانية . لذلك ، فليس غريبا أن يعلن رؤساء علمانيون عرب أن بلدانهم النامية لا تستطيع أن تحتل « كسل » رمضان .

أما ما أراه عبثا ، فكان دعوتى من قبل شخصيات رفيعة المستوى إلى تناول طعام الإفطار باستخدام أدوات مائدة مصنوعة من الذهب ، وكذا أن يبدأ المسلم تناول الطعام بقول : « Bon Appetit » ، أى « شهية طيبة » ، بدلا من قول « باسم الله » على طبق طعامه الملىء بخيرات البحر ، وقبل أن يؤدى صلاة المغرب . ولقد بدا لي دائما أنه من غير المنطقى أن يصوم من لا يصلى . ولكن هذا السلوك يكشف عن حقيقة أن صوم رمضان أصبح يمارس فى أقسام من عالم المسلمين على نحو يجرده من مغزاه الدينى ، ويجعله جزءا متحررا من المدنية . وهذا يفسر أيضا السلوك الغريب من جانب بعض المسلمين إذ يتمتعون عن تناول الخمر فى شهر رمضان ، باعتباره شهر إسلام مقابل أحد عشر شهرا للراحة من الإسلام . . .

* * *

يمضى يومى فى رمضان فى الفترة من ١٩٨٧ إلى ١٩٩٤ على نحو مختلف تماما . فأوى إلى فراشى بعد صلاة العشاء ، أى حوالى الساعة الحادية عشرة ، وأضبط المنبه على الساعة الثالثة والنصف أو الساعة الرابعة صباحا ، لأستيقظ قبل بداية الصوم بنحو ٠ دقيقة كى أتناول ، قبل انطلاق مدفع الإمساك ، طعام السحور وأشرب كثيرا من الماء وبعد ذلك ، أقضى ما تبقى من وقت حتى الفجر فى قراءة القرآن . وبعد صلاة الفجر أنام ساعتين . وكان العمل فى سفارتى يبدأ متأخرا ساعة عن المعتاد . وكنت أنجز بالفعل أكثر مما أنجز فى الأيام العادية ، خاصة وأن العمل يشغل عن الإحساس بالمعدة الخالية وكنت فى رمضان أجلس فى مآدب غداء العمل الدورية التى يقيمها زملائى من البلداء أعضاء الاتحاد الأوربى وأمامى طبق خال . وكان زميل الفرنسى فى الرباط مسيو دى كونيكا يشاركنى سلوكى « تضامنا » منه مع أبناء البلد المضيف ، كما كان يقول ، وهذا ٥ يعد تصرفا سياسيا بارعا .

كان يوم عملى فى رمضان ينتهى عادة بحضور دروس دينية « دروس الحسينية » فى القصر الملكى بالرباط . وكانت الحكومة المغربية بأكملها ، وهيئة الأركان العامة ، وعلماء المسلمين ، وسفراء الدول الإسلامية ، يجتمعون يوميا ، ابتداء من الساعة الخامسة بع الظهر فى القصر الملكى . وكنا نستمع إلى تلاوة قرآنية إلى أن يصل الملك والأمراء . وكاد من يلقون الدروس محاضرين مدعوين من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، من بينهم مسلمون أمريكيون ، وأعلام كالشيخ طنطاوى من القاهرة . وكانوا يجلسون على المنبر التقليدى ، بينما يجلس الملك مثلنا جميعا عند أقدامهم فى مربع حولهم .

كنت أنا وزملائى المسلمون نتناوب الدعوة إلى طعام الإفطار حوالى الساعة السابعة مساء . وعندما كان دورى يحين ، كان بهو مقر إقامتى فى سويسى الواقع بين غرف الاستقبال (الصالون) وغرفة الطعام يتحول إلى مسجد ، حيث كانت أرضه تغطى بسجاجيد صلاة . ولقد صارت العلاقات والصلوات التى أقمتها فى هذه المناسبات مع بعض من أعضاء الحكومة ومن مستشارى جلالة الملك ذات طبيعة دائمة وقوية بمرور الوقت .

ومن المعتاد ، أن أفقد بانقضاء شهر الصوم ما يتراوح بين ٥ و ٨ كيلو جرامات من وزنى . وبتعبير أدق : فإننى أقرب من وزنى المثالى .

ينطوى الصوم ، إلى جانب بعده المادى ، على بعد روحانى يصير بدونه مجرد حركات تجويع بهلوانية . وشهر رمضان شهر مُعظَّم ، لما له من أهمية فى تاريخ العالم . فلم يشهد رمضان موقعة بدر (عام ٦٢٢م) ذات الأثر الحاسم فى بقاء وتثبيت المسلمين الأوائل فحسب ، وإنما الأكثر أهمية من ذلك أن به ليلة القدر التى بدأ فيها نزول الوحي بالقرآن . وعن هذه الليلة أحادية الرقم التى تقع بين الليالى الأخيرة من رمضان (٣١) ، يقول الله فى السورة ٩٧ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ .

هذا نص يصلح للتأويل والتفكر .

لقد جرت العادة على اعتبار ليلة السابع والعشرين من رمضان ليلة القدر . وتشارك ليلة القدر مع ليلة عيد الميلاد ، وإن يكن عن بعد ، فى أن المرء يهْدَى فيها (إخراج زكاة الفطر) . كما يقام فيها - كغيرها من ليالى رمضان - صلاة التراويح ، وتكثر تلاوة القرآن والتواشيع والأدعية . ومن ثم ، فما لم يدرك المرء فى هذه الليلة مغزى الرسالة والوحي ، فمتى عساه يدركه ؟ !

وصوم رمضان ، فرض على المسلمين . وهم يعتبرونه عبادة ، باعتباره أحد أركان الإسلام الخمسة التى لا تحتاج إلى تبرير مقنع . فالمسلم ، بوصفه عبداً لربه ، يصوم لأنه أمره بالصوم . فالطاعة هنا واجبة . ويستطيع المرء أن يكتشف بسهولة أن هذا الفرض لم يفرض لله ، وإنما فرض من الله للناس .

منذ أن عادت رشاقة القوام لتصبح زِيَّاً سائداً (موضة) ، راح النساء يتبعن نظماً للتغذية تُدَكَّر بالصوم ، كما يمكن أن تؤدى إلى نحافة مَرَضِيَّة . ومع كثرة الحديث فى الآونة الأخيرة عن أضرار الكوليسترول والوزن الزائد ، ظهرت عروض مختلفة لبرامج التخسيس أو إنقاص الوزن .

ومن ناحية الصوم الإسلامى ، فإنه يفى بهذا الغرض وزيادة . فهو يؤدى ، على سبيل المثال ، إلى إذكاء الإحساس الاجتماعى حيث يشعر الصائم مرة واحدة على الأقل فى السنة بما يشعر به من يرغم على الصوم فى العام كله ، بسبب ما يعانیه من شح فى الغذاء أو المال . وبالنسبة لى ، لعل أهم أثر جانبى لصوم رمضان فى ، أننى أستطيع - فى رمضان - أن أختبر ما إذا كنت ما أزال سيد نفسى أم إننى صرت عبداً لعادات تافهة ، وما إذا كنت ما

أزال قادرا على التحكم في نفسى أم لا . وأتمنى أن يكون فرحا وليس غرورا ذلك الذى أشعر به بعد انتهاء آخر أيام رمضان ، أى عند صلاة المغرب ، من أننى استطعت بعون الله أن أصومه .

ولكن ، من ذا الذى يستطيع أن يقول لى بثقة : متى يبدأ رمضان؟ ومتى ينتهى ؟ ولقد يقول المرء : إن تحديد متى وأين يظهر الهلال الجديد أمر فلكى هين فى أيامنا . وهو بالفعل كذلك . ومع ذلك ، فمن المخزى أن يظل مسلمو هذه الأرض مختلفين فى أيام بدء وانتهاء صومهم ، تبعا لكونهم أنراكا أو مغاربة أو سعوديين . وهذا أمر من شأنه أن يضر بالصوم كحدث جماعى ، وأن يعرض المسلمين لسخرية البعض .

ويرجع هذا الاختلاف إلى سببين : أولهما ، أن الأمة مجزأة إلى دول قومية ، ولا يكفى التركى أو المغربى أن يعرف أن رؤية الهلال ثبتت فى مكة ، إذ لا بد بالنسبة لكل منهما أن تثبت رؤيته فى قونية أو فاس . ويترب على ذلك اختلاف فى تحديد يوم بداية ويوم نهاية شهر رمضان ، لأن الترتيب الوضعى بين الشمس والأرض والقمر يختلف فى كل بقعة من الأرض عنه فى غيرها . ويتباين الاختلاف فى موعد ظهور القمر فى يومين متتاليين عن الاختلاف فيهما فى موعد شروق الشمس ، فيبلغ دقيقتين فى شروق الشمس ، بينما يبلغ خمس عشرة دقيقة فى ظهور القمر (٣٢).

أما السبب الثانى ، فيدركه الفقهاء على نحو أفضل . فلقد جرت العادة فى عصور الإسلام الأولى على أن تثبت رؤية الهلال بالعين المجردة ، وليس بالحسابات الفلكية أو بالتنبؤات ، وهو ما لم يمثل فيها مضى ولا يمثل اليوم أى مشكلة ، بفضل الظروف المناخية فى شبه الجزيرة العربية . واستنادا إلى ذلك ، يرى بعض الفقهاء المتشددون أن رؤية هلال رمضان بالعين المجردة من شخص موثوق به تقليد ضرورى لا غنى عنه ، وأن الحسابات الفلكية غير كافية فى هذا الشأن . ويعادل رفض التواريخ الفلكية عدم الأخذ فى قانون العقوبات بدليل مبنى على أساس غير قانونى . (٣٣)

يتمسك المتشددون بالإجراءات الموروثة لتحديد بداية الشهر القمري ، حتى وإن حالت الظروف المناخية دون رؤية الهلال الذى يكون موجودا بالفعل . ويمكن أن يترتب على ذلك ، كما حدث فى عام ١٩٩٤ ، أن يفطر المرء فى المغرب متأخرا يومين عنه فى السعودية . وعندما نقلت الاحتفالات بعيد الفطر فى مكة ، عبر وسائل الإعلام ، فى ثانى أيام الصوم الزائدة فى المغرب عنها فى السعودية ، رأى بعض البسطاء فى المغرب أن هذا الاختلاف أمر مخز ومشين !! ليس من الممكن حقا أن تؤخذ مواعيد شهر الصوم فى أنحاء

العالم الإسلامى كافة بناءً على الحسابات الفلكية بالقياس إلى مكة ، أسوة بما هو متبع في حالة تحديد مواقيت الحج ، ومن ثم أيضا عيد الأضحى ١٩

وعندما يتناول المرء يوم عيد الفطر أول قدح من القهوة ، في أول إفطار منذ ٢٩ أو ٣٠ يوما ، يشعر بألذ مذاق . وعند صلاة العيد في المسجد ، لا يلتقى المرء إلا بأناس تشع منهم إشراقة داخلية . ولعل مما يبدو غريبا ، وإن كان حقيقة ، أن يشعر المرء بالجوع عند الظهر لأنه تناول طعام الإفطار ، بينما ينسى طعام الغداء في رمضان على الرغم من أنه لم يتناول طعام الإفطار .

وهكذا تعود الأيام سيرتها الأولى .

إننى أحتفظ لنفسى بما أسميه «زر رمضان» . فعندما تكون هناك ضرورة ، بين الحين والآخر ، على مدار العام ، لترك وجبة أو وجبتى طعام ، أضغط ذهنيا على هذا الزر الذى يعيدنى نفسيا إلى رمضان بنفس الوضع ونفس الشعور . وسرعان ما أحتمل جوعى ، ولا أعيره اهتماما .

إننى أترقب رمضان المقبل بسعادة غامرة ، حتى وإن لم يصدقنى في ذلك أحد .

الفصل السادس

مع مسلمين حول مائدة الطعام

إذا كنا تحدثنا فيما سبق عن الصوم أو الامتناع عن تناول الطعام ، فلقد آأن لنا أن نؤكد أن المسلمين لا يأكلون فقط ، وإنما يحق لهم أن يأكلوا باستمتاع وتلذذ كل ما هو صحى ، وهذا يعنى كل شىء ما عدا لحم الخنزير (والخنزير البرى أيضا) ، والميتة ومنتجات الدم مثل السجق المصنوع من الدم ، ومشتقات الخنزير كالحلوى التى يدخل شحم الخنزير فى صنعائها ، وكذا الحلوى التى تحتوى على خمور .

ومن الخطأ تصور أن تحريم القرآن لتناول لحم الخنزير إنما يعود إلى أسباب مناخية فقط ، أو إلى عدم القدرة على التعامل مع الدودة الشريطية فى القرن السابع الميلادى . فنحن نعلم اليوم أن تناول لحم الخنزير يؤدى إلى الإصابة بسرطان الأمعاء ، وبالتهاب المفاصل ، وبالإكزيما والدمامل ، وإلى ارتفاع نسبة الكوليسترول فى الدم ، وإلى الإصابة بحمى القراص بسبب ارتفاع نسبة الهستامين (٣٤) .

إن تسمية هذا الفصل باسم « مع مسلمين حول مائدة الطعام » تسمية مُضَلَّلَة ، لأن تناول الطعام جلوسا على الأرض ، حول قطعة من الجلد دائرية أو مربعة أو بيضاوية الشكل ، وليس على منضدة لا يقتصر فقط على البدو المرتحلين فى الصحراء ، وإنما يمارسه أيضا بعض إخوتى المؤمنين فى ألمانيا . فنحن عندما نتناول طعامنا ، على سبيل المثال فى دار الإسلام فى ليتسيل باخ فى أودن فالد ، نعد قطعة مماثلة من الجلد فى قاعة الاجتماعات والصلاة ، ونجلس أو نستلقى عليها مثلما كان الإغريق الأقدمون يفعلون ، وإن يكن بدون نبيلهم . وهكذا يفعل بعض المسلمين فى الغرب تقليدا ، ولو فى بعض الشكليات غير المهمة ، للرجل الذى يدينون له بالكثير من الفضل . . . محمد ﷺ . وتنطوى قطعة الجلد المشار إليها على معنى رمزى . فهى تذكرنا بأننا جميعا بدو مرتحلون دائما على طريق عودتنا إلى الله .

هذا السلوك في واقع الأمر سلوك عملي ، إذ إن حمل ونقل هذه القطعة من الجلد أيسر كثيرا من تحريك منضدة في مسكن ، أو من شحنها في سيارة . وهكذا ، يمكن استغلال المكان الذي يتناول فيه المرء الطعام على رقعة (قطعة) الجلد في أغراض متعددة . ولكن ينبغي ملاحظة أنه قليلا ما يتناول المرء الطعام واقفا ، أو جالسا القرفصاء ، أو مستلقيا بها يضغط على المعدة . فالجلسة الصحية تكون بمد الساقين ناحية اليمين ، مع الاتكاء على الذراع الأيسر . ومن ثم تبقى اليد اليمنى طليقة لتناول الطعام بها (٣٥) .

هناك ، مع ذلك ، في العالم العربي أيضا من يتناول الطعام واقفا كما هو الحال في تناول الطعام في محلات الوجبات السريعة في أوروبا . وفي الجزائر ، جرت العادة على أن يتناول الناس شاة مشوية وهم وقوف حول منضدة الطام ، حيث يمكن أن تلتهب أصابع يد من يبدأ بتقطيع اللحم ، الذي يؤكل معه خبز وبصل وملح وكمون . أما في بقية البلدان العربية من المغرب إلى السعودية ، فيأكل الناس الشياه المشوية وهم جلوس .

تعد التغذية السليمة ، من أجل الحفاظ على سلامة الجسم ، لصالح المرء نفسه ولصالح أهله ، في المنظور الإسلامي فرضا ، ومن ثم عبادة . لذلك يبدأ المسلم تناول طعامه بالبسملة ، أي : بسم الله الرحمن الرحيم ، وينتهي بالحمد ، أي الحمد لله . وبها أن تناول الطعام عبادة ، فإن المسلم لا يقطع تناوله للطعام عندما ينادى المؤذن لعبادة أخرى ، هي الصلاة ، طالما كان هناك متسع من الوقت لأدائها .

ولأن تناول الطعام عبادة ، يحرص المرء على ألا يسرف فيه ، وعلى ألا يتناول منه ما يزيد على حاجته ، وعلى أن يتوقف عنه على الرغم من شعوره بأنه يستطيع أن يستمر فيه ، وعلى ألا يشبع حتى الامتلاء . وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ وكلموا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ (الأعراف : ٣١) .

ومن المفروض أن يتوقع المرء أن يأتيه ضيوف فجأة ، ولذلك ينبغي إعداد طعام يكفي لعدد أكبر من عدد الموجودين بالفعل . وتقضى التقاليد الإسلامية في مثل هذه الحالات ، بأن طعاما لفردين يكفي لثلاثة أفراد ، وأن طعاما لثلاثة أفراد يكفي أيضا لخمسة . ولأن ذلك كذلك ، لا يجد المرء في بلاد المسلمين حرجا في أن يزور أحدا في وقت تناول الطعام ، أي كما يقول الأمريكيون جرب « حظك مع القدر » .

من كان مثلي وزوجتي ، مضيفا رسميا في العالم الإسلامي يعرف أن المرء لا يستطيع أن يتوقع بدقة عدد من سيأتيه من ضيوف على مائدة العشاء فمن المحتمل أن يتخلف عدد

غير قليل من المدعوين عن الحضور ، بعد أن يكونوا قد أكدوا أنهم سيحضرون . ومن المحتمل أيضا أن يحضر عدد من الضيوف يزيد كثيرا عن عدد الذين وجهت إليهم الدعوة بما قد يسبب حرجا للمضيف وللضيوف على السواء .

بسبب مثل هذه المواقف ، التي تساهم في إظهار العربى في صورة المهمل ، كنا نتجنب بقدر المستطاع توجيه دعوة إلى تناول طعام العشاء جلوسا حول منضدة ، وفق ترتيب معين إلى نحو ٢٤ شخصا . وبدلا من ذلك ، كنا نفضل أن ندعو إلى تناول طعام العشاء في بوفيه مفتوح يصل إلى ٨٥ مدعوا ينتشرون على كثير من المناضد صغيرة الحجم موزعة بدون ترتيب تقريبا .

لذلك ، يعزى تخلف ضيف عربى عن تلبية دعوة إلى تناول طعام العشاء ، على الرغم من التأكيد المسبق بالحضور ، إلى أسباب كثيرة غير العقبات المرتبطة بالعمل . ومن ذلك على سبيل المثال أن يكون قد استقبل ضيوفا على نحو مفاجئ ، أو أن تصر زوجته على أن ليس لديها ما ترتديه من الثياب . إلا أن ما أصابنى بدهشة ألجمت لسانى ، كان اعتذار ضيف شرف مغربى عن عدم حضور حفل عشاء أقمته على شرفه ، لأنه لم يكن يشعر بجوع . وكان هذا فيما أعتقد أصدق أسباب الاعتذار .

ولقد كنت أنا وزوجتى نلبى جميع الدعوات التى توجه إلينا ، سواء أكانت دعوة من وزير أم من سائق سيارتى ، أم دعوة من أميرة أم من خادمتنا . وهكذا أوصى الرسول ﷺ الذى كان يلبى حتى دعوات العبيد ، ولم يجوز رفض الدعوة إلا لسببين ، وهما أن تؤدى الدعوة إلى استئذانة الداعى ، أو أن تكون لغرض التفاخر والمباهاة . ولذلك ، لم أشعر بحرج لرفض دعوات كثيرة وجهت لى لحضور حفلات زفاف ، لعلمى أن والد العروس يبغى المباهاة بحضورى كسفير .

ومثلما ينظم الإسلام نواحي الحياة كافة ، فإنه كذلك ينظم آداب الطعام ، وهى مانسميه « إتيكيت »^(٣٦) . والكثير من هذه الآداب مألوف لنا ، لأنها آداب معروفة على نطاق العالم كله ، بينما بعضها الآخر خاص بالمسلمين وحدهم ، اهتداءً بسلوكيات أتاها الرسول ﷺ فعلا ، أو تنفيذا لتوصيات أوصى بها .

ففى بعض البيوت العربية ، يستقبل الضيف بالتمور ، ويساعده المضيف على خلع معطفه ، ولا يتخذ مكانه فى صدارة المجلس ما لم يصر المضيف على ذلك . وقبل تقديم

الطعام ، يتيح المضيف لضيوفه أن يغسلوا أيديهم ، لأن المرء في نهاية الأمر يأكل بيده . ويجول بعض المضيفين ، وبصفة خاصة في المغرب ، الأمر إلى طقوس جميلة ، حيث يلتف الجميع حول حوض عليه صابون ، بينما يصب الماء للضيوف شخص غالبا ما يكون هو المضيف نفسه . ويتكرر ذلك مرة أخرى بعد أن ينتهى الضيوف من تناول الطعام . ويقوم المضيف بتعطير يدي الضيف عند انصرافه بهاء الورد أو ماء البرتقال .

وينظف بعض المسلمين أسنانهم بالسواك ، بعد الانتهاء من تناول الطعام . والسواك غصن صغير (سمكه حوالى ١٥ مم) من خشب لين تماما . ولدى أنا أيضا سواك حصلت عليه في المدينة المنورة . ويمتاز بأن استخدامه لا يحتاج إلى ماء ولا إلى معجون أسنان .

لكى يستطيع المرء أن يتناول طعامه بيده ، يجرى تجزئة الطعام إلى قطع صغيرة تغنى عن الحاجة إلى السكين . ومع ذلك ، تقدم اليوم أدوات المائدة كاملة ، ولا يقتصر الأمر على تقديم ملعقة الحساء فقط . ولا تسمح التقاليد باستخدام أدوات مائدة مصنوعة من الفضة ، لا لكونها من مادة صنع النقود فحسب ، وإنما لأن أدوات المائدة الفضية ترف غير إسلامي بالنسبة لهم . (وهو ما ينبغى أن يذكر به المرء بصفة دورية في مقار السفارات الإسلامية) .

* * *

عندما يقدم الطعام ، يأكل المرء مما يليه مباشرة من لحم أو حلوى أو فاكهة . ويهتم المضيف والجالسون بجوار المرء عادة بأن يجد بطبقه كل ما لذ وطاب . وكثيرا ما يملأ إلى البعض طبقى بما لذ وطاب ، دون اكتراث بمعارضتى الشديدة . ويخدم المرء نفسه ، ويأكل بثلاثة من أصابع يده اليمنى ، هى الإبهام والسبابة والوسطى ، لأن الأكل بإصبعين أمر عسير جدا ، والأكل بكل أصابع اليد منهم مستهجن . وإذا لم يستسغ المرء نوعا من الطعام فله أن يتركه جانبا ولا يأكل منه ، وكان محمد ﷺ نفسه يفعل ذلك ، إذ كان لا يستسغ الطعام الذى يحتوى على كثير من الثوم . ومن ناحيتى ، فإننى للأسف لا أستسغ طعم الكمون . ومرد الأسف هنا أن لهذا الصنف من التوابل دورا كبيرا في الشرق كله .

من اليسير على المرء أن يترك صنفا من الطعام دون أن يتناوله ، عندما تقدم الوجبة بأكملها - من المشهيات إلى الحلو - دفعة واحدة . ولقد خبرت ذلك ، عندما دعانى الشيخ زايد آل نهيان إلى تناول طعام الغداء معه ، حيث كانت المائدة تبدو وكأنها تقوست تحت تأثير ثقل ما تحمل من طعام . وهو نفس ما حدث عندما كنت ضيفا على طعام الغداء يوم

عيد الأضحى ، على مائدة الملك فهد بمنى كما سلفت الإشارة . ومن طبعته أن أفقد شهيتي للطعام تماما عندما أرى أمامي ثمار الموز أو الحلوى (تورتة بالكريمة) بجوار كبد مشوى أو دجاجة محشوة بالنقل (المكسرات) وریش ضأن مشوى . لذلك ، لم أتناول فى منى سوى بضع تمرات وقطعة خبز وثمره موز ، وانحنيت نحو الملك المضيف وانصرفت .

وتبعاً لأداب الطعام عندنا فى الغرب ، يعد الانصراف فور الانتهاء من تناول الطعام إهانة بالغة ، حيث إننا نشأنا منذ الطفولة على ألا ننصرف من حول مائدة الطعام قبل أن يأذن لنا الأم والأب . ولكن الأمر يختلف تماماً حسب الإتيكيت الإسلامى ، حيث يبدأ المضيف المسلم تناول الطعام (قبل ضيوفه ليثبت لهم سلامة الطعام وعدم خطورته) وآخر من يتوقف عن تناوله . وهكذا يبقى المضيف ، حتى وإن كان ملكاً ، آخر من يجلس بمفرده إلى مائدته . ومن ثم ، فقد كان سلوكى سليماً (٣٧) .

وربما يستطيع المرء أن يعترض بأننى كنت أستطيع على الأقل أن أجرى فى منى حواراً طيباً حول مائدة الغداء دون أن أتناول كثيراً من الطعام . حسناً ! ولكن هذا ليس من الإسلام فى شيء . فالمرء كضيف فى بيت مسلم يستفيض فى تجاذب أطراف الحديث قبل تناول الطعام ، ويتحدث قليلاً جداً أثناء تناوله ، وينصرف بعد الانتهاء منه بقليل . ومن شأن هذا النظام أن يعطى للمضيف فرصة لتحديد طول الفترة التى يبقى فيها ضيوفه عنده .

إذا كنت قد تحدثت عن موائد عامرة بأصناف وكميات الطعام ، حتى لتكاد تنفوس من ثقله ، فإننى لم أقصد بذلك أن الإسراف ، وفى المقام الأول إلقاء الطعام فى إناء الفضلات ، يمكن أن يكون سلوكاً إسلامياً . بل إنه على العكس من ذلك تماماً . فالمضيفون المسلمون من دى حتى مراکش يعتبرون أن من واجبهم إكرام الضيف وتدليله . وعلى أى حال ، فهناك ، خلف الكواليس ، جيش كامل من العاملين ومن الفقراء مستعد لتلقى ما يتبقى من الطعام .

تمثل الحفاوة البالغة بالضيف فى الشرق مشكلة لمن يزوره من الرسميين الألمان ، لأن اللوائح المالية لجمهورية ألمانيا الاتحادية الغنية لا تسمح لممثليها - سواء أكان رئيساً اتحادياً أم وزيراً أم مندوباً - أن يرد المعاملة بالمثل . ولا يعود ذلك فقط إلى رقابة ديوان المحاسبات الاتحادى علينا ، وإنما هو أيضاً نتاج لعملية وثيدة الخطى للتحويل إلى أقاليم ، ولإشاعة البيروقراطية ، وللفرز البروليتارى على نحو أفقدنا القدرة على أن نحتمل وأن نستضيف بكرم وحفاوة وأناقة .

ولقد قدم المغرب الفقير ، باستضافته مندوبى عالم المال بأكمله فى مؤتمر الجلات بمراكش فى إبريل عام ١٩٩٤ ، المثل على مدى أهمية كرم الضيافة فى التقاليد الإسلامية . ولقد انصرف بعض المندوبين الغربيين ، يسيطر عليهم شعور بالخزى ، من ضيافة الأمير محمد ولى العهد الذى استضافهم استضافة ملوك فى خيمة تغطى أرضيتها بسُطَّ فاخرة ، قدمت لهم أثناءها ألعاب نارية .

* * *

بعد وصف الكيفية التى يجرى بها تناول الطعام فى العالم الإسلامى ، يأتى الآن عرض للأطعمة التى يتناولها الناس هناك . والمطبخ الإسلامى ، مثله مثل الفن الإسلامى ، يتعرف عليه المرء للوهلة الأولى على الرغم من تنوعه الشديد . ويرجع هذا التنوع الشديد إلى أن كل مجموعة قومية ، من موريتانيا حتى بلوخستان ، لها وجباتها القومية الخاصة بها ، والتى تساهم بها فى هذا المطبخ . وفى موسم الحج ، تتحول مكة إلى بوتقة يتحقق فيها انصهار مثالى لمطبخ إسلامى . ويتمثل القاسم المشترك فى هذا المطبخ فى سيطرة المطبخ التركى الذى يعد ، إلى جانب المطبخين الصينى والفرنسى ، أحد أشهر وأشهى ثلاثة مطابخ فى العالم . ويمكن للمرء فى الواقع أن يحدد درجة تأثر المطابخ القومية المختلفة ، كالمطبخ المصرى والسورى واللبنانى ، بالمطبخ التركى .

تشارك كل هذه المطابخ فى كونها مثالا جيدا للعادة التركى المتمثلة فى بدء تناول الطعام بتناول عدد لا حصر له من « المشهيات » (المزة) سهلة الهضم ، الباردة أو الدافئة ، كالخضراوات ، والسلطة ، والفواكه ، والبطيخ ، والكبد ، والمخ ، والزبادى ، وورق العنب المحشو ، وفاصوليا حمراء ، وسلطة خيار . . إلخ . ولقد تبينت زوجتى أثناء جمعها وصفات (الأطعمة كثيفة العمل اليدوى) أن المشهيات تزيد على الوجبات الرئيسية فى العالم الإسلامى بصفة عامة (٣٨) .

لقد جرت العادة فى بلاط الخلفاء والسلاطين والأمراء أن يقدم الطعام فى تتابع يأتى الحساء فى نهايته ، ويجرى تناول قدح من شربات الفواكه بين الوجبات الرئيسية المكونة من السمك واللحم (٣٩) . ولكن الأمر يختلف عن ذلك فى العالم العربى اليوم ، إذ يهاجم المرء الضيف بأطباق متوالية من اللحم ظنا من المضيف أن طعامه يخلو عادة من اللحم .

يعلم الجميع أن الإسلام ليس ديناً نباتياً . ولكن ربما لا يعلم إلا القليلون أنه محرم على المسلمين أن يأكلوا لحم الحيوانات التى لم تذبح وفق الشريعة الإسلامية . ولقد ثبت بالدليل

القاطع أن الحيوانات لا تتألم إذا ما ذبحت وفق كل من الشريعة الإسلامية والشريعة اليهودية أكثر مما تتألم عندما تقتل صعقا بالكهرباء ، أو رميا بالرصاص ، أو خنقا بالغاز ، كما هو الحال في الغرب الذي يتصور أن أساليبه أكثر إنسانية . فوفقا للشريعة الإسلامية يذبح الحيوان راقدا ويسكين حاد جدا . ولتجنب الحيوان الإحساس بالألم نفسية ، لا بد من أن يغذى تغذية جيدة إلى أن يحين موعد ذبحه ، وألا يتعرض لمشاهدة حيوان آخر وهو يذبح ، وألا يشاهد حتى السكين وهو يُشحذ . بل إن من آداب الذبح في الإسلام ، أن يخفى الجزار السكين خلف ظهره ، وهو مقبل على الحيوان لذبحه . والجزار المدرب يقطع الحلق والمرى وشرايين الرقبة بضربة سكين واحدة ، حتى يغيب الحيوان عن الوعي مرة واحدة ، فينزع دمه تماما ، ويسلم الروح بدون ألم^(٤٠) .

وبالنظر إلى كل ذلك ، يُسمح للجماعة اليهودية بألمانيا أن تذبح ذبائحها وفق الشريعة اليهودية ، بينما يمنع المسلمون من هذا الحق ، وهو أمر يدعو إلى السخرية . وفي شأن ذلك ، يقول القرآن ﴿ . . . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾ (سورة الأنعام : الآية ١٤٥) . وتستنتج السلطات الألمانية من ذلك نتيجة « منطقية » ، مؤداها أنها إذا منعت المسلمين من أن يذبحوا ذبائحهم وفق شريعتهم ، فسوف يضطرون إلى أكل لحوم حيوانات لم تذبح وفقا لها . ولكن هذا التصور ينطوي على خطأ فادح في الحساب ، لأن اضطراب المسلم الذي ورد ذكره في القرآن ينطوي على محاولته درء خطر موت يهدده جوعا . ومن ثم ، فالمسلم في ألمانيا مضطر إما إلى الاستغناء عن اللحوم بالطعام النباتية ، وإما إلى شراء اللحم من الجزارين اليهود .

يحذر القرآن من تحريم ما أحله الله للناس من طعام : ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين ءامنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نُفَصِّلُ الآيات لقوم يعلمون ﴾ (سورة الأعراف - الآية ٣٢) . ومن ثم ، فإنه يحث على تناول مواد غذائية بعينها ، كاللبن والتمر والزيتون النباتية والأعشاب والعسل الذي وصفه بأنه دواء ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ (سورة النحل - الآية ٦٩) . ولذلك يضعه المرء في جميع الحلويات تقريبا في العالم الإسلامي ، كالبقلاوة على سبيل المثال .

يمكنني أن أذكر على وجه السرعة وجباتي المفضلة في العالم الإسلامي . ففي المناطق الحارة ، يحتاج المرء إلى تناول الكثير من المشروبات التي تصل كمياتها إلى ٧ لترات يوميا ، وبصفة خاصة إذا كان المرء يعيش منذ عشرين عاما بإحدى كليتيه فقط . لذلك ، فإن أول ما يخطر ببالي من المشروبات هو اللبن باللوز ، والقرفة ، والزنجبيل ، والقهوة التركي ،

والشاي بالنعناع ، والقهوة التى تقدم فى أبهاء فنادق المشرق العربى كافة والتى يشعر المرء بأنه استعاد حيويته من جديد بعد أن يحتسى ثلاثة أقداح منها .

فى أول زيارة لنا إلى مكة ، فى عام ١٩٨٢ ، طلبنا فى أحد المطاعم إبريقا من القهوة ، كما هى العادة فى ألمانيا عند ما يتناول مجموعة من الأصدقاء القهوة معا . وكلما كرر النادل السؤال أكثر من مرة عن طلبنا بهدف التأكد ، أرجعنا ذلك إلى مشكلات وصعوبات تتعلق باللغة . . وأخيرا ، أحضر لنا طائعا إبريقا يمنيا تقليديا مملوءا بالقهوة العربية . لكننا لم نتمكن ، بطبيعة الحال ، من احتساء كل ما به كاملا ، إذ شعرنا أن ضربات القلب راحت تتسارع بعد احتساء ما يعادل نصف قدح من الحجم الألمانى .

كنا على موعد مع القدر ، عندما أتيح لنا أن نشهد طقوس إعداد الشاي الأخضر بأوراق النعناع فى ضاحية النخيل بواحة العطوف فى جنوبى الجزائر . وكنت قد ألقيت فى عام ١٩٨٩ محاضرة فى واحة بنى عزجون المجاورة ، حول عشر نقاط فى العالم الإسلامى لا تروق لى ، وبعدها قضيت ليلتى وحيدا فى كوخ وسط عدد من أشجار النخيل . وفى الصباح ، حضر مضيفى حاملا معه طعام الإفطار وعددا من الأقداح والعلب . وغسل الإبريق بهاء ساخن ، ثم غسل الشاي بهاء ساخن داخل الإبريق ، وتخلص بعد ذلك من الماء ثم أضاف أوراق النعناع والكثير من السكر والماء المغلى إلى الشاي . وراح بعد ذلك يصب الشاي فى الأقداح من ارتفاع قدره حوالى نصف متر ، دون أن تهدر نقطة واحدة منه ولا أعتقد أن هناك طريقة أمتع من ذلك لبدء بها المرء صباح يوم جديد .

من بين أطعمة المسلمين التى أفضلها : الباذنجان المحشو والمقلى ، وسلطة الجبن الفرنسى ، والدجاج المحشو بالمكسرات ، وریش الضأن ، والحمص ، والكباب ، والأرز الشرقى وبخاصة الباكستانى (الذى يحتوى على كثير من القرفة والزبيب) ، والتبولة ، والكسكسى الحلو ، والعاشوراء ، والمهلبية ، وأم على .

فى ختام هذا الفصل ، أريد أن أقص عليكم إحدى النوادر التى ترتب عليها أننا تناولنا وجبة طعام بالمجان . ففى عيد الميلاد عام ١٩٨٢ ، كنا نقيم فى فندق شيراتون المدينة الذى يقع فى المنطقة المسموح لغير المسلمين بارتياحها ، ومن ثم يقيم به رجال أعمال غربيون . ولذلك كان « جرسونات » الفندق الباكستانيون يعاملوننا على أننا رجال أعمال ، وليس كمعتمرين . فكانت تحتهم الودودة لنا ونحن فى الطريق إلى تناول طعام الغداء « عيد ميلاد

سعيد». وكنت أرد عليهم التحية بود مماثل، قائلا: «شكرا جزيلًا، وبالمناسبة نحن مسلمون والحمد لله». وكاد يغشى على هؤلاء العمال الأجانب المساكين، خشية أن يجري ترحيلهم إلى وطنهم.

وما لبث مدير الفندق أن حضر بعد دقائق معدودة، ليعتذر لنا رسميًا عن الإهانة البالغة التي لحقت بنا من بعض العاملين لديه، وراح يرجونا أن نقبل تناول الطعام على نفقة الفندق كتعويض بسيط لنا عن هذه الإهانة. ولم يقتنع بإلحاحنا في التأكيد أكثر من مرة أننا لم نشعر أننا تعرضنا للإهانة. فالمسيح يحظى عندنا في الإسلام بذات الاحترام الذي يحظى به جميع الرسل والأنبياء. ولقد تبين لنا من هذه الواقعة أن معرفة بعض المسلمين بالمسيحية مشوهة، كما هو الحال في معرفة بعض المسيحيين بالعهد القديم.

الفصل السابع

قدريون طموحون

لا يفتح بعض القراء الغربيين كتابا عن الإسلام إلا بعد أن يبحثوا في فهرست المحتويات عن كلمات مثل «قسمة» و«قدر» و«حسد» و«الحرب المقدسة». وأنا لا أريد أن أخيب ظنونهم.

وكلمة «كسمت» المنتشرة في اللغة التركية (يقابلها في العربية قسمة) بمعنى النصيب أو القدر يعرفها المرء، في ألمانيا، إن لم يكن من العمال الأتراك، فمن كارل ماي. والأصل العربي لهذه الكلمة هو فعل «قَسَمَ» أى وزع أو قسم أقدار كل منا. ويفضل المرء في العالم العربي التعبير عن هذا المعنى باستخدام لفظ أو كلمة «مكتوب»، وأصلها فعل كتب. وهى تعنى أن قدر كل إنسان «مدون» فى كتاب كبير على غرار القرآن (اللوح المحفوظ). وسواء أكان «مقسوما» أو «مكتوبا»، فإن كل المسلمين على اقتناع بأنه ما من شئ يقع دون معرفة أو علم مسبق من الله العليم بكل شئ».

يقر كثير من المسيحيين أيضا بذلك، ولكنهم لا يحبون مع ذلك أن يعترفوا بالنتيجة الحتمية التى لا بد من أن تترتب عليه، وهى أن ما نفترض أنها إرادة حرة لا يمكن إلا بالكاد وصفها بأنها «حرة». وأنا أعرف أن كثيرين من الفلاسفة المسلمين فكروا كثيرا فى القدر وحرية الإرادة^(٤١) (أى ما إذا كان الإنسان مخيرا أم مسيرا). ومن ثم، فليس هناك من حرج فى أن نقر بعجزنا عن إدراك الكيفية التى يثيب الله العادل أو يعاقب بها الناس على أفعالهم، التى كان بمقدور الله العليم الرحيم القادر أن يمنعها. وبالمثل، فإنه قليلا ما يقبل عقلنا أنه كان بمقدور البشر أن يحركوا سلسلة أصلية من الأسباب. ومن الأفضل أن نتبع نصيحة الرسول ﷺ إذا كنا لا نريد أن نحطم رؤوسنا بالتفكير فى مثل هذه الأمور، إذ إنه يمكن حقا أن يؤدي التفكير فيها إلى تحطيم رؤوسنا دون جدوى.

* * *

لقد صادفت فى حياتى كثيرا من الأحداث المذهلة التى يمكن للمرء أن يلصق عليها بطاقة « قسمة » ، والتى تجعلنى وغيرى من المسلمين نشعر بالسكينة والطمأنينة ، لأن الله القادر العليم يرعانا فى السراء والضراء على السواء :

عام ١٩٤٤ :

أثناء الحرب الجوية الإستراتيجية فى الحرب العالمية الثانية ، كنت أعيش فى مدينتى أشافينبرج ، وكانت ذات حامية بها خمس كتائب من الجيش ، إلى جانب كونها نقطة التقاء للمواصلات ومنطقة صناعية . وابتداء من سبتمبر عام ١٩٤٠ ، راحت تتعرض لغارات جوية منتظمة تقريبا . وبعد أن انتزعتنى صفارات الإنذار من النوم أكثر من ٧٠٠ مرة ، قررت أن أنام ، مرتديا ملابسى ، فى مخبأ للحماية من الغارات الجوية . وكنت أذهب إلى المدرسة ، ومعى مشونة الطوارئ ، والقناع الواقى من الغازات . وفى أحد الأيام ، تعرضت مدرستى للقصف ، وأصيب المخبأ الخاص بتلاميذ فصلى . وكنت قد قررت بالفعل ، عند سماع أولى صفارات الإنذار ، أن أنصرف إلى ترى ما الذى كان يمكن أن يحدث ، لو أننى كنت فى المدرسة فى تلك الأثناء ١٩

ونظرا لعدم وجود مدرسة أذهب إليها ، عملت على أن يكون بقائى بالمنزل مفيدا ، فرحت أستمع باستمرار تقريبا إلى إذاعة « فيجارو » ، التى كانت القوات الجوية الألمانية توجهها . وكانت مدينة أشافينبرج بالنسبة لهم مربع الخريطة « ريتشارد تونى ١ » . وهكذا ، صرت أعرف على وجه الدقة ما إذا كان ضروريا حقا أن أذهب إلى المخبأ أم لا .

وفى يوم ٢١ من نوفمبر عام ١٩٤٤ ، فاجأتنى صفارة الإنذار ، عندما قام سرب مكون من ١٥٠ إلى ٢٠٠ قاذفة قنابل أمريكية بدك المدينة بما يزيد على ألف قنبلة متفجرة ، أتبعته بقنابل حارقة . وترتب على ذلك تدمير المدينة وتحويلها إلى حطام بنسبة ٦٤٪ . فلقد لقي مئات من الناس حتفهم ، ودُمر تماما ١٩٠٠ منزل ، بينما أصيب ألف منزل آخر بخسائر فادحة . ودكت المنطقة الواقعة على بعد ١٢ مترا فقط خلف منزلنا بقنابل متتابعة الانفجار ، مع ما تركه من حفر هائلة . ترى ماذا كان يمكن أن يحدث ، لو أن قاذف القنابل ضغط على الزر مبكرا بمقدار عشر ثانية . . ؟!

عام ١٩٤٥ :

كان هدير المدفعية فى منطقة الراين قد اعتادنا ، حتى تعودنا عليه وصار السكون يفزعنا . وكان رجال باتون يحاصرون مدينة أشافينبرج بعد ساعات معدودة من عبورهم الراين . وكان باستطاعتهم أن يدخلوا المدينة بسهولة ويسر ، لولا أنهم تركوا أنفسهم فريسة للخوف من بعض أفراد المقاومة الشعبية المتقدمين فى العمر ، ومن بينهم أبى ، وبعض أفراد شببية هتلر ، وبعض أفراد مخابرات النازى المغالين فى إخلاصهم لزعيمهم . ورد الأمريكان على هذه المقاومة بحرب مادية بلا حدود .

ولما كان منزلنا يقع على الجبهة مباشرة ، فقد فررنا منه إلى «المجهول» . وأمضينا ، ومعنا كثيرون من جيرانا ، ١١ يوما وليلة فى قبو عميق للبيرة يتبع بستانا يحمل اسما مشبها هو «الهجوم الأخير» . وكانت أمى تطهو فى منزلنا كل ليلة ملء إناء كبير من حساء الفاصوليا ، لأحمله دون أن تهدر منه قطرة واحدة إلى القبو ، تحت نيران قذائف المدفعية المتقطعة .

وكننت فى طريقى ، ذهابا وإيابا ، أتحدث مع جندى وحيد ، حفر خندقا بالقرب من منزلنا ليحتمى به مع مدرعته . وبينما كنت أمر بهذا الخندق ذات ليلة ، تبين لى أنه قد تحول إلى حفرة قنابل ، وأن الجندى قد لقى حتفه من جراء قصف موقعه بقنبلة زنتها ربع طن ، ألقت بها طائرة حربية من طراز ثاندربولت .^(٤٢) ترى ماذا كان سيحدث ، لو أننى كنت قد توقفت لأتحدث معه فترة أطول ؟!

عام ١٩٥٠

فى ليلة عيد الميلاد ، تخلفت بسبب عاصفة ثلجية عن القطار الذى كان سيقلىنى من شينيكثادى بولاية نيويورك إلى مدينة نيويورك . وما كان لى أن أصل به حتى لو لم يحدث ذلك ، لأنه أصيب إصابة بالغة بصاعقة برق .

عام ١٩٥١ :

تحدثت فى موضع سابق من هذا الكتاب عن حادثة السيارة التى وقعت فى ميسيسيبى والثلى ما كان لى - من وجهة نظر الجراح - أن أنجو منها أصلا . وبعد أن أصبحت مؤهلا للسفر مرة أخرى ، بعد هذا الحادث ، سافرت بالقطار من ممفيس بولاية تينيسى إلى

واشنطن العاصمة ، وكنت أثناء رحلة القطار : أنكبُّ على القراءة تارة ، وأومئ برأسي إلى الأمام تارة أخرى ، وأتطلع عبر النافذة أحيانا . وذات مرة ، بينما كنت أشرع في التطلع عبر النافذة ، اخترقت « مصادفة » رصاصة طائشة ، أطلقت من بندقيّة صغيرة ، زجاج النافذة ، ومرت على مسافة تقل عن بضعة سنتيمترات مني !! ترى ماذا كان سيحدث ، لو أنني كنت منكبّا على القراءة حينذاك ؟!

عام ١٩٥٤ :

عندما كنت «مصادفة» بمبنى سيمينار القانونيين ، عند باب النصر بمدينة ميونخ ، في أحد أيام الأربعاء ، رأيت إحدى السكرتيرات تلصق إعلانا على الباب ، يشير إلى أن الأستاذ رودولف بوهلا ، أستاذ كرسى إجراءات القانون المدنى الجديد ، سوف يفتح حلقة دراسية (سيمينار) للإجراءات المدنية ، يشترط لحضورها الحصول على شهادة تدريب فى إجراءات القانون المدنى بدرجة « جيد » ، على أن تقدم طلبات الالتحاق أيام الأربعاء ، من الساعة الثانية إلى الساعة الثالثة بعد الظهر .

ولقد كنت حاصلا على شهادة وحيدة بدرجة « جيد » ، وكانت « مصادفة » فى إجراءات القانون المدنى . وبالنظر إلى ساعتى ، تبين أن الوقت كان قد تجاوز الساعة الثانية بقليل . ومن ثم ، لم أكن الطالب الأول الذى يتعرف عليه الأستاذ بوهلا فى ميونيخ فحسب ، وإنما صرت مساعدا معاونا له أيضا ، كما صرت فيما بعد مساعدا (معيدا) أساسيا .

وبطبيعة الحال ، كان لابد من أن أعد رسالتى لنيل درجة الدكتوراه فى أحد موضوعات الإجراءات المدنية . وترتب على ذلك ، حصولى على منحة بحثية من مدرسة هارفارد للحقوق بمدينة كمبردج بولاية ماساتشوستس ، حيث حصلت منها على درجة الماجستير . ترى لو لم أذهب مصادفة إلى مبنى سيمينار القانونيين ذاك الأربعاء ، ماذا كان سيحدث ؟ !

عام ١٩٥٥ :

حضر امتحانى الشفهى «مصادفة» أبو علم قانون الإجراءات المدنية الألمانى ، الأستاذ ليو روزينبرج . ولكونى معيدا فى هذا التخصص ، استطعت بطبيعة الحال أن

أُعرِّف ، أفضل من الدارسين الأربعة الآخرين الذين يؤدون الامتحان معي ، ماهية الحكم الغيابي ، ومدى أهمية مفهوم موضوع النزاع فيما يختص بتغيير موضوع الشكوى ، وبقوة القانون ، وبالتقدم . وكان من نتيجة ذلك ، أن سمح لي ، وأنا الموظف تحت التمرين من خارج ميونيخ ، على سبيل الاستثناء أن أبقى بها .

عام ١٩٥٩ :

تلقيت في إحدى عطلات نهاية الأسبوع دعوة من زملاء بمدرسة هارفارد للحقوق ، لحضور حفل يُقام في مكان قريب من مسكني . وأبلغوني أنني سأعشر عليه بعد مجيئي فقط من المباني السكنية ، في اتجاه ميدان هارفارد ، على مقربة من طريق ماساتشوستس . ولقد كان من اليسير التعرف على المبنى ؛ فهو مبنى كبير أبيض يشبه الفيل من حيث الضخامة .

وبالفعل ، كانت أصوات حفل تنطلق من مبنى رأيته أشبه بالفيل في ضخامته . ولكنني ما لبثت أن تبينت أنني في حفل آخر غير الذي دعيت إليه . ولم يتركني أحد أغادر الحفل ، بدعوى أنه لا يوجد على الإطلاق ما يمكن أن يسمى « حفلا خطأ » . وقيل لي : « ابق ، واحتفل معنا ! »

ولقد كانوا على حق ! فهناك قابلت إليزابيث آن جريفيث ، التي تزوجتها بعد ذلك بستة أشهر . هل لو كنت قد ذهبت إلى الحفل الذي دعيت إليه أصلا ، كان سيصبح لي اليوم ابن أمريكي ؟

أعوام ١٩٦٠ - ١٩٦٥ :

كنت مرتبطا حقا بالجزائر بعلاقة قدرية ، على نحو غريب متكرر ، كما سبق أن أشرت في فصل « دروب فلسفية إلى الإسلام » .

فبراير عام ١٩٧٦ :

في التاسع والعشرين من يناير ، عرضت إيفا كامبيانو ، بمصاحبة رباعي إدوارد ميلكوس ، باليه عصر النهضة في مسرح ألبرتينا بفيينا . ولقد دُفعت بلين أوتس - العازفة التركية في مرحلة الامتياز ، بالمعهد العالي للموسيقى والفنون التشكيلية - إلى

مشاهدة العرض على الرغم منها . فلم يكن لديها رغبة فى ذلك على الإطلاق ، (ولذلك جاءت متأخرة) . ولقد أرغمت أنا أيضا على مشاهدة العرض من جانب كورت بيترز الصحفى الكولونى . وبدورى ، لم يكن لدى على الإطلاق رغبة فى مشاهدته ، (ولم أكتب نقدا حوله) . وبعد عام واحد من العرض ، تزوجنا . . بليين وأنا !! فماذا كان سيحدث لو لم يذهب أى منا لمشاهدة هذا العرض ؟ !

مارس عام ١٩٧٦ :

على الرغم من أن الحياة فى فينا تعجبني ، ومن أن محادثات حلف شمالى الأطلنطي وحلف وارسو حول إزالة الأسلحة من أوروبا الوسطى كانت تمثل لى يوميا جولة جديدة مثيرة فى لعبة الشطرنج ، فقد طلبت نقلى بعد ثلاث سنوات ونصف من العمل فيها . وفى يناير من عام ١٩٧٦ ، عرض على مدير شئون العاملين بوزارة الخارجية منصب السفير فى جدة . وكان ذلك قبل الفورة النفطية منصبا شاقا جدا ، حيث لم يكن هناك طبيب أسنان بعد . وكانت زوجتى الأمريكية قد توفيت فى العام السابق . . فهل كان بوسعى كأعزب أن أحتمل الحياة هناك ؟ ولأننى أشعر بخوف شديد أمام الواجب ، فقد قبلت المهمة .

أجريت لى فى ذات اليوم اختبارات تحمل مناسخ المناطق الحارة ، واتصلت بسلفى فى المنصب ، ودرست ملف البلد ، واشترت ملابس ملائمة لطقس المناطق الحارة . وبعد ١٤ يوما ، أوصى مكتب الخدمات الصحية بوزارة الخارجية ، استنادا إلى نتائج التحاليل المعملية ، بإجراء تحليل لبولى ، نظرا لوجود كرات دم بيضاء به .

ولو أننى كنت أعير أمر صحتى قدرا أكبر من الاهتمام ، لكنت قد أدركت أن جميع اختبارات قدرتى على تحمل مناسخ المناطق الحارة ستؤدى إلى نفس النتيجة ، دون التوصية بإجراء المزيد من الاختبارات . وعندما ذهبت إلى العيادة الخارجية لمستشفى فينا الجامعى ٢ ، لأطلب إجراء الاختبار بسرعة ، إذ ينبغي أن « أرحل إلى جدة على عجل » ، التقيت «مصادفة» بإخصائى الكلى ، دكتور بول شميت دينست ، الذى لم يكن على الإطلاق فى عجلة من أمره ، فراح يجرى لى فحوصا أكثر تعقيدا . وبعد أسبوع ، أجريت لى يوم ٢٣ من مارس جراحة لاستئصال الكلى اليسرى ، بسبب إصابتها بورم سرطانى من نوع خطير ، لدرجة أننى ما كنت لأبقى على قيد الحياة عاما آخر ما لم تجر الجراحة .

بعد نصف عام من مباشرة عملى - فى بلجراد وليس فى جدة - عدت إلى فينا لإجراء فحص للمتابعة . وكانت نتيجة تحليل البول مذهلة ، إذ كان ما يزال فى البول كرات دم بيضاء ، وإن كان عددها قد انخفض إلى النصف . وتبين لنا أن الطبيب اكتشف الورم السرطاني استنادا إلى أعراض ليست من بين أعراضه على الإطلاق !!

ولولم أطلب نقلى من فينا ، لما عرض علىّ منصب فى منطقة حارة . . . ولولم أقبل هذا المنصب ، ما كنت ذهبت لإجراء الفحوص . . وما كنت التقيت بالإخصائى . . وما كنت كتبت هذا الكتاب !!

* * *

هذه الوقائع الدرامية ، والأقل منها فى دراميتها ، لا تؤكد شيئا ، وإنما تبين كل شىء . فهى علميا ليست شيئا ، ولكنها على المستوى الشخصى كل شىء . إنها لا تؤكد شيئا ، لأنها وقائع شخصية جدا تعكس سلسلة من الأسباب والنتائج التى تدل على تدخل الله فى تسيير الأحداث . فهل نعلم حقا أن «واقعة حظ» غير عادية «قسمة» تجلب لنا الحظ ، وأن «واقعة سوء حظ» غير عادية «قسمة» تجلب لنا سوء حظ حقيقيا ؟!

بالمثل ، تبين لى الأحداث المشار إليها كل شىء . ففيها يكمن إحساسى الشخصى بالأمان ، بسبب رعاية الله لى . وربما يؤدى هذا الشعور إلى القدرية (أى الاستسلام للقدر) . ولكن لا ينبغى - ولن يحدث أيضا - أن يستطيع المسلم ، عندما يتبين له ذلك ، أن يدرك مشيئة الله فى كل ما يقع له من أحداث مقبلة . ومن ثم ، فإنه يمكن أن يكون قدريا فقط فى مواجهة حدث وقع بالفعل ، وبالتالي يجب أن يقبله ، وهو سيقبله ، دون أن يحلق شعره ، أو يلطم الخدود ويشق الجيوب ، كما يفعل البعض .

لا يعنى هذا أن المسلم قدرى فيما يختص بالمستقبل ، أو أنه يجوز له أن يتواكل فى أمر من أموره . بل ينبغى عليه النقيض من ذلك : أن يكون عضوا نشطا فى جماعة : «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون» (سورة آل عمران - الآية ١٠٤) . وكذا : «يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين» (سورة آل عمران - الآية ١١٤) . فهل هذه دعوة إلى القدرية ؟ !

إننا على معرفة تامة بهذه القضية ، من خلال نظرية «المادية التاريخية» و«المادية

الجدلية « لزمن الشيوعية الغابر . فوفقا لتعاليم ماركس - إنجلز ، التى كانت تتسم بالقدرية الشديدة ، يتحرك التاريخ وفق قوانين جدلية لا مفر منها إلى غايتها ، وهى مجتمع بلا طبقات . ومع ذلك ، لم يتوقف لينين ولا تروتسكى ولا ستالين ولا عناصر الصف الخامس عن العمل من أجل « بناء الشيوعية » .

لقد فسر رسول الإسلام ﷺ هذا الأمر فى صيغة بسيطة بقوله : « اعقلها وتوكل » ، أى أن على المرء أن يعقل ناقتة وأن يترك ما بقى لله . ولقد تسلمت بهذا اليقين حينما كنت بالجزائر ، دون أن أتوهم للحظة واحدة أننى أستطيع بمسدس أن أطيل حياتى ولو لثانية واحدة إذا حان أجلى . وكنت دائما شديد الاقتناع بأن الرصاصة التى لم تصبنى ، لم تكن تمثل خطرا بالنسبة لى أيا كانت درجة قربها منى .

أثناء عملى مديرا للمعلومات حلف شمالى الأطلسنى (١٩٨٣ - ١٩٨٧) ، عادت مسألة اتخاذ تدابير لحماية النفس تفرض نفسها من جديد ، عندما أخبرتنى مصادر وجهات مختلفة عديدة أنها تخشى أن ألقى المصير الذى لقيه زميلى السابق فون براونمیل ، الذى راح ضحية عملية اغتيال . ولقد خبرت منذ ذلك الوقت كل الإجراءات المعروفة لحماية الشخصيات الرسمية ، بما يمكن أن يقترن بها من إجراءات روتينية ومن مضايقات . وكنت فيما مضى أشفق على من يُسمون « الشخصيات المهددة بالخطر » ، بسبب فقدانهم حرياتهم الشخصية . والآن ، ينبغى على أن أمارس بنفسى « ألعاب سيرك الأمن » .

ونظرا لتحولى من استخدام مسدسى (والتر ٦٥ ، ٧) إلى استخدام مسدس سيدات بسبب تطور وسائل العنف ، قام مدرب الرماية فى فرقة مقاومة الإرهاب البلجيكية بتدريبي على استخدام مسدس ٩ مم (هيكلو وكوخ ١٤ م ٧) فى أوضاع مختلفة . . وقوفا ورقودا . . فى الليل وفى النهار . . باليد اليمنى وباليه اليسرى . . وبأنواع الذخائر كافة ، للدفاع عن النفس . وكان التركيز الضرورى فى وضع الرماية يستنزف قواى البدنية تماما .

كان يتحتم على أن أنجز ، بالتوازي مع التدريب ، العمل ذهنى فيما يختص بتصوير جميع السيناريوهات المحتملة لهجوم أترض له ، وردود الفعل السليمة لها . وفى حالات الضرورة ، يكون رد الفعل المؤكد : لا شىء . وكلما تحسنت النتائج التى أحققها فى الرماية وفى إصابتي للهدف ، كان يساورنى شك دائم فى جدوى كل هذا الجهد الذى أبذله . فهل يعنى هذا أننى قد أكون قدريا بالمعنى السلبي للكلمة ؟

لا يمكن للمرء أن يتحدث عن القدرة في العالم الإسلامي ، دون أن يتطرق الحديث إلى ظاهرة الحسد ، الذي لا يشك مسلم في وجوده . أما في الغرب ، فيفضل المرء أن يتحدث كطبيب عن تأثيرات « نفسية » ، وك « هيبى » عن « إشعاع خبيث » ، وكعالم نفساني عن « تنبؤات تتحقق ذاتيا » بحظ عاثر .

إننا نصادف بطبيعة الحال حالات ملموسة للحسد ، ومن الخطأ علميا أن نتعجل فنستنتج من ذلك أن الحسد مجرد وهم . ومن الخطأ أيضا أن نتصور أن المرء لا يلاحظ الحسد في مواضع أخرى ، لا لسبب إلا لأنه كفيف غير مبصر .

لقد شاهدت في تركيا ، على سبيل المثال ، طبقا غاية في الجمال وهو يتحطم فجأة في المطبخ ، أثناء زيارة إحدى القريبات ، دون أن يتعرض لأى تأثيرات خارجية . ولكننا لا نستبعد أن تكون هناك تأثيرات داخلية . فمن المحتمل أن يكون الطبق قد تحطم بفعل توترات داخلية في بنيته ، أو بسبب ذبذبات زائدة . ولكن ألم تُبد هذه القرية ، المعروف عنها حسدها إعجابها الشديد بهذا الطبق الجميل ؟ ربما يكون قد فاتنا آنذاك أن نقول « ماشاء الله » (بمعنى أن الله قادر على حفظه) .

للأسف الشديد لم ينجح الإسلام بعد في فرض جوابه (رده) الصحيح على هذه المشكلة ، وهو اللجوء إلى الله ، في العالم الإسلامي . فما يزال كثير من المسلمين يلجئون علانية إلى السحر كعلاج ممكن ، بدلا من قراءتهم للمعوذتين في القرآن ، وبصفة خاصة سورة الفلق (السورة ١١٣) :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب * ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد ﴿ (٤٣) .

وما هو أسوأ من ذلك ، أن بعض المسلمين يلجئون إلى استخدام هذه السور في أعمال السحر ، وفي عمل التعاويذ (الأحجية) ، حتى إن قول « ماشاء الله » المذكور في القرآن يستخدم على نحو مرتبط بالخرافات . ولا يستطيع المرء أن يتخيل إلى أى مدى تسعى بعض النساء المسلمات إلى أعمال السحر . ففي أسواق المدن المغربية ، مثل فاس ، يوجد كثير من المحلات التى تبيع فقط مستلزمات أعمال السحر : كالزيوت والعصائر ، وأنواع من البودرة ، وسحالى مجففة ، وحتى عرائس تستخدم في أعمال سحر لإيذاء بعض الناس ولإشعال الحب في قلوب آخرين . وتشتهر قبائل الريف بممارسة هذا الفن الأسود ، وإن لم تكن منفردة وحدها بذلك .

لم تكن زوجتى تستطيع ، ونحن فى المغرب ، أن تمنع خدام المنزل من خلط بعض المواد وحرقتها قبل وبعد الحفلات الموسيقية (كونشرتو الهارب) التى تعزف فيها زوجتى على الهارب . وكانوا يفعلون ذلك قبل الحفل لحماية يديها وألتها الموسيقية من شر الحسد ، وبعد الحفل لحمايتها ﴿ من شر حاسد إذا حسد ﴾ . وكانوا يحرصون أشد الحرص على إخفاء هذه المواد عنى .

إن من يريد التهكم على هذا السلوك ، عليه أن يثبت أن الناس فى الغرب لا ينزعون إلى اللجوء إلى أعمال السحر ، بدءاً بقرأة الطالع والأبراج ، لمواجهة مشكلات حياتهم .

نخلص مما تقدم إلى أنه لا يجوز للمسلم أن يكون قدريا أو سلبيا وإلى أنه ينبغى عليه أن يسعى جاهدا من أجل الخير فى هذا العالم . وهذا السعى ، هو أولى وأرقى معانى كلمة « جهاد » التى يهوى بعض أذعياء الاستشراق ترجمتها إلى « حرب مقدسة » !!

كانت هناك أيضا حروب دائمة باسم الإسلام للدفاع عنه ، تكتيكيا أو إستراتيجيا . وإلى يومنا هذا ، يستطيع رئيس دولة إسلامية أن يبنى النفس بعمل الكثير لتلبية دعوة الجهاد . فعندما تتفاعل الأرواح على نحو آخر تزداد القدرة على التضحية ، خاصة وأن الشهداء الذين يسقطون فى الكفاح فى سبيل الإسلام مشواهم الجنة . ويعلم الجميع الإمكانية السياسية التى تكمن فى هذه الحقيقة . ولقد حاول صدام حسين أن يستخدمها فى حرب الخليج . بينما لا يدعو التلفزيون التركى من يلقى حتفه شهيدا إذا كان الأمر يتعلق بمن يقتل من أفراد حركة الانفصال الكردية ، مدنيا كان أم عسكريا .

إن أقل الناس قدرية ، وأكثرهم نشاطا فى سلوكهم ، هم أتباع ما يسمى بالحركات الإسلامية ، مثل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بالجزائر ، الذين ينشطون من أجل التمكين السياسى لإسلام راديكالى متشدد فى أوطانهم . وتسعى الغالبية العظمى من المسلمين من الشباب ومن المثقفين ، ومن حملة الشهادات العلمية فى العلوم الطبيعية ، بحماسة شديدة إلى تطبيق ما تنص عليه الآية ١٠٤ من سورة آل عمران - السالف ذكرها - تطبيقا صارما .

لقد عايشت ذلك بنفسى فى الجزائر فى الفترة من عام ١٩٨٧ إلى عام ١٩٩٠ . ويبدأ الأمر غالبا بمحاولة أحد الأبناء - ليس بالضرورة الأكبر سنا - فرض تصوراتهِ عن

الأخلاق الإسلامية على أسرته ، وإرغام شقيقاته على ارتداء الحجاب . ولذلك ، نادرا ما توجد بالمدارس فتيات لا يرتدين ملابس إسلامية . وحتى هؤلاء الأخيرات ينصحهن آبائهن وأمهاتهن بارتداء الحجاب ، مجاراة للاتجاه العام السائد ، حتى تزداد فرصهن في الزواج . وهكذا يتصاعد هذا الاتجاه في الشارع وفي المدارس .

ولقد شاهدت مرة في بوزاريه شابا يصبق أمام امرأة سافرة وهو يردد « أعوذ بالله » ، كما لو كانت شيطانا . وكذلك ، رفض الطلاب فجأة الإقامة مع الطالبات في مبنى سكني مشترك ، حتى وإن فصلت بينهما طوابق المبنى . كما رفضوا أيضا تناول الطعام معهن في مطعم الجامعة ، دون فصل حاد بين الرجال والنساء .

ويأتى بعد ذلك ، من منطلق الجهاد ، إشاعة الفضيلة في الحياة العامة . فالشباب المسلم يشعر في كل مكان كما لو كان ما يزال في عصر الجاهلية . ومن ثم ، فإنهم يرون أن واجبه هو تحويل ما يرونه مجتمعات الجاهلية الجديدة إلى مجتمعات إسلامية عبر حرب أهلية يرونها مشروعة ، أو أن يهاجروا داخليا كما حدث في عصر الرسول ﷺ .

ابتداء من عام ١٩٨٨ ، قام مسلمون حديثو العمر في الجزائر بفصل أسلاك هوائيات (إريال) استقبال الإرسال التلفزيوني في الأبنية الكبيرة لمنع الناس من مشاهدة برامج وأفلام فاضحة . وهم يطلقون على هذه الهوائيات اسم الهوائيات الشيطانية . وقام آخرون بتحطيم قوارير (زجاجات) الخمور في البارات ، ويتمزيق لوحات فنية بمحال بيع التحف لتصويرها نساء غير محتشمت ، إذ يرتدين ثيابا خفيفة .

كان هؤلاء الشباب يتسمون بالجدية والمثالية في تعاملهم مع الأمور . وكانوا يكافحون ، في ظل ظروف تكتنفها مخاطر وتضحيات شخصية هائلة ، من أجل عالم أفضل يقوم على مبادئ الإسلام ، خال من الاستغلال ، ومن الفساد ، ومن الامتيازات ، ومن البذخ والترف ، ومن الدعارة والمخدرات . ولكنهم ارتكبوا خطأ وحيدا ، إذ خالفوا أمرا أصيلا وجوهريا في الإسلام ، ألا وهو عدم الإكراه في الدين ، كما جاء في الآية ٢٥٦ من سورة البقرة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . ومن ثم ، فإنهم أحلوا التفاق العام محل القيم الأخلاقية العامة . ولقد وقعوا إلى جانب ذلك فيما وقع فيه بعض المتزمتين قبلهم ، إذ وحدوا في شخص واحد أشخاص المدعى والقاضى و منفذ الحكم ، فسلكوا بذلك مسلكا ثيوقراطيا - فاشيا .

لقد تجاهلوا أنه في ظل كيان دولة منظم ، يصير الفرد مسئولاً فقط في حدود مسئوليته الشخصية عن الدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر . فالوالدان مسئولان عن ذلك في أسرتهما ، والمدير في مؤسسته ، ورئيس الجامعة في جامعته ، ورئيس الدولة في دولته .

لا يمثل هؤلاء المسلمون الإصلاحيون الشبان خطراً على أوروبا ، وإنما على حكومات بلدانهم . لقد شاركت ، بناء على دعوة من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في مصر ، في مؤتمر عقد بالقاهرة في الفترة من ١٩ إلى ٢١ من يناير عام ١٩٩٣ ، لمناقشة هذا الخطر على وجه التحديد . وكما هي العادة ، كان المشاركون هم وزراء الشئون الإسلامية ومفتى الديار في كل الدول الإسلامية تقريباً ، أى من المؤسسات الثلاث اغترب عنهما الشباب المسلم بقوة في الآونة الأخيرة . ولقد نسي المنظمون أن يدعوا إلى المؤتمر ممثلين لهذا الشباب ، وخصوصاً متحدثين عن الإخوان المسلمين . وبذلك ، صار المؤتمر جزءاً من المشكلة ، بدلاً من أن يكون أداة للمساعدة في حلها .

وعلى الرغم من كل الانتقادات ، فإنني أتمنى لبعض المجتمعات في الغرب شباباً قادراً على إحداث بحث أخلاقي (هل ينبغي أن أقول « تحول » ؟) مماثل لما حدث في مجتمعات إسلامية ، ومستعداً للتضحية في كفاح ضد حكم استبدادي فاسد .

الفصل الثامن عن حب المال

ينطوى مثل تركى على ما يعنى أن الصداقة والمال لا ينسجمان ، مثلها في ذلك مثل الماء والزيت . فما هي إذن العلاقة بين الإيثار والمال ؟ هل ينسجمان ؟ نعم . . فضريبة الثروة والمال (الزكاة) في الإسلام هي أحد أركانه الخمسة ، ومن ثم فإنها عبادة مفروضة (٤٤) .

ولعل المرء يلاحظ الذكر المتكافئ ، الوارد في الآية ٢٧٧ من سورة البقرة : ﴿ إِن الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . فكما أن الصلاة تقضى على غرور الإنسان ، وكما أن الصوم يهذب النفس ويقاوم شهوات الإنسان ، فإن إخراج الزكاة يقهر بخله وشحه ، فضلا عن أنه يكبح التفاوت الهائل بين الدخول المادية للناس . لذلك ، تفرض الضريبة (الزكاة) بنسبة ٥ ، ٢٪ على المال بعد مرور سنة .

ويندرج تحريم الربا في الإسلام تحت الوسائل التي تحقق ذات الهدف ؛ إذ إنه يحول دون تراكم أو تكوين رؤوس مال بدون جهد .

كثيرا ما يجد المرء أن الزكاة تترجم خطأ في كتابات المستشرقين على أنها الصدقة أو «ضريبة الصدقة» (وهو ما ينطوى على تناقض) . فالصدقة يؤديها المسلم طوعية بإرادته الحرة تماما ، لأن الإسلام يحض على الإحسان . أما الزكاة فضريبة معلومة مفروضة ، يحق للدولة المسلمة أن تتلقاها ، بل وأن تجمعها حتى تستطيع أن تفي باحتياجات بعينها ، فصلها القرآن في الآية ٦٠ من سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . فالدولة المسلمة ، تتلقى أو تجمع الزكاة لإنفاقها على رعاية الفقراء والمساكين ، وحديثى العهد بالإسلام ، وعابرى السبيل ، والمدنيين والمسجونين تنفيذا لعقوبة ، والإنفاق على أعمال الإدارة والدفاع ، ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ، أى في العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام والعمل على نشره .

الزكاة في الإسلام ، الذى يرى نفسه ديناً ودولة ، عنصر بناء حيوى . فحينما امتنعت بعض القبائل العربية عن أداء الزكاة ، بعد وفاة الرسول ﷺ ، حاربهم خليفته الأول أبو بكر على أنهم مرتدون .

ولكن ما هو إذن موقف المسلم في الغرب من الزكاة ؟ هل يسقط عنه التكليف بأدائها ، لأنه يؤدي ضرائب عن أجره ودخله و ثروته إلى دولة غير مسلمة ؟

طالما أن الدولة الغربية لا توجه أى « ضريبة كنسية » لخدمة طوائفها الإسلامية ، ومن ثم فإنها لا تحقق هدفاً مهماً من أهداف الزكاة في الإسلام ، وهو إعلاء شأن الإسلام ونشره ، لذلك ، فلقد انتهت إلى أن تؤدي زكاة إضافية إلى مؤسسات إسلامية أختارها ، وبصفة خاصة في ألمانيا ، بحيث تكون حريصة كل الحرص على أن تنفق المال في مصارفه المحددة .

وإلى جانب ذلك ، فإننى أتنازل عن حقوقى كمؤلف لدور النشر الإسلامية ، سواء في ألمانيا ، أو الولايات المتحدة ، أو الجزائر ، أو المغرب ، مساهمة منى في العمل من أجل إعلاء شأن الإسلام وانتشاره ، أى مساهمة منى في العمل ﴿ في سبيل الله ﴾ .

ويؤدي الكثيرون من العمال الأجانب المسلمين في ألمانيا الزكاة ، وليس أدل على ذلك من وجود مئات المساجد والمراكز الثقافية الإسلامية بها . ويوجد بالمساجد أماكن لتلقى الزكاة التى تؤدي مرة واحدة في السنة . وعادة ما يكون المبلغ المجموع كبيراً بما يمكن من تخطيط الميزانية على نحو أفضل .

ويتلقى بعض المساجد في ألمانيا ، بطبيعة الحال ، « بترودولارات » (دولارات نفطية) . وأياً كان مصدرها ، سعودياً أو إيرانياً أو ليبيا ، فإنها تترك تأثيراً خاصاً يرتبط بمصدرها .

ولقد كان من الممكن التغلب على كثير من المشكلات المالية ، التى تواجه الطوائف أو المجموعات الإسلامية في ألمانيا ، لو أنها اتبعت نظاماً كفئاً للضرائب ، كذلك المطبق في حالة الضرائب الكنسية المسيحية واليهودية . ولكن ذلك قد يؤدي من الناحية الأخرى إلى بروز مشكلات سياسية أكبر منها ، تحل محلها ، من قبيل : الرقابة على الأموال وتوزيعها في مجتمع متعدد الثقافات .

من هنا ، كان فخري واعتزازي بالمسلمين الأندلسيين الملتفين حول الأستاذ عبد الرحمن مدينه موليرا ، الذين نجحوا ، بفضل مساندة وتشجيع رجاء (روجيه) جارودي المتحمس دائماً ، في عام ١٩٩٤ ، وبعد توقف دام ٨٠٠ عام ، في بناء مسجد في قرطبة بدون مساعدات مالية أجنبية . ويبعد موقع هذا المسجد مائة متر فقط من موقع مسجد قرطبة

القديس الكبير . ويتمتع هؤلاء المسلمون بحق الدعوة إلى الصلاة بأذان ينطلق من منارة المسجد . ليس هذا فحسب ، بل إنه يرتبط أيضا مع «جامعة ابن رشد الإسلامية بالأندلس» ، التي افتتحت في نهاية أغسطس عام ١٩٩٤ . ولعل استقلال مسلمي الأندلس عن الدولارات النفطية يكون نموذجا يحتذى به المسلمون في ألمانيا .

ولكن ماذا يفعل المسلم لكي يحافظ على ثروته وينميها ؟

يرتبط هذا السؤال أيضا بمشكلة «البخل» . ويقودنا على الفور إلى ذكر تحريم قرآني مزدوج ، يحرم على المسلم في العالم الرأسمالي أيضا أن يقامر أو يضارب بالمال أو أوراق اليانصيب لتحقيق أرباح بالمضاربة ، كما يحرم عليه أيضا الإقراض بفوائد ، لأنه ينبغي عليه أن يكسب عيشه بعمله هو ، وبما يتحملة هو أيضا من مخاطر .

إن إشكالية سوق رأس المال المشار إليها إشكالية معقدة ، وبصفة خاصة لأن الدول الغنية «الأشد إسلامية» في هذا العالم لا تستحي أن تودع أموالا طائلة هائلة في بنوك الغرب التي تتعامل بالربا ، كما أنها ذاتها تسعى إلى عقد صفقات مصرفية على أسس ربوية .

لذلك ، دارت في لقاء للمسلمين الناطقين بالألمانية - عقد في آخن في ديسمبر عام ١٩٨٦ - مناقشات جادة حول مفهوم الربا المحرم بنص الآية القرآنية ٢٧٥ من سورة البقرة ، سعيا إلى فهمه . ولقد لخصت رأيي آنذاك في أن مفهوم الربا ، الوارد في القرآن وفي أحاديث الرسول ﷺ ، ينصب حسب أصله التاريخي على الفائدة الربوية التي تفرض استغلالا لحاجة المقرض والمضائق الاقتصادية التي يمر بها . ومن ثم ، فإن من يقترض من البنك الألماني لشراء سيارة ثانية ، لا يتعرض لاستغلال من جانب البنك . وأشارت أيضا إلى أن الفوائد على المدخرات غالبا ما تعوض فقط الخسارة الناجمة عن التضخم ، وإلى أن المدخر يعوض ما يفقده من ربح (كان من المحتمل أن يحققه من استخدام آخر لرأسماله) بما يحصل عليه من فائدة على مدخراته .

ومع أنني لم أكن الوحيد الذي يتبنى هذا الرأي ، فقد كان رد الفعل له سلبيا ، إذ تمسك معظم الدين شاركوا في المناقشة بالمفهوم الأصولي للربا ، الذي يرى أن تحريم الفائدة مجرد شكل خاص من التحريم الشامل للربا (٤٥) .

ماذا يفعل المسلم الألماني إذن بمدخراته ؟ فعلى الرغم من الجهود المضنية التي بذلها الدكتور أيوب (أكسيل) من معهد الاقتصاد الدولي في كولونيا ، فإنه لا يوجد في ألمانيا بعد مؤسسة مالية إسلامية . وهذا أمر لا يثير الدهشة على الإطلاق ، عندما يتابع المرء

الصعوبات التي ما تزال تواجه باكستان في سعيها إلى إقامة اقتصاد بلا فوائد . فكيف تجمع شركة رأس المال دون فائدة ؟ كيف إذا كان ذلك سيقترن بمخاطر كبيرة لرأس المال ؟ كيف يعمل تخصيص الموارد بدون فائدة كمعيار للربحية ؟ كيف يارس البنك المركزي سياسة نقدية غير دورية في غياب الفائدة كأداة ؟

إن الحل لا يمكن أن يكون في طلب مسلم ألماني من البنك الذي يتعامل معه أن يفتح له حسابا ادخاريا بدون فوائد ، لأن هذا طلب من شأنه أن يهدم النظام المصرفي بأكمله . وسيكون رد موظف الشباك المتوقع استنادا إلى خبرته هو : « أولا : إننا لم نفعل هذا على الإطلاق من قبل . وثانيا : إننا كنا نفعل دائما شيئا آخر . وثالثا : إن هذا سيكون سابقة يستند إليها أى شخص » .

إن محاولة إيجاد حل من هذا القبيل تعنى ببساطة أنه من الخطأ محاولة أسلمة نظام اقتصادى عن طريق إلغاء الفائدة . فإلغاء الفائدة يمكن دائما أن يكون مجرد جزء من عملية تغيير عميقة ناجحة متعددة الجوانب ، لتقليص الرأسمالية كنظام ^(٤٦) ، أو لتعديلها حتى لا تعارض النظام الإسلامى .

إن المشكلة تظل قائمة حتى في حالة التوصل إلى نظام لحسابات ادخارية بدون فوائد ، لأن أصحاب مثل هذه الحسابات يساعدون البنك في منح قروض بفوائد . ناهيك عن أن البنك يجد صعوبة في التعامل مع عملاء مسلمين يفكرون تفكيرا غير اقتصادى . ويتبين ذلك من رسائل أتلهاها بانتظام من البنك الذى أتعامل معه ، تقول : « السيد المحترم دكتور هوفمان ، يُظهر حسابكم الجارى في الوقت الراهن رصيذا مرتفعا . ولذلك ، فإننا نسمح لأنفسنا أن نستلفت انتباهكم لإمكانات جذابة لاستثماره . . . » .

إن المسلم الألماني ، الذى يريد أن يتجنب شبهة مخالفة التحريم القرآنى للمضاربة وللربا ، لا يشارك على أى حال في أرباح ناجمة عن استثمارات لرأس المال ذات فوائد محددة سلفا في حدود قيم معينة ، أو من أعمال تتسم بالمضاربة في السلع أو الأسهم أو العملات . ويبقى له أن يوظف أمواله كرأس مال منتج في استثمارات تحوطها المخاطرة ، كأن يشارك في شركة تجارية ، أو يستثمر في صناديق استثمار ، أو في أسهم (كمستثمر لا كمضارب) . ولن يترتب على ذلك انهيار سوق المال الألماني .

يندرج تحت المبدأ الإسلامى بمحاربة البخل ، الدعوة إلى نحر الأضحى (الحيوانات) في عيد الأضحى ، وفي مناسبات أخرى ، تكفيرا عن بعض الذنوب أو المخالفات ، وغير

ذلك . ويصف القرآن والسنة كيفية النحر ، ويضيف القرآن إلى ذلك ما هو أهم : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ (سورة الحج - الآية ٣٧) .

شهدت لأول مرة ، في عام ١٩٨٢ في إسطنبول ، كيفية نحر الأضحى ، حيث شاهدت شاة تذبح على رصيف أحد الشوارع ، في مناسبة افتتاح محل جديد لبيع الأحذية . ولقد أحسست بعدم الارتياح ، وأنا أشاهد هذا المشهد . وما أزال حتى اليوم أشعر بعدم الارتياح ، عندما أشاهد حيوانا يذبح ، على الرغم من أنني شاهدت ذلك عشرات المرات .

إن المناسبة الرئيسية التي تنحر فيها الشياه ، هي عيد الأضحى الذي يمثل ذروة شهر ذى الحجة ، على نحو ما ذكرت بقدر كبير من التفصيل في الفصل الأول من هذا الكتاب . وفي الرباط ، كانت الأمة كلها تنتظر لتشاهد على شاشة التلفزيون الملك الحسن الثاني وهو يؤدي واجبه في نحر الأضحى ، باعتباره أول من يفعل ذلك من أفراد الأمة . وكنت كجميع السفراء المسلمين أؤدي صلاة العيد مع الملك الحسن الثاني بمسجد أهل الفحص ، في المنطقة التي يقع بها القصر . وبعد الصلاة ، كان الملك يقوم بنفسه بنحر كبشين أملحين ، مع وضع منديل أبيض في طريق انبثاق الدم . وبعد ذلك ، شاهدت في مسكننا طاهينا (الطباخ) ، وهو ينحر كبشين محاطا بأسرته الكبيرة . وكان قد اشترى أحد الكبشين بنفسه ، بينما كان الكبش الآخر « كبشا ملكيا » ، إذ كان هدية من الملك .

ويجوز لي ، حسب الشريعة ، أن أنيب عني من ينحر الأضحى ، ولكن لا بد لي من أن أكون حاضرا عملية النحر لأنطق بنفسى « باسم الله » . ولم يكن يمضى سوى ساعات قليلة قبل أن نكون قد انتهينا من أكل نصيبنا من الأضحى ، وهو الكبد مشويا . أما بقية الأضحى ، فكننا نهديا في قطع كبيرة إلى العاملين الكثيرين بمنزلنا .

في المغرب ، يعد ميلاد طفل جديد من أكثر المناسبات التي تنحر فيها الأضاحي . فلقد جرت العادة هناك على أن يدعوا المرء إلى حفل إفطار كبير ، في وقت متأخر عن الإفطار المعتاد ، يقام بعد مولد الطفل بفترة من ثمانية إلى أربعة عشر يوما . وفي هذه المناسبة تنحر شاة على الطوى (خالية المعدة) ، أمام كاميرات الفيديو ، كأضحى شكرا لله وحمدا له على تمام الولادة السعيدة (ويمكن أن ذلك أيضا بهدف دره الحسد عن المولود) .

تعد أسواق الأغنام قبل وقت قصير من عيد الأضحى حدثا متميزا . فبينما كنا في طريقنا من سبتة إلى الرباط في مايو عام ١٩٩٤ ، اعترضتنا أمام بوابات تطوان آلاف من رؤوس الأغنام محاطة ببائعيها . ومع ذلك ، كانت البهجة تعم الجميع . وكانت وسائل نقل متعددة وغريبة ، أحضرت لنقل الأغنام ، تسد الطريق . وكان من نتيجة ذلك ، أننا

استغرقنا من الزمن ساعة ونصف الساعة حتى استطعنا أن نجتاز هذه السوق ، الأشبه بخلية نحل ، ونواصل طريقنا .

كان انتقالنا إلى مسكن آخر مجدد في إسطنبول مناسبة أخرى لأن نقدم أضحية ، تعبيرا عن الشكر لله . وكان أنسب مكان لذلك ، هو المؤسسات الخيرية بمسجد السلطان أيوب عند القرن الذهبي . فهناك يدفع ثمن الأضحية ، ويحدد كيفية توزيع لحمها ، ويختار الشاة التى يضحيها ، ويشهد عملية النحر ، وتطبع على جبينه ، باعتباره المضحى ، قطرة من دم الأضحية .

يتجاهل الناس في الغرب ، في حياتهم اليومية ، الحقائق غير المبهجة في حياتنا ، كتلك المتعلقة بالميلاد والشيخوخة والمرض والموت . فلا ينبغى لشيء دام أن يعكس صفو حياتنا النفسية الهادئة . فالمرأة التى تعاني آلام المخاض ، تدخل غرفة التوليد ، ثم تخرج إلى زوارها في أمهى زيتها . وفي المستشفيات الحديثة ، يتحول المرضى إلى نزلاء في فندق . ويودع المسنون في مأو (دور) مخصصة لرعايتهم ، ومن ثم تبعد كلمة « مسن » عن أن تقلقنا . وعندما يتعلق الأمر بالموت يجد المرء في أمريكا نفسه وقد غاب في « دار آخرة » . . فيالها من سخرية !

أما فيما يختص بالحيوانات ، التى كدت أنساها ، فلنأخذ ذبح على نحو متكرر ، دون أن نرى أو نشم أو نسمع عملية ذبحها . ولكنها تأتينا كقطع للأكل في صورة صدور أو أوراك نظيفة معقمة مغلفة لتخرجها من جهاز التجميد (الديب فريزر) إلى الموقد مباشرة . . . باختصار شديد . . . بطريقة إنسانية .

إن عالما هذا شأنه ينظر ، بطبيعة الحال ، إلى تضحية حيوان حى على أنه عمل وحشى ، لا معنى ولا هدف له . وذلك على الرغم من أن المرء في هذا العالم ، ما يزال حتى الآن يسمى صلاته « قربانا » ، وما يزال يتأمل في يوم الجمعة الحزينة لأن الرب « ضحى » بابنه من أجلنا .

إن نحر الحيوان كأضحية في واقع الأمر مسألة حياة وموت . فالحيوان يفقد حياته إن عاجلا وإن آجلا ، كما نفقد نحن أيضا حياتنا إن عاجلا وإن آجلا . ولكن الفرق بين الحاليتين ، يكمن فيما إذا كان الموت يحدث كأمر لا مفر منه ، يعى المرء حتميته كجزء من إيمانه بالله ، أم إنه يحدث كنوع من موت ذليل .

ومع ذلك ، دعونا نتذكر أنه لا ينال الله دم الأضحية ولا لحمها ، وإنما يناله معنى الإجلال وتقوى الله وشكره ، الذى تنطوى عليه الأضحية . والعبرة لمن يعتبر !!

الفصل التاسع

فتش عن المسلمة

ينطبق التعبير البلاغى : « فتش عن المرأة » على العالم الإسلامى أيضا . فإذا كان حقا ما يقال فى الغرب من أن وراء كل رجل ناجح امرأة ، فإن وراء كل مسلم ناجح امرأة مسلمة . . ليست جارية ، وإنما شريكة حياة محبوبة . ومن ثم : « فتش عن المسلمة » !

وقبل التطرق إلى تفاصيل هذا ال « تقرير عن وضع المرأة فى الإسلام » ، أود أن أشير إلى بعض الأحكام العامة ، وهى :

١ - تشبه النساء المسلمات أخواتهن الغربيات أكثر كثيرا عما يعتقد المرء فى أوروبا . ففى كل من العالمين ، تضطلع المرأة بأدوار الزوجة ، والأم ، والمحبوبة ، والفنانة ، والممثلة ، والمطربة ، والراقصة ، والسياسية ، والصحفية ، والشاعرة ، والطبيبة ، والمرضة ، والجلدة ، والشيخة ، والجارية ، والساحرة ، والمتصوفة ، والقديسة . . وغير ذلك كثير .

٢ - تسعى الغالبية العظمى من النساء فى الشرق ، كما هو الحال فى الغرب ، إلى التكامل مع الرجال ، وليس إلى محاكاتهم أو تقليدهم .

٣ - يختلف المثال (النموذج) الإسلامى عن الممارسة فيما يختص بتطبيق حقوق المرأة ، على النحو الذى أورده القرآن ، مثلما يختلف فى أمور أخرى كثيرة . وهذه ظاهرة معروفة فى حضارات أخرى ، وبصفة خاصة ، فيما يتعلق بالواقع الفعلى للمرأة .

٤ - على الرغم من أن هناك نساء مهمشات ومحجبات فى العالم الإسلامى ، فإن الغالبية العظمى من أخواتى المسلمات لا يجدن أنفسهن فى الشخصيات التى تعرضها كتب مثل : « ليس بدون ابنتى » ، و « أنا ، أميرة من بيت آل سعود » .

* * *

نأتى بذلك إلى التفاصيل : (٤٧)

ونبدأ بـ « عقد الزواج » . فنادرا ماتجبر النساء في بلاد المسلمين على الزواج ، وإن كان ذلك يحدث في بعض الأحيان . ومع ذلك ، فكثيرا ما لا تتوافر لمن فرصة كافية لاختيار شركاء حياتهن ، لأن التقاليد تحول دون ذلك . ولذا تتم الكثير من الزيجات حتى الآن عن طريق ترتيبات الأهل في جميع بلدان العالم الإسلامي ، من باكستان مرورا بإسطنبول والمغرب إلى موريتانيا . ففي هذه الأجزاء من العالم ، يسود اعتقاد بأن خبرة الأهل توفر ضمانا لزواج ناجح وسعيد أكثر مما يوفره الحب بين الشباب . ولقد ثبت بالفعل ، أن الزيجات التي ترتب على هذا النحو ليست أقل استقرارا من الزيجات التي تتم عن طريق الحب . ولكن الاستقرار ليس دليلا مؤكدا على زواج ناجح ، إلا في حالة ما إذا كانت الزوجة مستقلة اقتصاديا عن زوجها ، بحيث تستطيع أن تتركه إذا أرادت .

غالبا ، ما يجري اكتشاف عروس المستقبل بواسطة حماة المستقبل . وليس هناك مكان أفضل لذلك من الحمام (الحمام التركي) ، حيث لا يرتدى المرء ملابس على الإطلاق ، بما في ذلك لباس البحر (المايوه) . ومن ثم ، لا تستطيع فتاة شابة أن تخفى ما قد يكون بجسدها من عيوب ، بينما هي تلتقى في هدوء ومودة بعدد كبير من الحمامات المحتملات .

على أى حال ، يحرص الوالدان ، أو الأوصياء على أن يتم الزواج الإسلامي التقليدي على أساس «عقد زواج» يصاغ بدقة وعناية ، على نحو يجعل من غير الممكن أن يتزوج الرجل زواجا ثانيا ، ويؤمن الزوجة ماليا عند حدوث طلاق بالنص على مؤخر صداق كبير . وثمة أسلوب ، يتسم بالدهاء ، لتحقيق الاستقرار للزواج ، يتمثل في النص على أن يؤدي الصداق (المهر) كاملا أو جزئيا في حالة وقوع الطلاق . ومن ثم يصير الطلاق بالنسبة للزوج ، كما هو الحال في القانون الألماني الجديد ، مخاطرة مالية لا يستطيع أن يتحملها .

يؤدي ارتفاع قيمة المهر في مجتمع ما ، كما هو الحال في السعودية ، إلى اضطراب الشباب إلى البحث عن زوجات أجنبيات ، وبصفة خاصة من مصر وتركيا . فلقد صارت النساء السعوديات بعيدات المنال ، بالنسبة لكثيرين من الشباب ، لأسباب مالية . وهذا المخرج غير متاح في الإمارات العربية المتحدة ، حيث لا يسمح ، بسبب الخوف الشديد من خطر غلبة السكان الأجانب ، لابن البلد إلا بالزواج من ابنة بلده . وحتى يكون ذلك ممكنا من الناحية المالية ، يمنح أمير (أبو ظبي) إعانة لكل زيجة من هذه الزيجات ، بلغت في عام ١٩٩٣ خمسين ألف دولار .

وكانت مشكلة المغالة في المهور قد ظهرت في عهد الخليفة الثاني (عمر بن الخطاب)

وأراد عمر لذلك أن يضع حدا أقصى للمهر . ولكنه ما لبث أن تراجع عن عزمه ، عندما جادلته امرأة في المسجد بأن القرآن يمنع استرداد ما أخذته المرأة مهرا .

والزواج في الإسلام ليس سرا من الأسرار ، وإنما هو عقد . ولكن يفصل بين عقد القران وحفل الزفاف ، في بعض الأحيان ، عام أو عامان . ولقد دُعينا في المغرب إلى حضور حفل عقد قران ، وبعده بعام كامل دُعينا إلى حضور حفل زفاف العروسين .

لقد تزوجت في إسطنبول عام ١٩٧٧ حسب الشريعة الإسلامية ، مع تقديم شهادة «الأهلية للزواج» الألمانية ، كأساس لتوثيق الزواج المدني ، وفقا للقوانين التركية . وكانت الطقوس شديدة البساطة ، واقتصرت في الواقع على الصلوات . واستطعنا أن نتغلب على مشكله المهر المرتفع ، حيث إن زوجتي أصبحت ، بموجب عقد القران ، مستحقة لمعاش من إدارة المعاش في بون .

كانت حفلات الزفاف في العالم الإسلامي ، وما تزال ، تتسم بالبذخ الشديد ، ولكنها تختلف في طقوسها من منطقة إلى أخرى . ومع ذلك ، فهناك ، على أساس الحقوق العائلية الإسلامية ، خصائص مهمة مشتركة . مثال ذلك : ماهو معتاد في كل مكان من احتفال كل من الرجال والنساء على حدة بليلة الحناء ، ومن تأمين الرجل لعروسه في مواجهة الشيخوخة بإهدائها حلّيا ومشغولات ذهبية عالية القيمة . (ومن المعروف ، أن الزوجة ، وفقا للشريعة الإسلامية ، تتمتع بذمة مالية مستقلة منذ ١٤٠٠ عام) . وكثيرا ماخشيت في تركيا من أن تسقط العروس تحت وطأة ثقل ما تحمله ليلة زفافها من خواتم وسلاسل ذهبية وساعات مذهبة .

تشترك الأفراس من تركيا إلى المغرب في ذلك الاتجاه المتزايد نحوإشاعة الضوضاء باستخدام أجهزة صوت إلكترونية أكبر فأكبر . فمن الأمور المستحدثة ، عندما يحتفل بالزفاف في أحد الفنادق الكبيرة بإسطنبول ، إطلاق صاروخ ألعاب نارية عند بدء الاحتفال ، على نحو يثير الذعر في المدينة كلها . وفي المغرب ، بلغت هذه المساوئ مستوى غير مسبوق . فلقد صارت حفلات الزفاف هناك منذ ما يقرب من ١٥ عاما عذابا سمعيا للمشاركين فيها ولغير المشاركين على السواء ، ممن يضع حظهم العاثر مساكنهم في محيط يبعد كيلومتريين عن مكان الاحتفال بالزفاف .

والأمر يبدو كما لو أن الناس ترفع شعار « لا ينبغي لأحد أن ينام يوم عرس ابنتي ! » ويبلغ ضجيج الاحتفال حدا يعجز المرء عن سماع من يجلس إلى جواره حول منضدة

واحدة . . بل إن المرء يظل يشعر في اليوم التالي كما لو كان نصف أصم ! لذلك ، فقد عقدت العزم بكل الجدية على أن أستخدم في حفل الزفاف التالي غطاء الأذن الذى كنت أستخدمه أثناء مرانى على الرماية .

من المعتاد في المغرب ، أن تطلع العروس على ضيوفها أثناء الاحتفال بسبعة أثواب متتالية ، بما يناسب كلاً منها من حلى - على نحو ما تصف شهر زاد في الليلة الثانية والعشرين من ألف ليلة وليلة - ويشبه الثوب الأخير (للأسف) ثوب زفاف أوربى . أما الأثواب السابقة عليه ، فأثواب رائعة الألوان ، تمثل المناطق المختلفة للمملكة .

جرت العادة في المغرب على وجه الخصوص ، كما هو الحال عند المسلمين الهنود ، أن تحمل العروس ، جالسة في قفص من أسلاك الفضة على أكتاف شيخات قويات يؤرجحنها يمنة ويسرة . بينما يدخل (العريس) إلى القاعة محاطاً بموسيقيين سمر البشرة من مراکش ، يعلنون عن وصوله بأصوات بآلات النفخ والإيقاع شديدة الارتفاع بدون أجهزة صوت إلكترونية .

يجلس العروسان الليلة بطولها في (كوشة) ، لا يتحدثان ولا ينظر بعضهما إلى بعض امتثالاً لما تفرضه التقاليد العريقة في ريف الأناضول حتى اليوم . أما في المدن التركية ، فالأمر يختلف إلى حد ما ، إذ يجلس العروسان في بادئ الأمر في مواجهة المدعوين ، غير أنه يجوز لهما التحدث معاً ، كما يجوز لهما الاختلاط مع المدعوين أثناء الحفل .

شهدنا هذا البذخ الشديد نفسه ، والطقوس ذاتها ، والطعام ذاته ، والمشروبات غير الكحولية نفسها ، في حفلات زفاف عند عليّة القوم وعند بسطائهم على السواء . . . عند سائق سيارتى الحاج محمد جينيه في مدينة صاله ، ومرشدنا الصغير غير الرسمى إدريس في فاس . . . وفي حفلات زفاف بنات وزراء في الرباط . والاختلاف الوحيد بين أولئك وهؤلاء ، هو أنه كلما كان الناس أشد بساطة كان المضيف أكثر ودا وترحيباً بالضيوف ، وكان الحفل أكثر بهجة .

ليس ثمة ما ينعش الخيال الجنسى عند مواطن أوربى أكثر من تصورات الحاسدة لشهوانية الحريم الشرقى . فإذا كان يظن أنه يعرف شيئاً واحداً عن الإسلام ، فهو أن المسلمين - هؤلاء الشهوانيين - لهم الحق في أن يتخذوا «أربع زوجات» . وهنا يسيل لعابه . لكن حتى هذه المعرفة الزهيدة خاطئة ، ولا تطابق الحقيقة .

وهى خطأ ، لأن القرآن يشترط لممارسة هذه الإباحة شرطاً يكاد يكون من المستحيل

الوفاء به ، وهو تحقيق العدل بين الزوجات ، بحسب نص الآية ١٢٩ من سورة النساء : ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما﴾ .

وهي ليست حقيقة أيضا ، لأن الزواج بواحدة في واقع الأمر ليس أقل شيوعا في العالم الإسلامي منه في الغرب . والزواج بامرأة واحدة أكثر استقرارا في العالم الإسلامي منه في المتوسط في أمريكا أو السويد أو ألمانيا ، بحسب ما تبينه الإحصاءات .

وعلى الرغم من أننى تجولت كثيرا ، ولفترات طويلة في العالم الإسلامي - العربي ، فإننى لا أستطيع أن أتذكر سوى حالات قليلة جدا لتعدد الزوجات . ولعل مما يثير الدهشة ، أن رجل أعمال مصريا يعيش في حى سويسى بالرباط متزوج من أربع زوجات جميعهن ألمانيات ، ويبدو عليهن جميعا أنهن أسعد كثيرا من النساء في الغرب . ويمكن للمرء أيضا أن يرى في إسطنبول في فصل الصيف عربيا أو آخر يصطحب زوجتين أو ثلاث زوجات ، جاء معهن هربا من حر شبه الجزيرة العربية ، ليقيموا في فندق طرايه - البوسفور . ويستفيد من ذلك في المقام الأول تجار الساعات وتجار الحلى والمجوهرات ، المنتشرون في السوق ، إذ إنه ينبغى على مثل هذا الرجل متعدد الزوجات أن يهدى إليهن جميعا نفس الهدايا ، أو ألا يهدى لأى منهن شيئا ، إذا أراد أن يحقق شرط العدل بينهما .

ولقد شاهدت في ديسمبر عام ١٩٩٣ في (أبو ظبى) واقعة مرتبطة بتعدد الزوجات ، تشير إلى مدى مراعاة الإنصاف أو العدل الوارد في القرآن بخصوصه . وكان ذلك عندما رأيت في مطعم الأسماك على بحيرة فندق إنتركونتيننتال رجلا إماراتيا شابا بصحبة زوجته الأربع الأصغر منه سنا ، وهن جميعا في نفس العمر تقريبا وشديدات الشبه بعضهن ببعض ، ومعهن أربعة أطفال في نفس العمر تقريبا .

لا يفوتنى أن أذكر أن أحد زملائي من سفراء إفريقيا السوداء ، كان يصطحب معه زوجة في الرباط ، بينما يترك زوجة أخرى له في وطنه ، تماما كما لو كان يعمل بمبدأ البحارة : « عروس في كل ميناء » .

وينبغى أخيرا أن أذكر ماريام جميله ، وهي يهودية أمريكية مثقفة اعتنقت الإسلام . فلقد اختارت ، بعد بحث ، أن تكون واحدة من زوجات متعدّدات ، في باكستان ، حيث تعيش الآن بوعى تام ، مثلما عاشت « أمهات المؤمنين » زوجات الرسول ﷺ .

يتبين من خبراتى ، التى قدمتها في قائمة صغيرة مفصلة ، أن تعدد الزوجات بما يتفق

وهدف القرآن لا يمثل مشكلة للإسلام بصفة عامة . وإذا جاز لي كمسلم أن أراهن على شيء فإنني أراهن على أن تعدد العشيقات في العالم الغربي أكثر من تعدد الزوجات في العالم الإسلامي .

* * *

يعد الزواج الإسلامي شيئا سيئا وفقا للتصور الغربي ، حيث يتوهم كل امرئ هناك أن المسلمة تستعبد وتضرب . ولكنني أزعم ، بقدر ما يتاح لي من المعرفة ، أن غالبية النساء في العالم الإسلامي يمين مع أزواجهن في علاقة مشاركة ، تحقق لهن ذواتهن ، حتى في بعدها الجنسي . (ونحمد الله على أن عملية ختان الإناث التي تشوه المرأة مجرد عادة من العادات المنتشرة في إفريقيا السوداء ، وأنه لا علاقة لها بالإسلام قط) .

صحيح أنه في معظم الزيجات الإسلامية ، تسود نزعة « الأبوية » ، حيث تؤخذ حماية المرأة مأخذ الجد من جانب زوجها وإخوتها على السواء ، حتى إنه ينظر إليه من منظور تحرري على أنه تضيق لنطاق حريتها . ومن الواضح أن مفهوم شرف العائلة يلعب دورا حاسما في هذا الشأن . فالرغبة في حماية المرأة ، وليس النزوع إلى امتلاكها ، هي التي تغذي الموقف الذي نفسره خطأ على أنه الغيرة . فالظاهرة ، إذا ما نظرنا إليها من قرب ، لا علاقة لها بالغيرة ، بل إنه على العكس من ذلك يسعى معظم الرجال المسلمين إلى إبعاد زوجاتهم عن مواقف حرجة ، حتى لا يضطروا إلى العراك مع أحد قد يثرنه بما يرتدين من ثياب مثيرة . وتأتي عذرية الفتاة في مقدمة ما يحرص الأب والأخوة في العالم الإسلامي على حمايته . وفي بعض الأنحاء ، كما هو الحال في مناطق الأكراد في تركيا ، تنبذ الفتاة « الساقطة » بسبب ما جلبته للأسرة من عار ، بل إنها قد تقتل أيضا . ويعنى فقدان عذرية الفتاة ، على أي حال ، تضائل فرص زواجها زواجا كريما . ولا يندهش أحد من أن الجراحين ، الذين يستطيعون إصلاح كل شيء بإبرة ماهرة ، يربحون من هذا الوضع .

وفي بعض الأحيان ، يمكن أن يصل العمل من أجل حماية المرأة إلى حدود مبالغ فيها . ففي المغرب ، على سبيل المثال ، لا يسمح للمرأة - حتى وإن كانت تحمل جواز سفر خاصا بها - أن تسافر إلى خارج البلاد ، ما لم تقدم إلى السلطات المختصة في المطار تصريحاً لها بالسفر من زوجها .

تعود ظاهرة حماية الرجل للمرأة ، حتى وإن لم تر هي أنها في حاجة إليها ، بجذورها إلى جملة استهلاكية في آية من آيات القرآن ، فسرت منذ قرون من الزمن بما يفيد تفوق الرجل

على المرأة ، لأسباب تتعلق بالجينات أو ببنية الجسم ، وهو ما كان له عواقب مأساوية على المرأة . هذه الآية هي الآية ٣٤ من سورة النساء ، وهى فى ترجمة ألمانية مهمة ، وفيما نقلته أنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الإنجليزية للقرآن إلى الألمانية ، تبدأ على النحو التالى (٤٨) :

- ١ - « الرجال متفوقون على النساء » . (م . سافارى M . Savary) .
- ٢ - « للرجال أفضلية على النساء » . (بلزا اتيجانى Pelse Tidjani) .
- ٣ - « الرجال قادة النساء » . (حميدو الله Hamidullah) .
- ٤ - « للرجال سلطة على النساء » . (بوباكيور ، وماسون ، Boubakeur & Masson وترجمة سودانية رسمية) .
- ٥ - « للرجال حق الرقابة على النساء » . (ماتسيه Mazigh) .
- ٦ - « يتقدم الرجال النساء فى المسئولية » . (رسول Rassaul) .
- ٧ - « للرجال منزلة أعلى من منزلة النساء » . (جولد سميث Goldschmidt) .
- ٨ - « الرجال أعلى من النساء » . (باريت Paret) .
- ٩ - « الرجال متفوقون على النساء » . (هيننج Henning) .
- ١٠ - « الرجال مسئولون عن النساء » . (م . على M. Ali) .

تؤدى كل هذه المعانى والتفسيرات فى نهاية الأمر إلى نتيجة مفادها أن الرجل رئيس زوجته .

وحمداً لله ، أن النص العربى «الرجال قوامون على النساء» لا يحمل المعنى المشار إليه ، ولا الدلالات التى سبق لى أن أوردتها . فهذه الكلمات الأربع تعنى ، بموضوعية وبدون انحياز للرجال ، أن الرجال مسئولون عن رعاية النساء والقيام بشئونهن . وهى تعنى ذلك ، كما يتبين من بقية نص الآية ، لأن الرجل مسئول عن صيانة زوجته ، باعتبار أنه قد يكون الأقوى جسدياً ومالياً . فإذا كانت هى الأقوى جسدياً أو مالياً ، لا يجوز له أن يفرض حمايته عليها .

هذه ليست الحالة الوحيدة التى وكيف فيها الرجال فهمهم للقرآن ، وفقاً لممارساتهم وسلوكهم فى الواقع ، بدلا من تكيفه لأحكام القرآن الودودة تجاه النساء والرفيقة بهن . استلقت عبد الله بوريك ، رئيس جمعية المسلمين الألمان ، وفتحى عثمان عالم

الإسلاميات المصرية (لوس أنجلوس) ، الانتباه إلى أنني لست الوحيد الذى يدعو إلى تغيير الفهم الخاطئ لهذه الفقرة القرآنية المثيرة للجدل . ولقد بدأ المرء فى العالم الأنجلو ساكسونى بالفعل فى تغيير مفهومها على النحو التالى :

١ - « ينبغى على الرجال أن يعنوا عناية كاملة بالنساء » . (أسد Asad) .

٢ - « ينبغى على الرجال أن يدعموا ويسندوا النساء » (إرفينج Irving) .

٣ - « الرجال حماة وكفلاء النساء » . (على Y . Ali) .

٤ - « الرجال يعولون النساء » . (بيرك Bergue) .

٥ - « الرجال وكلاء ومسئولون عن النساء » . (خورى Khoury) .

إن علينا إذن أن نضع حدا لتصور أن الرجل يتمتع من حيث المبدأ بوضع متميز بالنسبة لوضع المرأة . ومع ذلك ، تبقى هناك حالة واحدة لا غنى للمرأة فيها عن حماية رجل ، وهى الحج . إذ ينبغى عليها فى جميع الأحوال أن تكون مصحوبة بـ « مُحَرَّم » زوجها ، أو أى من الأشخاص المذكور « المُحَرَّم » عليها الزواج بهم . فليس من الضروري أن يصحبها زوجها فحسب ، وإنما يمكن أن يصحبها والدها أو أحد أشقائها ، طالما أنهم مسلمون .

وهذا أمر يسبب متاعب كثيرة للسلطات السعودية ، لأنه يوجد فى القرن العشرين ما كان من النادر أن يوجد فى القرن السابع ، وهو وجود مسلمات وحيدات (غير متزوجات) ، لا يوجد بين أفراد أسرهن مسلم آخر غيرهن . ومن بين هؤلاء ، مسلمات ألمانيات عرفن الطريق إلى الإسلام بمفردهن ، ويسعين إلى أداء فريضة الحج سنة بعد أخرى ، غير أنهم لا يستطيعون بلوغ غايتهم بسبب عدم وجود محرم . (تفاضت السفارة السعودية فى بون مرة واحدة عن شرط مصاحبة محرم فى حالة مسلمة حديثة الدخول فى الإسلام ، كانت أرملة عمرها ٨٠ عاما) .

وهناك بطبيعة الحال من يلجأ ، فى سبيل أداء فريضة الحج ، إلى عقد قران حسب الشريعة الإسلامية ، كمنخرج من مشكلة المحرم ، ولكنه قد لا يكون مسبوقا بزواج رسمى ، فيترتب على ذلك تعارض مع القانون ، لا يلبث أن ينهى الزواج الوهمى (الشرعى) ما لم يسبقه زواج رسمى .

وعلى الرغم من هذه الحماية المقامة على المرأة ، أو لعله بسببها ، فإن حياة الأسر المسلمة ليست أقل هدوءا ووداعة من حياة الأسر الألمانية . وكثيرا ما يكون للنساء ، وبصفة خاصة

لأم الزوج ، الكلمة العليا (والكلمة الأخيرة) . فظاهرة خضوع الرجال لزوجاتهم ظاهرة عالمية .

هناك بطبيعة الحال حالات اعتداء بالضرب على النساء ، وبصفة خاصة من أزواج مخمورين ، ولكنها لاتزيد على حالات ضرب الأزواج لزوجاتهم في أوروبا ، إن لم تكن أقل منها بسبب الاختلاف بين أوروبا والعالم الإسلامى فيما يختص بمدى انتشار تناول الخمر . فالعنف الذى يمارس ضد المرأة في الأسرة الإسلامية لا يرجع إذن إلى أصول في الشريعة الإسلامية ، تماما كما أن دور إيواء النساء ، اللاتى يتعرضن للإيذاء البدنى من جانب أزواجهن ، ومعهن أطفالهن ، لا تستند إلى أصول في الديانة المسيحية .

يوسفنى أننى اضطررت إلى هدم هذا الحكم المسبق على الإسلام من جانب الأوربيين ، خصوصا وأننى أدرك مدى ما نشعر به من ارتياح عندما نستنكر أخلاقيات قوم آخرين . ولكن لماذا ينبغى أن يكون الإسلام هو كبش الفداء ؟! أليس هناك غيره ؟!

إذا نظرنا إلى تحقيق المرأة لذاتها في مجال العمل المهنى ، فسرى أن الوضع في معظم البلدان الإسلامية يبعث على التفاؤل . فعملية محو الأمية بين الفتيات تتقدم بخطى واثقة وناجحة ، وإن تكن بطيئة إلى حد ما بسبب ما تلقاه من معارضة من جانب بعض الأسر . وترتفع نسبة الأكاديميات في بلدان مثل تركيا ، والمغرب ، ولبنان ، وسوريا ، ومصر بالمقارنة بنسبتهن في السعودية ، واليمن وبلدان الخليج . وتتساوى أعداد الطبيبات ، والمحاميات ، والصحفيات ، والكاتبات ، وأستاذات الجامعات في تركيا مع مثيلاتها في كل من مصر والمغرب . وتسمح هذه البلدان ، ومعها أيضا الإمارات العربية المتحدة ، بانضمام الفتيات بها إلى قواتها المسلحة .

وتتولى المرأة في البلدان الإسلامية رئاسة الحكومة . فهناك تانسو تشيلير ، وبنظير بوتو . وفى اعتقادى أنه ما يزال أمام ألمانيا المتحررة طريق طويل قبل أن تصل المرأة فيها إلى رئاسة الحكومة . ولكن تشابه أوروبا والعالم الإسلامى في الانخفاض الشديد في أعداد النائبات البرلمانيات . ويرجع ذلك إلى ضعف إقبال النساء على انتخاب نساء لعضوية البرلمان . ومن ثم ، فإنهن يساعدن على استمرار توزيع الأدوار في هذا المجال على حاله (لم تدخل المرأة البرلمان في المغرب حتى عام ١٩٩٣ الذى انتخبت فيه امرأتان لعضويته) .

فما عدا محكمة الأحداث ، ما يزال شغل منصب القاضى مجالا مغلقا في وجه المرأة . وتقتصر على الرجال ممارسة النشاطات المتصلة بتنفيذ أحكام دينية ، مثل النشاطات التى

يمارسها الخليفة والإمام والمؤذن والقاضى . وهذا أمر لا يختلف فيه وجهة النظر الإسلامية عن كل من وجهة النظر الكاثوليكية والأرثوذكسية ، واليهودية . وليس ثمة أمل فى أن يتغير هذا الوضع قريبا .

لا تقوم المرأة بدور فى الحياة العامة ، فى البلاد الإسلامية كلها . ففى السعودية ، لا يجوز للمرأة أن تقود سيارة ، ولا أن تعمل مذيعة تلفزيونية ، ناهيك عن أن طالبات الجامعة يتابعن أساتذتهن من خلال شاشة تلفزيونية . وتختلف هذه الطريقة فى حجب المرأة عن الطريقة المتبعة للفصل بين الجنسين عقب انتهاء حفلات العشاء الرسمية المختلطة ، على نحو ما يجرى فى العالم الإسلامى وفى بريطانيا . فعادة ما يتجه الرجال إلى صالون (يسمى فى التركية سلملك) ، بينما يتجه النساء إلى صالون آخر (حرملك) . ولا يجرى هذا الفصل بدوافع دينية ، وإنما لأسباب عملية ، إذ غالبا ما تكون الموضوعات التى يدور حولها حديث أحد الجنسين غير شائقة للجنس الآخر .

إننى لا أوافق بحال من الأحوال على معاملة الرجل لزوجته كما لو أنها طفلة ، كما هو الحال عند البوظابيتين بالجزائر الذين يرون أن اهتمامات المرأة تنحصر فى المطبخ ، والأطفال ، والمستشفى ، والملابس ، والمجوهرات . ولقد تناقشت فى هذا الأمر مع مثقفين ، ذوى ثقافة عالية ، متسائلا : كيف يرضى الرجل بزوجة مثل الطفلة ؟ وكانت الإجابة التى تلقيتها مذهلة ، إذ قالوا : إن المرء منا لا يقضى فى نهاية الأمر أوقاتا طويلة مع زوجته !

ويستند السعوديون فى الفصل بين الجنسين إلى تفسير فيه غلو لبعض من آيات القرآن ، من بينها آيات الحجاب أرقام ٣١ و ٣٣ و ٥٣ و ٥٩ من سورة النور . لكن يتبين من القراءة الصحيحة لهذه الآيات أن بعض أحكامها لا تخص نساء المسلمين عامة ، وإنما تخص نساء النبى ﷺ فقط . وفى الأحوال كافة ، لا تدعو هذه الآيات إلى الفصل التام بين الجنسين ، أو إلى حجب المرأة حجباً تاماً^(٤٩) . ومن ثم ، فإنه يترتب على الاختلافات المذهبية ، إلى جانب اختلاف المقومات الحضارية ، اختلافات فى ملابس المرأة المسلمة من بلد إسلامى إلى آخر ، ومن جماعة مسلمة إلى أخرى . فملابس المرأة المسلمة تختلف فى إندونيسيا عنها فى باكستان ، وفى الأناضول ، وفى جنوبى الجزائر .

تستطيع العين المجردة أن تميز خطين فاصلين فى العالم الإسلامى . يفصل الخط الأول منهما بين المرأة التى تغطى شعرها ، والمرأة التى تكشف عنه . وبناء على طلب من الملك محمد الخامس ، خلعت إحدى قريباته غطاء رأسها على نحو يكاد يكون استعراضيا . ومنذ ذلك الحين ، تكشف النساء فى المغرب شعورهن فى معظم الأحوال . وترتفع نسبة النساء اللاتى يكشفن رؤوسهن فى المدن الكبرى بالجزائر ومصر والأردن وسوريا وتركيا .

وفصل الخط الثانى بين المرأة التى تغطى رأسها فقط ، وتلك التى تغطى وجهها بالإضافة إلى رأسها . فما يزال المرء يصادف حتى الآن في بعض البلدان الإسلامية حجاب الوجه ، فإياه بشكل فردى ، وعلى نحو متراجع ، في المغرب ، وإسطنبول ، ودبي ، وغيرها . وليس لحجب الوجه من سند في القرآن . بل إنه من غير المسموح للمرأة أن تغطى وجهها في الحج .

بعد أن أدينا العمرة في عام ١٩٨٢ ، اضطرت زوجتى إلى حجب وجهها خلف أربع طبقات من نسيج شفاف . وعلى الرغم مما يترتب على ذلك من إعاقة لحركة السير ، فإن زوجتى قد وجدته أمرا عمليا ، حيث إنه يمكنها من الخروج في أى وقت دون أن تكون في حاجة إلى تصفيف شعرها ، أو إلى وضع مساحيق على وجهها . (لهذا السبب ، يفضل بعض النساء في الغرب أيضا تغطية الرأس بإيشارب ، ووضع نظارة شمس داكنة على العينين) .

لم يعد وضع الحجاب في السعودية ، بعد ما يعرف بحرب الخليج الثانية ، كما كان قبلها . فلقد أدى وجود الآلاف من الكويتيات السافرات ، اللاتي فررن من الحرب ، في جدة إلى تحول في موقف النساء السعوديات بها من الحجاب ، حيث أقلن عن ارتدائه .

إن من يرغب الآن في رؤية حجاب مبالغ فيه ، عليه بالذهاب إلى اليمن ، حيث ما يزال بعض النساء يرتدين أقنعة مصنوعة من الجلد ، أو إلى جنوبى الجزائر في ميزاب ، حيث لا يظهر من المرأة سوى عين واحدة ، وإذا رآها رجل أدارت وجهها نحو الحائط .

من الخطأ ، أن يتصور البعض أن ارتداء الملابس الإسلامية المحتشمة ، بما في ذلك ارتداء غطاء للرأس ، أمر يفرضه على النساء أزواج غيورون . . فمن ترتدى الحجاب ، إنما ترتديه ابتغاء مرضاة الله وفي طاعته ، ولكى يعرف عنها الاحتشام والوقار . والمسلمات الألمانيات خير دليل على ذلك . فالكثير منهن اهتدين إلى الإسلام بمفردهن ، ودون أن يكون في أسرهن رجل واحد مسلم . ولكنهن يتعرضن مع ذلك لمضايقات في الحياة العامة ، إذ يتندر عليهن البعض بسبب ما يرتدين من ثياب ، أو ينظر إليهن بعين ملؤها الشك .

وعلى الرغم مما تجلبه الملابس الإسلامية من مضايقات للمسلمات الألمانيات ، فإن لها مزايا أو إيجابيات ، إذ إنها ترشد إلى دينهن ، فيتعرف عليهن من يريد أن يحاورهن حول الإسلام ، وهو ما يرحبن به لتأكيد إيمانهن . ناهيك عن أن الكثيرات منهن يرتحن إلى حماية ملابسهن لهن من الظهور كسلعة في سوق الشهوات .

ولقد أبدت الغالبية من أخواتى المسلمات إعجابهن بكتابى : « الإسلام كبديل » ، ولكن ساءهن فيه نقطة واحدة ، عبرت فيها عن انحيازى للرأى القائل بأن غطاء الرأس يصبح ضروريا فقط عندما يؤدى كشفه إلى إحداث إثارة جنسية (ص ١٨٠) . وفى يوليو عام ١٩٩٣ ، تلقيت دعوة من بعض المسلمات الألمانية ، فى بيت الإسلام لیتسيلباخ ، ليعبرن لى فى جو يسوده الود والصدافة عن خيبة أملهن بسبب ما أعلنته من انحياز للرأى المشار إليه . وعلى أى حال ، فإننى أتمنى ألا يجد القارئ صعوبة فى أن يعترف بأن الإسلام أغنى وأعمق من مجرد غطاء رأس المرأة .

* * *

من الأمور التى لا يجوز أن توجد فى العالم الإسلامى ، مسألة وجود أطفال غير شرعيين . ولا يمكن تبرير وجود هؤلاء الأطفال باستهجان الإسلام تنظيم النسل ، واستخدام وسائل منع الحمل ؛ فهناك كثير من خطباء المساجد يؤيدون تنظيم النسل ، ويدعون المؤمنين إلى مراعاة واجبهم نحو المجتمع ، مع أخذ خطر الانفجار السكانى فى العالم بعين الاعتبار . ولكن من المرجح ، أن كثيرين من المستمعين ، الذين ينظرون إلى الأطفال كضمان وعنصر أمان لهم فى شيخوختهم ، يتحدثون أنفسهم قائلين : دع الإمام يخطب ، ودعك منه . وهو على النقيض تماما مما يحدث فى الكنائس الكاثوليكية ، عندما يصب الكاهن جام غضبه على تنظيم النسل ، إذ يتحدث الكثيرون من المؤمنين أنفسهم قائلين : دع الكاهن يتحدث .

يمنع الإسلام التدخل لإنهاء حمل حدث بالفعل ، حتى لو كان الحمل سفاحا . فالغالبية من علماء المسلمين ، ينظرون إلى الإجهاض على أنه جريمة ضد الحياة . . جريمة قتل لإنسان لا يستطيع الدفاع عن نفسه . وكان البعض قد اعتنق الرأى الذى يقول بالسماح بالإجهاض حتى نهاية الشهر الرابع ، أى حتى تبعث الروح فى الجنين . ولكن هذا الرأى فقد حجته تماما ، وهو ما أعلنه بصراحة وفى وضوح تامين المؤتمر الدولى للسكان والتنمية الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر عام ١٩٩٤ .

لا يعطى الإسلام اسما ولا حقوقا للأطفال غير الشرعيين ، لأنهم غير متوقعين بحسب مبادئه وقيمه . ولذلك ، يجد الطفل غير الشرعى نفسه فى موقف شديد السوء ، ما لم يعالج والده الأمر ويعترف به ، ويضمه إلى أسرته ، بدلا من التخلي عنه ونبذه .

وتعود مشكلة الأطفال غير الشرعيين فى الإسلام إلى نهيه عن التبني . فليس من حق الوالدين ، أن يتنازلا نهائيا عن نسب طفلها إليهما . وليس من حق الأم لطفل غير شرعى ،

أن تتنازل نهائيا عن حقها في الأمومة . ومن ثم ، فإن أحدا لا يستطيع تبني طفل غير شرعى ولكنه يستطيع رعايته فقط . وهذه الرعاية أمر يمكن الرجوع عنه في أى وقت . وتؤكد واقعة زواج الرسول ﷺ من مُطَلَّقة ابنه بالتبني على أن التبني ليس أساسا أو ركيزة لعلاقة قرى .

ومن وجهة نظر إسلامية ، يتعرض الأطفال بالتبني لصدمة لا داعى لها ، تسبب لهم جرحا لا يندمل ، عندما يكتشفون - وهو أمر لا مفر منه في يوم من الأيام - أنهم ليسوا أبناء شرعيين حقيقيين لمن يدعونهم والديهم . ناهيك عن أن التبني يضر بطرف ثالث ، هو من له الحق في إرث المتبني ، إذ يأتى الابن بالتبني ليشاركه إرثه ، دون الرجوع إليه ، والحصول على موافقته وأخيرا ، يعبر التبني عن تدخل غير طبعى في شجرة عائلة ، فضلا عن أنه مظهر لتدخل في مشيئة الله وقدره .

لا يأخذ الأزواج الألمان والفرنسيون والإيطاليون الذين لا ينجبون أطفالا ، ذلك كله في الاعتبار ، عندما يأتون إلى المغرب لتبني أحد الأطفال الأيتام . وإنما يتحولون لبضع ساعات إلى مسلمين بالاسم فقط ، حتى يستطيعوا الحصول على طفل لتبنيه . ولا يجد القضاة ، المسئولون عن عملية الوصاية ، حرجا في تحويل عقد إسلامى ينص على رعاية الطفل إلى عقد تبني نافذ ، مع علمهم بأن هذا العقد الأخير غير مقبول ولا يعمل به في موطن الطفل الأصل . ويجرى في هذه العملية تجاهل القانون الإسلامى تماما ، بدعوى « مصلحة الطفل » ! ويجرى تبني طفل أجنبى في ألمانيا حسب القانون الألمانى ، استنادا إلى المادة (٢٣) من القانون BGB . ولا يشعر القضاة حيال ذلك بوازع من ضمير . توهماً منهم بأن صالح كل طفل يكمن في إنقاذه من الإسلام !!

لست أجد لهذا الموقف من تسمية تناسبه غير « إمبريالية ثقافية » .

لا يقع الطلاق بسبب وجود علاقة لأحد الزوجين خارج إطار العلاقة الزوجية فقط . فأحيانا ما يكون سوء حظ الزوجة متمثلا في عدم إنجابها أطفالا بصفة عامة ، أو عدم إنجابها أطفالا ذكورا بصفة خاصة ، مما يعد سببا كافيا لوقوع الطلاق . ويمكن أن يقع الطلاق من جانب واحد وبدون سبب جوهري . ولا يمنع من حدوث ذلك ضرورة أن يُلقَى يمين الطلاق ثلاث مرات متفرقات . ولقد رأيت مسلمات يشغلن وظائف مرموقة يعشن لهذا السبب في خوف دائم من أن يستيقظن يوما ليجدن أنفسهن مطلقات ، وربما لا يعلمن بطلاقهن إلا من خلال طرف ثالث (ولقد ألغى قانون الأسرة المغاربى لعام ١٩٩٣ إعلان المرأة بالطلاق من خلال طرف ثالث ، لعدم وجود سند له في القرآن) .

لم يقترب القانون الألماني التقدمي من هذه النقطة ، وهى إمكانية إنهاء الزواج ، أى الطلاق ، من طرف واحد ، وذلك دون أسباب قطعية . فوفقا للمادة ١٥٦٥ من القانون BGB ، يكفى أن يرفض أحد أطراف العلاقة الزوجية الفقرة ١٥٦٧ ، وإن امتدت مهلة إنهاء الزواج إلى ٣٦٥ يوما .

ويستطيع الرجل إنهاء الزواج من جانبه وتسجيله فقط . أما إذا أرادت المرأة الطلاق ، فإنها تتقدم إلى المحكمة بطلب الطلاق ، إذا لم يوافق الزوج على الطلاق من تلقاء نفسه ، ولا تطلق نفسها لأسباب مالية . فالزوج الذى يطلق زوجته يفقد كل حقوقه فى استرداد المهر الذى يكون قد دفعه لها ، بل ويؤدى إليها مؤخر الصداق . ومن ثم ، إذا أعطيت المرأة حق تطليق نفسها دون الرجوع إلى قاض ، فإن ذلك قد يؤدى إلى إغراء النساء بإقامة علاقات زواج بنية إنهاؤها بعد فترة لأغراض مالية .

التقيت رجلا مسلما من البوسنة فى أحد لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية ، فوجدته شديد التعاسة والاكتئاب ، لأن زوجته الكرواتية تخلت عن إيمانها بالله ، ومن ثم فعليه طلاقها . وتعرض الزوجات الكتائيات لأزواج مسلمين إلى ضرر بالغ إذا طلقن ، إذ لا حق لهن فى إرث أزواجهن ، ناهيك عن فقدانهن الحق فى رعاية أطفالهن . ولا يدري أحد كم من الزوجات الألمانيات لأزواج مسلمين اعتنقن الإسلام لهذه الأسباب . ولقد تحول بعضهن إلى مسلمات حقيقيات بفضل الحياة فى أسرة مسلمة ، وما تتركه من آثار فيهن ، بينمابقى بعضهن الآخر مسلمات بالاسم فقط .

لم أصادف حتى الآن حالة انتهى فيها زواج إسلامى بسبب الشذوذ الجنسى لأى من الزوج أو الزوجة ، وإن كنت قد صادفت حالة امتنعت فيها امرأة ذات مكانة مرموقة عن الزواج لهذا السبب . ويستلقت الامتناع عن الزواج الأنظار ، لأن الزواج واجب دينى على كل قادر عليه . ولقد نهى القرآن عن العلاقات الجنسية الشاذة ، ومع ذلك فإن لهذه العلاقات وجودا لا يستهان به فى العالم الإسلامى . ولست مبالغا إذا قلت : إنه لا يوجد مكان آخر به ذلك القدر من التسامح حيال الشذوذ الجنسى الذى يوجد بالمغرب . وربما يفسر ذلك حضور كثير من الفنانين الشواذ أو المخنثين الأمريكيين ، أمثال : تنسى ويليامز ، وترومان كابوت ، وويليام بوردرز إلى طنجة والعيش فيها - عندما كانت ما تزال منطقة دولية - أو الذين قضوا بقية حياتهم فيها مثل شارلز وجين بولس . وتجذب طنجة حتى اليوم الكثير من السياح الشواذ جنسيا .

فى ختام هذا الفصل ، يثور السؤال حول تحرر المرأة . والإجابة عن هذا السؤال ليست بالأمر اليسير ، خاصة وأن الظروف تختلف من بلد إلى آخر . لكن لا ينبغي أن ينخدع المرء

بنماذج تقدم نفسها للعالم الغربي على أنها ممثلة للاتجاه النسائي في بلادها ، من أمثال فاطمة مرنيس التى تحظى في الغرب بالترحيب ، وبمكانة قيمة كبيرتين ، في حين أنها لا تعنى في بلدها ، المغرب ، شيئا . فالمرأة المسلمة ليست في حاجة إلى حركة تحرر . فهى ، بالنظر إلى موقفها من الله ، متساوية مع الرجل . . . عليها ما عليه من واجبات وفروض : الصلاة والصوم والزكاة والحج ، ولها نفس ما له من وعد في حياة ما بعد الموت . وإلى جانب ذلك ، تتساوى المرأة المسلمة في حقيقة الأمر مع الرجل المسلم في الحقوق المدنية والإنسانية . وليس لزوجها على وجه الخصوص الحق في التصرف في أملاكها الخاصة . ولا تفقد المرأة المسلمة بعد زواجها اسم أسرتها لصالح اسم أسرة الزوج ، وإنما تحتفظ به حتى نهاية عمرها . واحتفاظ المرأة المسلمة بهذا الحق على وجه الخصوص ، يوقعها في مشكلة عندما تسافر إلى بلد أوروبى ، حيث يصعب على رجال الحدود فيه إدراك كيف أن طفلها الشرعى الذى بصحبتها يحمل اسما غير اسمها .

إلى جانب ذلك ، فهناك بعض الاختلافات بين المرأة المسلمة والرجل المسلم ، لا تشعر حياتها بالتمييز ضدها ، أو بظلم يقع عليها ، لأنها اختلافات ترجع إلى معطيات معينة . فهى حين تراث أقل من أخيها ، لا يكون واقعا عليها ظلم ، ولا يكون ذلك خرقا لمبدأ المساواة بينهما ، لأن هذا الأخ هو وحده المسئول عن رعاية أسرته ، بينما لا تتكفل هى بشيء من الإنفاق على أسرتها ، بل ولا بنفقتها الشخصية عندما تتزوج . وترضى المسلمة بأن تكون لها الكلمة العليا فيما يتعلق بشئون الأطفال صغار السن ، بينما يكون لزوجها الكلمة العليا فيما يختص بشئون أطفالها الأكبر سنا .

هكذا ، يضيق نطاق تساؤلنا لنصل إلى السؤال الذى طرحناه في بادئ الأمر ، وهو : هل تتساوى فرص عمل المرأة مع فرص عمل الرجل (في غير ما يتعلق بالأعمال الدينية) ؟ وإجابتي عن هذا السؤال هى : لا أعلم . وأنا لا أستطيع أن أعلم ، لأن غالبية المسلمات لا يبحثن عن سعادتهن في محاكاة الرجال . فهن ، مثلهن في ذلك مثل كثيرات من الأوربيات ، لا يرغبن في العمل كسائقات شاحنات أو سيارات أجرة ، أو كقائدات طائرات أو شرطيات ، وإنما يتمسكن بدورهن المحدد في الأسرة . ولا يرجع ذلك إلى غياب « الوعى السليم » ، وإنما إلى اقتناعهن بأن النساء اللاتى يقدن أمثلة ونماذج للمرأة المتحررة في الغرب يشعرون بالندم ، لأنهن تجاهلن الأسرة والأمومة ، وما يعنيه ذلك من أنه قد فاتهن أن يحققن بالكامل حقيقة وجوه المرأة .

محمل القول ، إنه ليس هناك الكثير مما يمكن قوله بصدد فرص العمل للمرأة المسلمة ،

لأنها ترى أن مستقبلها يكمن في كونها امرأة توظف كل مقوماتها وخصائصها (ولا أقول أسلحتها) في تحقيق أهدافها ، في ظل الاعتراف بوجود علاقة قطباها : المرأة والرجل .
ويبقى أننى عندما أحدث زوجتى عن نشاطات وإنجازات إحدى بطلات الاتجاه النسائى (المغالى في دعوته إلى المساواة بين الرجل والمرأة) البارزات ، فإن رد فعلها يحىء عبر سؤال ساخر مستفز : هل هى جميلة ؟

الفصل العاشر إنسانية باردة كالجليد

لماذا إسطنبول بالذات؟!

ألا يصل إلى هذه المدينة سنويا حوالى نصف مليون مهاجر من الأناضول ، والبوسنة ، وبلغاريا ، ومقدونيا وألبانيا؟ إن هذا العدد يفوق ما استقبلته ألمانيا عام ١٩٩٢ من لاجئين سياسيين و مهاجرين . ومع ذلك ، فإنه لا يتسبب في إحداث أزمة دستورية ، أو أزمة وزارية في تركيا ، ولا تندلع بسببه حرب أهلية في إسطنبول .

ألا تصل نسبة تلوث الهواء في هذه المدينة إلى ١٠٠٠ مجم من ثانى أكسيد الكربون في كل متر مكعب ، حتى إنها تتسبب في التهاب العيون والرقاب؟!

ألم يحاول المرء مرارا أن يقنع المواطنين المشككين في جدوى إدخال الغاز الطبيعى بدلا من اللجوء إلى الجهات الحكومية؟!

ماذا عن هجمات الانفصاليين الأكراد؟ وماذا عن التضخم المطرد؟ ألا يزداد التأييد الذى يحظى به الحزب الإسلامى يوما بعد يوم؟!

ألا ينقطع التيار الكهربائى يوميا لفترة؟

ألا تنقطع المياه باستمرار؟

نعم . . إنها بالقطع مدينة غير محتملة . . ولكن ذلك كله لا يعنى شيئا بالنظر إلى نبضها بالحياة ، وإلى جمالها الذى يخلب الأبواب ، بموقعها الساحر، وتراثها المعمارى الجميل الممتد إلى ١٧٠٠ عام مضت، والذى لم يُشَوَّه بعد . إنه جمال لا يباريها فيه أى من هونج كونج ، وسان فرانسيسكو، وباريس، وكوبنهاجن ، وروما، ولشبونة . ناهيك عن أنها كانت حاضرة الخلافة لمدة ٤٠٠ عام من عام ١٥١٧ إلى عام ١٩٢٤ .

ألد أنواع الأرز على الإطلاق . وبعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر، اتصل بنا في بون أحد الأتراك المقيمين في كولونيا، ولم يكن معروفا لنا، ليلغنا أنه صديق لمالك الحانوت الذى نتعامل معه في إسطنبول، وأنه قد أحضر لنا كيلوجرامين من الأرز، فمتى يستطيع أن يحضرهما إلينا؟ أى تعاون هذا الذى نرى ؟!

بدلا من البوابين مقطبى الجبين في باريس، يعمل في حراسة المنازل بتركيا نساء يجلسن أمام المنازل، يتجاذبن أطراف الحديث، ويشاهدن الأطفال وهم يلعبون على غرار ما يجرى في قرية أناضولية . . . أى دفاع إنسانى هذا الذى يجرى ؟!

تستمع زوجتى بعملية الشراء هنا، بسبب شفافية السوق أمامها، وقربه من مسكننا . فلا يكاد المرء يسير لمدة ٤ دقائق، حتى يجد أمامه سبعة من محلات تصفيف الشعر، وسبعة من محلات البقالة، وسبعة من محلات الأجهزة والأدوات الكهربائية، وستة بنوك، وأربعة محلات جزارة . ولا يستطيع أحد أن يغامر برفع الأسعار أو بعرض البضائع أو أن يتلاعب بالأسعار دون أن يفلت من العقاب . والفصل هنا، هو جودة الخدمات المقدمة للمشتري .

ولقد شهدت بنفسى في ٢٢ من يولية عام ١٩٨٠ دليلا، كأبلغ ما يكون الدليل، على علاقة الإخاء التى تحكم نظام المنافسة هنا في البازار المعلق في إسطنبول . فلقد وقفنا أمام واجهة عرض (فاترينة) أحد المحلات المعلقة ، وقد بدا علينا إعجابنا الشديد بالمعروضات بها، وإذا بهالك المحل المجاور يأتى إلينا مثنيا على معروضات جاره المنافس له ، بدلا من أن يدعونا إلى محله هو . . . أى فارق بين هذا السلوك، والسلوك أو المنهج الأمريكى في المنافسة، الذى يبيح بلوغ المنافسة حد العنف أو حتى القتل ؟!

أصابتنى الدهشة أيضا عندما كنت عائدا يوم ٢ من أكتوبر عام ١٩٩٥ من المطار إلى منزلى، مستقلا سيارة أجرة . فعندما دفعت إلى سائق السيارة بمقدار من النقود، يساوى ما يشير إليه مؤشر العداد، وكان يزيد قليلا عما هو معتاد لهذه المسافة، وجدته يرد إلى جزءا من النقود قائلا: إنه يشعر أن العداد لا يعمل بصورة سليمة . . . أى إخاء هذا الذى يعبر عنه سلوك السائق ؟!

ويسرى مبدأ شفافية السوق حتى في المحلات التى تتعامل في مستلزمات الزفاف . فهناك شارع متخصص في التعامل في هذه المستلزمات، يقع في أحد الأحياء المتطرفة Begilar، تصطف به محلات تصفيف الشعر وملابس الزفاف ومستلزماته الأخرى . وبه أيضا مبان مكونة من عدة طوابق، بكل طابق منها قاعة احتفالات . وفي حالات كثيرة،

يأخذ الاحتفال طابعا جماعيا، ويجرى في أكثر من قاعة . فالناس هنا لا ينعزلون، لا في الفرح، ولا في الحزن، (فمن الطبيعي هنا أن يوجد أفراد الأسرة والأصدقاء في منزل المتوفي لمدة أربعين يوما بعد وفاته للصلاة على روحه ولتقديم واجب العزاء لأسرته) .

عرفنا طريقنا إلى سوق الزفاف الغريب المشار إليه، تلبية لدعوات لحضور حفلات زفاف بعض الأقارب الفقراء، الذين تربطنا بهم صلة قريى من بعيد . وكانت الدعوة توجه إلينا، لما تفرضه صلة القربى في العالم الإسلامى من التزامات . وكنا نلبي الدعوة، لأنه لا ترفض في العالم الإسلامى دعوة إلى حضور حفل زفاف، حتى إذا ما كانت الرحلة إلى مكان الاحتفال تستغرق ساعة ونصف الساعة، وحتى إذا ما كان على المرء أن يصعد سبعة طوابق بصحبة حماة تبلغ من العمر ٨٠ عاما . . فأى ترابط عائلى هذا الذى يربط الناس هنا؟!

لكل ما سلفت الإشارة إليه، لا بد للمرء من أن يدرك لماذا تقشعر أبداننا، زوجتى وأنا، من برودة العلاقات الإنسانية في ألمانيا، حتى لو كان الجو صيفا شديدا الحرارة . ويشاركنا آخرون هذا الشعور نفسه .

فقد أعرب المستشار هيلموت كول، في حديث له إلى التلفزيون الألماني يزم ١٦ من أكتوبر عام ١٩٩٤، عن مخاوفه وهمومه الشديدة، لأن الألمان صاروا اليوم أقل تعاونا عن ذى قبل . وبعد عام من ذلك التاريخ، حذر المستشار هيلموت كول أثناء مؤتمر الحزب الديمقراطى المسيحى المنعقد في كارلسروه يوم ١٦ من أكتوبر عام ١٩٩٥ من « الجو البارد غير الإنسانى على نحو لا يحتمل، والذى ينشأ عن كثرة وسائل الاتصال التى تمنع الناس من أن يتبادلوا الحوار في مواجهة بعضهم بعضا » .

والظاهرة معروفة . . فكل شىء يسير بالكاد في صمت، على نحو نزيه وفعال، في المجالات كافة . . الإدارة، والإنتاج، والمواصلات، ووسائل الاتصال، ورعاية المرضى، والفقراء . فنحن دولة نخضع فيها كل شىء للنظام، حتى تصنيف المخلفات .

وفي هذا المجتمع المبرمج، الخاضع لنظام (روتين) يتسم بالرتابة ومن ثم بالملل الشديد، لن يجد المرء سوى عنصر واحد لا يخضع لسيطرة أو تحكم كاملين، ومن ثم فإنه يمثل مصدر إزعاج . هذا العنصر هو الإنسان الذى لا بد من أن يقمع، ومن أن تتوفر إمكانات للاستغناء عنه، عن طريق ميكنة كل شىء، وإخضاع كل شىء للتحكم الآلى عن طريق الكمبيوتر . ولذلك، فالويل كل الويل لمن يتورط من الأفراد « المزعجين » في خلاف مع الإدارة أو الشرطة أو القانون . . ففى ألمانيا تخضع علاقة المواطن بالمسؤولين لأحكام القانون

أكثر منها لاعتبارات العدل . وعلى الرغم من وجود ظروف مخففة للعقوبات ، فإن خلاف الفرد مع النظام يتحول في الغالب إلى شكل من أشكال الصراع التي يحفل بها أدب كافكا . فالظروف المخففة للعقوبات ، والتي يتضمنها القانون ، ليست بديلا للقلوب المتحجرة . ولقد صاغ قدماء الرومان هذه الظاهرة في قولهم : « إن المغالاة في العدل تتحول في بعض الأحيان إلى ظلم شديد » .

إننى أبالغ في وصف عملية ، تتصف بالأنانية المفرطة ، وبالانعزالية الواضحة ، تتسلل ببطء لتأخذها مكانا في حياة المجتمع الألماني . فبينما تعنى كلمة تركى جمعا من الناس يعيش الفرد بينهم ، تعنى كلمة ألماني فردا يعيش وحيدا في عزلة عن الناس . فهنا يجري الفصل بين الجدود والأحفاد ، وإيداع الأول دأرا لرعاية المسنين . ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل إن الأمهات اللاتي يجدن في أنفسهن القدرة على رعاية أطفالهن بمفردهن ، ينتظرن إلى والد الأطفال على أنه « شىء » لا ضرورة له ، ويمكن الاستغناء عنه . فهل يدري أحد كيف سيواجه الشعب الألماني جيلا من الأطفال حرم عمدا من الوالد والأسرة ؟

في العالم الإسلامى ، كما في غيره ، يحكم القانون الموظفين الذين يخشون المقتش ، مثلهم في ذلك مثل أقرانهم في العالم أجمع . ومع ذلك ، فهناك دائما أمل في أن تحل مشكلة ما من منطلق إنسانى ، حتى وإن كان ذلك بمخالفة اللوائح . وهذا هو ما أعنيه ، عندما أقول : إن « الفساد » أداة تخفف من قسوة القوانين في الشرق . وأسوق هنا كمثال لذلك واقعة في أغسطس عام ١٩٩٤ :

فبعد الانتهاء من صلاة الجنازة في مسجد سليمان ، توجهنا إلى المقابر لحضور عملية الدفن . ولكننا تأخرنا حتى انتهى الموعد المحدد لعبور الطريق السريع المؤدى إلى معبر البوسفور على الجانب الآسيوى من إسطنبول . وكان أن توقفنا عند الشرطة طالبين مساعدتها في تمكيننا من تغيير مسارنا ، حتى نستطيع أن نلحق بموعد الدفن . ويعلم القارئ بطبيعة الحال ما حدث . وخلاصة القول إننا لحقنا بعملية الدفن في موعدها . وفى المقابل ، ما الذى كان يمكن للمرء أن يفعله ، لو أنه واجه موقفا مماثلا على طريق سريع في ألمانيا ؟ وماذا كان يمكن أن يسمع من الشرطة ، لو أنه طلب منها ما طلبناه من الشرطة في إسطنبول ؟ غالب الظن أنه ما كان يسمع شيئا على الإطلاق ، لأنه ما كان ليجرؤ على أن يطلب طلبا كالذى طلبناه !!

يبدو لى ، بالقياس على ذلك ، أن بعضا من أنشطتنا وأعمالنا « الإنسانية » لا مضمون لها . ويبدو لى أيضا أن بعضا مما يوصف بأنه اهتمامات والتزامات إنسانية ليس إلا أثرية بلا

مضمون . ذلك ، لأننى لا أستطيع أن أتخلص من الإحساس بأن كل هذا ليس أكثر من تلطيف وتخفيف إعلامى عن ضحايانا المعذبة .

أفلم يكن رفع الحظر عن توريد السلاح إلى مسلمى البوسنة ، ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم فى الحرب ، أكثر إنسانية من مجرد مساعدتهم على ألا يواجهوا العدو جوعاً؟ إننا نحميمهم من أن يموتوا جوعاً ، بدلا من أن نحميمهم من التطهير العرقى ، ومن المذابح الجماعية .

هل أبالغ فى ذلك ؟ كل صورة ترسم باللونين الأبيض والأسود ، إنما هى أشبه بالملصق . فالعالم لا ينقسم إلى أخير وأشرار فحسب . فالاتجاه السائد الذى تعرضت له اتجاه حقيقى ، وغير مبالغ فيه . وهو اتجاه يمثل ، من ناحية ، سببا ، ومن الناحية الأخرى ، نتيجة لما وصفه أولريخ فيكارد فى كتابه « ضياع القيم » (١٩٩٤) .

إننى أود أن أتعرض بالحديث لظاهرة السلوك الإنسانى للمسؤولين فى الشرق ، قبل أن يتهمنى أحد بأننى أزيّف صورة هذا السلوك « الإنسانى » ، الذى اعتبره مؤشرا لفساد منظم . فلقد رأيت ، أكثر من مرة ، مسؤولين فى الشرق يتخطون اللوائح بدافع من الشفقة فقط ، وليس بغرض الحصول على مقابل مادى . وإنه لمن القسوة بمكان ، أن ينظر إلى قبول « البقشيش » باعتباره فسادا ، فى ظل تدنى دخل المواطن إلى مستوى لا يكفى لإعاشته هو وأسرته . فالموظف الحكومى ، الذى يتقاضى راتبا شهريا يتراوح بين ٢٥٠ ماركا و ٤٠٠ مارك ، يعلم أن رئيسه يدرك - فى صمت - أنه يحسّن دخله من خلال الحصول على شيء ما ، لكى يستطيع أن يفى بالحاجات الضرورية لأسرته ، وأن يوفر لها الحد الأدنى من مستوى المعيشة .

لن أحاول شرح هذا الأمر نظريا ، لأن قصة زواجى من « بولبين » تشرحه على نحو أفضل . . . كانت جميع ترتيبات وإجراءات الزواج تتم تحت ضغط شديد من عنصر الوقت . فلم يكن أمامنا من الوقت متسع يتيح لكل شيء أن يسير على نحو روتينى . فلقد كنت أعمل حينذاك فى بلجراد . وكان من المقرر أن يعقد مؤتمر الأمن والتعاون فى أوروبا فى بلجراد يوم الثلاثاء ٣ من مايو عام ١٩٧٧ ، بعد انتهاء أعماله فى هلسنكى . وكُلِّفْتُ بأن أكون نائبا لرئيس الوفد الألمانى إلى هذا المؤتمر .

وكان لا بد ، لإتمام زواجى ، من الحصول على شهادة أهلية (صلاحية) للزواج من بون . وتبين لى أن حصولى على هذه الشهادة سيستغرق وقتا طويلا جدا ، مما يترتب عليه أن زواجنا لا يمكن أن يتم قبل يوم الاثنين ٢ من مايو ، أى اليوم الذى يسبق بدء عقد المؤتمر .

وصلت إلى إسطنبول في عطلة نهاية الأسبوع ، وكانت بوليين قد حصلت من السجل المدني في ميزاندا ، بعد دفع المطلوب ، على كل الأوراق الضرورية اللازمة لإتمام زواجنا يوم الاثنين ، في موعد غايته الساعة الثانية عشرة والربع ظهرا . وكان - وهنا تكمن المشكلة - من الضروري أن يتم قبل هذا الموعد ترجمة شهادة الأهلية للزواج من الألمانية إلى التركية ، والتصديق على الترجمة من القنصلية الألمانية في إسطنبول ، وتصديق حاكم إسطنبول . وإلى جانب ذلك ، كان لا بد من إجراء تحليل بشأن الأمراض التناسلية في المستشفى الألماني (حيث لا تقبل الرشوة) والتصديق على شهادة المستشفى بنتائج التحليل من السلطات الصحية في إسطنبول . وكان لا بد من أن يتم ذلك كله في ثلاث ساعات !

تضاءلت فرص نجاحنا في إتمام كل ما سلف ذكره ، عندما رأينا ، يوم الأحد أول مايو ، ميدان تقسيم وقد تحول إلى ساحة حرب من جراء المصادمات الدامية التي نشبت إثر تظاهرات سياسية . فما كان المرء ليرى في هذا الميدان سوى سيارات محترقة وبقع من دماء تلتطخ أسفلت الشوارع ، ونوافذ محطمة ، وغير ذلك من الآثار التي تنجم عن مثل هذه المصادمات . وفي هذا الميدان ، تقع مكاتب المسئولين الذين كان علينا أن نقصدهم لاستخراج جميع الأوراق آنفة الذكر .

وكان ثمة شك في أن يذهب المسئولون إلى مكاتبتهم في اليوم التالي ليوم عاصف عصيب كذاك اليوم . ومع ذلك ، رحنا صباح يوم الاثنين نلهث وراء استكمال الأوراق الناقصة . ولقد عوملت في القنصلية الألمانية كزميل ، حيث بدءوا في اتخاذ الإجراءات المطلوبة قبل موعد بدء العمل الرسمي . ولكننا اضطررنا في مقر بلدية إسطنبول على الطرف الآخر من القرن الذهبي إلى أن ندفع خمسة من الموظفين إلى العمل بدفع المطلوب إليهم . وقام أولهم بإثبات أوراقنا في دفتر اليومية ، وحصلنا من الثاني على دمغة ختمها الثالث ، وراجع الرابع كل هذا . أما الموظف الخامس ، الذي يقبع في طابق يعملو الطابق الذي يعمل فيه هؤلاء الأربعة بطابقين ، فقام بالتوقيع اعتيادا لما قاموا به من إجراءات .

تسرب اليأس إلى نفوسنا بسبب إصرار المستشفى الألماني على أن يسلمنا نتائج الفحوص بعد ساعتين ، وليس قبل ذلك . وفقدنا الأمل تماما في إمكانية إتمام الزواج في الموعد المحدد ، حتى إننا لم نجرؤ على تحديد موعد الزفاف في إعلان الزواج .

تسلمنا شهادة المستشفى في الساعة الحادية عشرة ، وبدأنا على الفور سباقا لاستكمال بقية الأوراق المطلوبة ، فتوجهنا إلى مكتب الصحة التركي للتصديق على هذه الشهادة . وهناك كان علينا أن نلهث مرتين صعودا إلى الطابق الخامس ، حيث استطعنا بعد دفع

المطلوب أن نحمل إحدى السكرتيرات على أن تترك العناية بأظافرها ، وأن نقنع سكرتيرا أن يختم لنا الشهادة . وبسبب ضيق الوقت ، تحتم علينا أن نتقل من مكتب الصحة إلى مكتب السجل المدني بسيارة أجرة ، على الرغم من أن المسافة بينهما لا تزيد على ٧٠٠ متر.

وعندما وقفت أمام موظف السجل المدني ، ذلك الرجل الذى بيده كل شىء ، كنا منهكى القوى ، وقد ابتلت ثيابنا من العرق . وكان من المفترض أن يتعاطف معنا بالنظر إلى وضعنا ، وبسبب توصيات كثير من الأصدقاء . ولكنه ، عندما راح يتصفح الأوراق ، توقف أكثر من مرة أمام تناقضات ومخالفات . فنحن لم نراع ، فى أكثر من حالة ، الفترة التى ينبغى أن تفصل بين إجراء وإجراء آخر ، كما لم يتوفر الإعلان عن رغبة الطرفين فى الزواج . وإلى جانب ذلك ، تغيب عن مراسم الزواج المترجم الذى تنص اللوائح على وجوده فى حالة زواج الأجانب .

بدأت الدموع تترقق فى عيني زوجة المستقبل . واعتقدت أنا ، بغباء الرجال ، أننا قد فشلنا فى بلوغ غايتنا اليوم . ولم يخطر ببالي على الإطلاق أن هذه الدموع هى دموع الفرح ، إذ كان الموظف قد أخبرها بالفعل بأن المراسم سيجرى إتمامها الآن وعلى الفور ، ثم أردف قائلا : « لو أنكما وقفتما أمام غيرى ، لكان عليكما أن تنتظرا لمدة ستة شهور أخرى » !!

هكذا تزوجنا ونحن نرتدى « الجينز والبلوفر » ، وشهدت سكرتيرات السجل المدني على عقد قراننا . وكنت أجيء عن أسئلة الموظف بالإيجاب أو النفي (نعم أولا) ، بفضل اتباع إشارات سبق الاتفاق عليها بيننا ، زوجتى وأنا ، وليس بفضل فهمى لما يقول . وانقضى ما تبقى من اليوم بعد ذلك بسرعة شديدة . فذهبت زوجتى إلى مصفف الشعر ، بينما تولت أخواتها دعوة الضيوف إلى حفل استقبال صغير .

وكانت ليلة الزفاف قصيرة ، إذ كان على أن أتوجه إلى المطار فى الساعة الخامسة صباحا ، حيث أقلعت طائرة ال JAT التى أستقلها فى تمام الساعة السابعة والربع ، لتصل إلى مطار بلجراد فى تمام الساعة السابعة والربع أيضا ، بسبب فرق فى التوقيت مقداره ساعة واحدة بين تركيا ويوغسلافيا . واستطعت بذلك أن أصل بسيارتى البورش الصغيرة إلى مقر المؤتمر فى نوفي يوجراد فى الساعة الثامنة والربع ، لأشترك فى محادثات الوفد الألمانى ، التى كان ، من المقرر أن تجرى ، فى الموعد الذى وصلت فيه ، قبل بدء المؤتمر . وفى نهاية المباحثات ، سأل السفير د . فيشر عما إذا كانت هناك إضافات تحت بند «ما يستجد من أعمال» ، فأجبت : نعم . . لقد تزوجت أمس فى إسطنبول !

يستطيع المرء أن يستنتج من هذه القصة أن الشرق مهياً لانتشار الرشوة على نحو غير قابل للعلاج . . . ألم أعترف بأننا ما كنا لتتزوج لولا ما دفعناه من بقشيش كثير ؟ ! ومع ذلك ، فهذه القصة تكشف عن بعد آخر مختلف . . إنها تبرز الصفة الإنسانية التي يتمتع بها في الشرق حتى البيروقراطية ذاتها ، كما تبرز أيضاً ذلك الدفء الذي يتعامل به الناس بعضهم مع بعض . وأياً ما كان الأمر ، فإننا نأمل ألا تفضل ألمانيا الطريق إلى هذا الدفء على نحو قاطع لا رجعة فيه . وأعتقد أن الإسلام يستطيع أن يساهم بدور لتصحيح السبيل .

الفصل الحادى عشر

الإسلام فى ألمانيا .. إسلام ألماني ؟

أقيم فى برلين فى الفترة بين ٢٨ من مايو- ٢٧ من أغسطس عام ١٩٨٩ معرض بعنوان « أوروبا والشرق ٨٠٠ - ١٩٠٠ » . ولقد أبرز هذا المعرض وأكد حقيقة التأثير العربى الإسلامى فى جميع فروع الفنون فى الغرب ، بما فيها فن العمارة ، والرسم ، والحرف الفنية ، والموسيقى ، وأصول اللياقة وقواعد السلوك ، واللغة ، والزى السائد^(٥٠) . ومع ذلك ، كان التأثير الدينى للإسلام فى أوروبا ضئيلا جدا فى تلك الفترة ، وبصفة خاصة فى ألمانيا التى لم تتعرض - على العكس من إسبانيا وفرنسا والنمسا - لاحتلال إسلامى أو لحصار عسكرى . فلم يصل العرب فى عام ٧٣٢ إلى أبعد من Tours Potiers ، كما فشل العثمانيون أكثر من مرة فى عامى ١٥٢٩ ، ١٦٨٣ فى دخول فينا .

من الثابت ، أنه كانت هناك اتصالات دبلوماسية بين شارلمان الأكبر والخليفة هارون الرشيد ببغداد . ومع ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نتحدث عن علاقات ثنائية حقيقية بين ألمانيا والعالم الإسلامى ، إلا ابتداء من عام ١٧٣١ . وفى هذا العام ، جند فريدريك فيلهيلم ملك بروسيا عشرين من الجنود الأتراك لأجل حراسته الشخصية . ومن أجل هؤلاء الجنود ، أقيم فى بوتسدام عام ١٧٣٢ أول مسجد فى ألمانيا . وفى عهد خليفته فريدريك الأكبر ، ازداد عدد الجنود المسلمين فى الجيش البروسى ، حتى بلغ حوالى ألف جندى ، معظمهم من التتار الفارين ، ومن الألبان ، ومن البوسنة . . وأصبحت هناك بذلك حاجة ملحة إلى وجود إمام (واعظ) لهم . وإلى هذه الفترة ، أى حوالى منتصف القرن الثامن عشر ، يرجع تاريخ وجود أقدم مقابر للمسلمين بألمانيا ، وتقع هذه المقابر عند برلين^(٥١) .

توثقت العلاقات بين العالم الإسلامى وألمانيا فى القرن التاسع عشر . وفى الفترة

١٨٣٥ - ١٨٣٩ أدى القائد هيلموت فون مولكه خدمات جليلة للسلطان العثماني ، بينما اعتنق د . إدوارد شتش ، وهو مستشار مدني ، الإسلام ، وحمل اسم محمد أمين باشا ، وصار فيما بعد حاكما لإقليم مصر الجنوبي ، حيث قام بأعمال متميزة . كذلك ، صار الكاثوليكي كارل ديتروات ، من براندنبرج ، بعد اعتناقه الإسلام ، قائدا برتبة فيلد مارشال في القوات التركية باسم محمد علي . أما القيصر فيلهلم الثاني ، فقد أحرز قصب السبق ، وأصاب الهدف فيما يختص بالعلاقات الإسلامية - الألمانية من خلال ما بذله من جهود للظهور كمحام للعالم الإسلامي (في مواجهة إنجلترا وفرنسا وروسيا) . فلقد تركت رحلاته إلى إسطنبول في عام ١٨٩٥ ، وإلى دمشق والقدس في عام ١٨٩٨ ، وإلى طنجة في عام ١٩٠٥ بصماتها وآثارها الطيبة في هذه البلاد .

لم يكن من قبيل الصدفة أن تحارب تركيا إلى جانب دول المحور (الوسط) في الحرب العالمية الأولى ؛ فلقد عمل إنفر باشا ، المحرك الرئيسي للشباب التركي لفترة من الوقت ملحقا عسكريا لتركيا في برلين . وكان من الضروري أن يقام مسجد آخر بالقرب من برلين لأسرى الحرب المسلمين ، الذين كانوا يبلغون ١٥ ألف أسير معظمهم من روسيا وشمالي إفريقيا والسنغال . ولقد أقيم هذا المسجد ، الذي افتتح في حضور السفير التركي عام ١٩١٥ ، عند زوسن ، ويعرف بمسجد فوند سدورف .

ليس هناك مجال للحديث عن جماعة إسلامية من أصل ألماني قبل عام ١٩٢٢ ، حيث التفت هذه الجماعة منذ ذلك التاريخ حول الهندي مولاي صدر الدين ، الذي تمكن في عام ١٩٢٥ من استلام مسجد القبة في برلين - فيلمر سدورف .

كان الأمر أثناء الحرب العالمية الثانية مختلفا ، إذ اتخذت مشكلة رعاية ٦٠ ألفا من أسرى الحرب المسلمين من الاتحاد السوفيتي والبوسنة بعدا مختلفا ، من حيث الحجم والشكل ، عما كان عليه الحال أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . فلقد أدت تحريضات المفتي أمين الحسيني ، الذي كان قد اتخذ برلين مقرا له منذ عام ١٩٤١ ، إلى رغبة الكثيرين من الأسرى المسلمين في محاربة القوى الاستعمارية والإحاد السوفيتي ، ومن ثم فقد انضموا إلى قوات الرايخ الألماني^(٥٢) . ولم تكتفِ القوات المسلحة الألمانية والقوات الخاصة بالسماح بإنشاء « معهد إسلامي » في برلين فحسب ، بل لم يتركوا أيضا فرصة تفلت منهم لا استخدام التتار والتركمانيين والبوسنيين والألبان لتحقيق أغراضهم . وفي سبيل ذلك ، أنشأت القوات المسلحة في عام ١٩٤٤ مدرسة

عسكرية خاصة ، لتخريج رجال دين مسلمين على وجه الخصوص .

كانت الوحدات المسلمة ترتدى الزي العسكري الألماني ، مع شارة كتف بألوان العلم الفلسطيني ، وبشعار « أرض عربية حرة » مكتوبا باللغتين العربية والألمانية . (ومرة أخرى ، تصور ألمانيا نفسها على أنها « حامية » العالم الإسلامي) . ولقد انتهت هذه المغامرة بكثير من المسلمين إلى نهاية مأساوية ، في عام ١٩٤٥ . ولكن مسلما ألمانيا ، هو محمود هايمان ، استطاع على أى حال أن يعيد المفتى الحسيني إلى القدس مرة أخرى .

احتلت الدراسات الإسلامية الألمانية مكانة مرموقة بين دراسات الاستشراق منذ القرن العشرين ، إلى جانب تمتعها بسمعة طيبة ، ما تزال تحتفظ بها إلى اليوم ، في العالم الإسلامي . ويعود ذلك إلى اتباع العلماء الألمان للمنهج الوضعي الذي كان يمثل روح وجوهر العلم في ذاك القرن . وهو ما يشكل نقیضا تاما لسلوكيات لورنس العرب ، الذي كان عميلا لقوات الاحتلال . وتظل محاولات ثيودور نولدكه (المتوفى في عام ١٩٣٠) ، لإثبات وتحقيق كل آية من آيات القرآن والتأريخ لها ، مثالا حيا على جدية البحث العلمي ، وقيمة باقية من قيمه حتى بالنسبة لعلماء المسلمين . وكذلك أفنى الأستاذ Rudi Paret من تينيجن حياته في دراسة القرآن ، وتوصل بدراسته إلى إثبات أنه خلف ووريث صالح ، في القرن العشرين ، لهذا الاتجاه العلمي المتأصل .

كان الألمان في تلك الأثناء ، قد دخلوا في « حوارات علمية » مع القرآن . وتعود أولى ترجمات القرآن إلى الألمانية إلى عام ١٦١٦ ، حيث ترجمها سالومون شفايجر^(٥٣) ، ونشرت في نورنبرج تحت عنوان : قرآن الأتراك . . دينهم وخرافاتهم . ومن الممكن أن يتصور المرء كيف كانت هذه الترجمة ، إذا ما علم أن النص الذي نقلت منه لم يكن القرآن باللغة العربية ، وإنما كان منقولاً عن ترجمة إيطالية منقولة بدورها عن ترجمة لاتينية سابقة لها .

ولقد تم تدارك هذا الخطأ وتصحيحه - منهجيا على الأقل - في عام ١٧٧٢ ، حين قام دافيد فريدريش ميجرلين David Friedrich Megerlin بترجمة القرآن من اللغة العربية ، ونشر الترجمة بعنوان « الكتاب المقدس للأتراك » . وهذه الترجمة هي التي قربت الشاعر جوته من الإسلام ، بعد أن دفعه هيردر إلى قراءتها ، حتى إن البعض يتصور إلى الآن أنه تحول إلى الإسلام في صمت تام . ومن المعروف عن جوته ، أنه كان يعتقد في الله كعلة أولى لكل شيء . ولقد ترك جوته في عمله الشعري (الديوان

الغربي-الشرقي « ملاحظة تفيد أن «الشاعر لا يستبعد هو نفسه أن يكون مسلماً» (٥٤) .
ولك أن تتخيل مدى سعادة جوته ، لو كان قد قدر له أن يقرأ المحاولة ، الوحيدة من
نوعها حتى الآن ، التي قام بها الشاعر المستشرق فريدريك روكيرت Friedrich Ruckert
من ترجمة القرآن إلى شعر ألماني (٥٥) . ومنذ ذلك التاريخ ، ظهرت حوالى ٢٠ ترجمة
ألمانية للقرآن ، منها ست ترجمات متداولة الآن فى المكتبات ، من بينها ترجمتان فقط
لكتاب مسلمين (٥٦) .

تتضاءل كل الاتصالات الألمانية-الإسلامية السابقة ، وتكاد تفقد بريقها ورونقها
وأهميتها ، بل ربما يكون عليها أن تتوارى ، بالقياس إلى الاتصالات الجارية فى الوقت
الحاضر ، من حيث نوعها وكثافتها . فالمرء لا يلتقى اليوم بالإسلام فى ألمانيا من قبيل
الصدفة من حين إلى آخر ، على نحو ما حدث لجوته عام ١٨١٤ فى صورة جنود روس
من باشكريستان ، وإنما يكاد يلتقى به فى كل خطوة يخطوها . فالיום ، يعيش بيننا
حوالى مليونى مسلم . ونفس الوضع يجده المرء فى إنجلترا ، وفى فرنسا ، وفى
بلجيكا ، وفى هولندا . ويجرى اليوم بناء مساجد هائلة فى كل مكان : فى باريس ،
ولندن ، وروما ، وفينا ، وزغرب ، وقرطبة ، وحتى فى مانهايم وفورتهايم .

تعتنق الإسلام اليوم أعداد متزايدة من الأوربيين فى جميع بلدان أوربا . وأصبح
اعتناق الإسلام يمثل فى الآونة الأخيرة ظاهرة ، بعد أن كان من قبل حالات فردية ، كما
فى حالة محمد أسد (ليوبولد فايس) ، أو الصوفى فريزوف شون . واليوم يجتذب
الإسلام شخصيات من كل المجالات ، فتعتنقه وتتحول إليه . ففى مجال موسيقى
البوب : يوسف إسلام (كات ستيفنس Cat Stevens) ، وفى مجال الرقص :
موريس بيجار ، وفى مجال الرياضة محمد على كلاي (كاسيوس كلاي) ، وفى
مجال السياسة : رجاء (روجيه) جارودى . وفى ألمانيا اعتنق الإسلام ٥٠ ألفاً من
السكان من أصول ألمانية .

يطرح هذا التطور مجموعة من الأسئلة ، هى :

- إلى أى من الطبقات ، ينتمى هؤلاء الذين تحولوا إلى الدين الإسلامى ؟

- ما دوافعهم ؟

- ما صورة تنظيمهم ؟

- ما موقف الحكومة من الاعتراف بهم ؟

- ما المشكلات التى تواجههم فيما يختص بالمدارس ، والطعام ، والعطلات ،

والصوم ، وبناء المساجد ، ومراسم الدفن ؟

- هل يستطيع المرء أن يعيش كمسلم فى ألمانيا ، ويمارس حياته بشكل طبيعى ؟

- سأحاول الإجابة عن هذه التساؤلات فى السطور التالية :

يتوفر حتى الآن مرجعان عن الأسباب والطرق التى تؤدى بالأوروبيين إلى اعتناق الإسلام . أحد هذه المراجع ألمانى ، أما الآخر فهو دولى .

فلقد قامت الكاتبتان : فاطيما شرقاوى Fatima Cherquawi وليسزابيث روشيه Lisabeth Rocher بتوجيه سؤال إلى عديد من المسلمين الأوروبيين والأمريكيين - من خلال نموذج ثابت - عن الطرق التى أدت بهم إلى اعتناق الإسلام . ومن بين الألمان الذين وجه إليهم هذا السؤال :

Eva El Shabassy' Mohammad Hobohm' Arifa Gaspa

وضمنت الكاتبتان تحليلهما للإجابات التى تلقتهما عن سؤالهما كتاباً أليفاً ذكياً هو :
"D' une foi L' autre" أى « من دين إلى آخر » (٥٧) .

أما الكتاب الثانى ، وعنوانه « ألمان هداهم الله » ، الذى أشرف على إعداده محمد أحمد رسول ، فما هو إلا جمع مادة ، وصف شخصى للتحول إلى الإسلام . ومن بين من وصفوا تجربتهم هذه Hassan Natayisenga' Frank Abdullah Bubenheim و (Grimm.) Fatima Heeren (٥٨) .

وبالرجوع إلى الكتائين ، تبين عدم وجود طرق بعينها تدفع الإنسان وتؤدى به إلى الإسلام ، وإنما هناك دروب شخصية عديدة لا حصر لها تدفع إليه .

وبالرجوع إلى كلمات Rocher' Cherquawi ، يتبين أن المسلمين الأوروبيين يلبون اليوم نداء داخلها ، كما حدث مع أسلافهم العظام ، أمثال الشيخ رينيه جينو Rene Guenon (١٨٨٦ - ١٩٥١) ، ومحمد أسد (١٩٠٠ - ١٩٩٢) الذى فسر اعتناقه الدين الإسلامى بأنه نتاج عملية نضج .

ويمكننا ، بالرغم من ذلك ، تقسيم الألمان الذين اعتنقوا الإسلام إلى أربع مجموعات سأسميها بغرض التيسير : « ألمان أجنب » ، و « أزواج » و « أعضاء جماعات الخضر » ، و « علماء الإسلام » .

أعنى « بالألمان الأجانب » ألمانا يعملون فى تونس أو فى أى بلد إسلامى آخر .

وهؤلاء وجدوا طريقهم إلى الإسلام من خلال إقامتهم في هذه البلدان . وتضم هذه المجموعة مهندسين وفنيين وعمال صيانة وتركيب وخبراء في مختلف المجالات والتخصصات ، وهم هؤلاء الذين تدفع بهم ال (GTZ) هيئة التعاون الفني الألمانية إلى مختلف أرجاء العالم . ويشاركهم هذه الحال أعضاء السلك الدبلوماسي العاملون في سفارتنا بالخارج والمحقوقون العسكريون .

والمجموعة الثانية ، وهي «الأزواج» تضم الألمان الذين أحبوا مسلمات ، ولم يكن يجوز لهم الزواج منهن إلا بعد إسلامهم . ولقد قبل البعض منهم اعتناق الإسلام ليظفر بزواجه فقط لا غير . ولكن من يمد لله إصبعاً ، فسيأخذ الله بيده إلى الطريق المستقيم .

أما المجموعة الثالثة ، فغالبا ما تضم شبابا يعترض على انحرافات المجتمع الصناعي الحديث ، ويريد أن يهرب من هذا المجتمع ، ويبحث بالتالي عن مخرج أيديولوجي . فهؤلاء يبحثون عن مجتمع عالمي أكثر عدلا ، تسوده أخلاقيات رفيعة . . مجتمع يخلو من تقسيمات وتدرجات هرمية معقدة . . مجتمع يبعث وينشر الدفء الإنساني مجتمع يوفر للإنسان السند ، ويمنح الحياة معنى عميقا . . . تلك الحياة التي فقدت قيمتها وأهميتها . وينحاز «الخضر» ممن اعتنقوا الإسلام إلى الجماعة الإسلامية بألمانيا ، ويميلون إليها ، لأنهم يجدون فيها البيئة الدولية - خاصة مع أناس من العالم الثالث - التي يقدرونها كثيرا .

تمر رحلة الوصول إلى الإسلام أحيانا عبر طرق ودروب غير مباشرة . . ليس هذا فحسب ، بل وعبر طرق تثير الدهشة والعجب . فالانضمام لعضوية جماعة اشتراكية ، أو مغازلة البوذية ، تعتبر إحدى الخطوات المعتادة ، بل التقليدية ، التي تصل بهؤلاء الناس عاجلا أو آجلا إلى المحطة النهائية . . إلى الإسلام .

والمجموعة الرابعة والأخيرة ، وهي « علماء الإسلام » المتخصصون في الدراسات الإسلامية ، تتكون من طلبة حوالى ١٩ جامعة ألمانية ، تضم كل واحدة منها قسما للدراسات الإسلامية .

هؤلاء الطلبة يقدمون على دراسة الاستشراق لانجذابهم وشعورهم بميل للمنطقة العربية - الإسلامية . وما تلبث الدراسة أن تصبح أكثر من مجرد مواد تدرس ، أو تصبح تلبية لنداء داخلي .

يستيقظ كثير من المسلمين الجدد ذات يوم ، ليجدوا أنفسهم وقد اعتنقوا هذا الدين . . . الإسلام .

وقد علقت المسلمة الفرنسية ، إيفا ميروفيتش ، التي تحظى بمكانة مرموقة ، على هذه العملية ، ووصفتها بقولها : « لا يعتنق المرء الإسلام ، بل يتخذ دينا يضم جميع الأديان الأخرى » . (٥٩)

ويبدو على مظهر معظم المسلمين الألمان ، أنهم اعتنقوا هذا الدين من خلال صلة أو علاقة ربطتهم ببلد عربي أو بتركيا أو بباكستان ، حيث يتكون لدى البعض منهم إعجاب بل انبهار بالشرق ، يظهر من خلال ملبسه . فالبعض منهم يرتدى الجلباب الواسع ، رغبة منه في التشبه والاقتداء بالرسول ﷺ حتى في المظهر الخارجي . ويغالي بعض آخر في هذا الأمر ، فيرتدى عمامة .

ولقد لاحظ أحمد شميده أن البعض منهم يتعامل مع اللغة الألمانية بشكل يمثل ظاهرة « تطفل حضارى » ، فيقحم عليها الكثير من الكلمات العربية (٦٠) .

وانى أتفهم بطبيعة الحال رغبة المسلم حديث الإسلام فى أن يظهر للعالم حوله ، خصوصا العالم المختلف عنه فى الاعتقاد ، أن تغييرا ما قد أصابه أو لحق به . ويرغب أيضا فى أن يتعرف عليه المسلمون الآخرون كأخ لهم فى جماعتهم . ولكننى أرى أنه من غير المجدى أن يسلك الألمانى ، الذى يعيش فى وسط أوروبا فى القرن العشرين مسلك عرب منطقة الحجاز فى القرن السابع ، سواء أكان ذلك فى ملبسهم ، أم فى مأكلمهم ، أم فى غيرهما ، لأنه بذلك يصبح « غريبا داخل وطنه » (عبيد الله بوريك) . وهذا النهج ، يحول الإسلام إلى ثقافة فرعية ، بل إلى أحد أشكال الفولكلور الدينى . وهذا يصيب الإسلام بلا شك بأضرار بالغة .

يحيا المسلم هنا دائما مهددا بأن يلقي معاملة العمال الأجانب . وبالتالي ، يتعرض للفرقة والتمييز فى المعاملة . ويدفعه هذا إلى الانزلاق إلى حياة الجيتو . وهذا الوضع لا يليق ألبة بالإسلام . فربما يحيا الإسلام كدين سرى فى الخفاء ، فى ظل نظام ديكتاتورى ، ولكن ليس فى ظل نظام ديمقراطى .

وتشكل هذه الإشكالية موضوعا لمناقشات عارمة ومستمرة بين المسلمين الألمان . والسؤال الذى يطرح نفسه دائما : ما وطن المسلم الألمانى ؟ هل يجب عليه أن يهاجر من أرض لا تعرف الله ، إلى أرض يعبد فيها الله ، كما فعل الرسول ﷺ عام ٦٢٠ ؟ ولكن إذا كانت ألمانيا وطنه - وهى كذلك فعلا - ألا يستطيع أن يبدو كألمانى فى ملبسه دون الشعور بالذنب ؟ (وإذا أطلق لحيته سنة عن الرسول يكون ذلك أفضل) .

ولقد أثرى عبد الله بوريك Abdulla Borek المناقشة بالورقة التي قدمها في اللقاء الثاني والأربعين للمسلمين المتحدثين بالألمانية ، في ليتزلباخ ، يوم ٨ من يونية عام ١٩٩١^(٦١) وكان عنوانها : « في وضع المسلمين الألمان » . ولقد أطلق تحذيرا - وبحق - من أن يصير الإسلام ، ذلك الدين العالمى ، بمعتقديه المليار ذنبا للثقافة والسياسة التركيتين (ومن ثم نكون كمن يغذى الفكرة السابقة ، والتي تبناها يوما ما مترجما القرآن : ميزلين وشفايجر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حينما اعتبروا القرآن « كتاب الأتراك المقدس ») . ويعتقد بوريك بضرورة أن يحمل مسلمون ألمان شحنة الإسلام في ألمانيا ، حتى لا يستمر النظر إليه بوصفه « دينا أجنبيا » ، ويذكر بحقيقة أن الإسلام قد تزأج على مر التاريخ مع مختلف الحضارات : العربية ، والفارسية ، والهندية ، والإندونيسية ، والتركية ، وحضارة البربر . فلماذا لا يكون لدينا « إسلام ذو ملامح أوربية » ؟

ولقد أثارت هذه المحاضرة جدلا كبيرا بصدد نقطتين وردتا فيها . إننى أتفق مع بوريك Borek في مدخله النظرى ومنطلقات أفكاره . فلماذا لا يكتسب الإسلام صبغة أوربية ، من خلال تداخله وجدله مع الحضارة الأوربية ، طالما أنه لن يتحول إلى إسلام أوربى إصلاحى ؟ أى طالما أن وحدة الإيمان والدين لن تمس ؟ فمسلمو أمريكا وأوروبا لديهم الكثير ليضيفوه للإسلام ، ويشروا به هذا الدين ، لأنهم لا يخفون فضولهم وشكوكهم . فهم لا يضخون إلى الإسلام دماء جديدة فحسب ، بل ينظرون إليه بعيون جديدة أيضا . ونظرا لعدم تعرضهم للتربية التي تُخضع المرء للسلطة الدينية المنتشرة في البلاد الإسلامية ، فإننى أراهم بلا شك مهينين - إن لم يكن علميا ، فعلى الأقل نفسيا - لا لطرق أبواب الاجتهاد التي ظلت مغلقة لفترات طويلة فحسب ، بل لا جتيازها أيضا .

وإننى أصل إلى هذه النتيجة دون أن أدعى - كما فعل غيرى - أن الإسلام الحقيقى لا يوجد الآن فيما يسمى بالعالم الإسلامى ، وإنما يوجد في أوروبا والولايات المتحدة . ولقد عبر المسلم الفرنسى جون كارتيجنى Jochen Cartigny عن هذا الرأى ، بمقولة قصيرة تحمل قدرا غير ضئيل من الاستفزاز ، « هى : الإسلام الحقيقى تجده في المنفى » . وتنطلق وجهة النظر الصوفية الأوربية هذه من حقيقة مفادها : أن الإسلام ليس شأنا فرديا فحسب ، بل لابد أيضا من أن يعاود المرء دائما الرجوع إلى الإسلام ، « ومن أن يعاود اعتناق الإسلام » .

ولكن ، مما يدفع المرء إلى التفكير ، أن يصرح لى رجل يتسم تفكيره بالواقعية

الشديدة، مثل محمد أسد ، فى أخريات حياته ، بشكه فى أنه -إذا ما عاد إلى شبابه - سيجد طريقه إلى اعتناق الإسلام فى العالم الإسلامى اليوم . ولقد عبر فى مرارة شديدة عن الرأى ، الذى تردد أخيرا بشكل مستلفت للنظر ، والقائل بأن الشرق يعج بأعداد غفيرة من المسلمين ، ولكن بالقليل جدا من الإسلام ، وأن بالغرب الكثير من الإسلام ، ولكن بالقليل جدا من المسلمين .

وبالنظر إلى هذا الموقف ، أتوقع أن تؤتى حركة الإحياء الدينى ، التى بدأت فى القرن التاسع عشر ثمارها فى القرن الحادى والعشرين ، من خلال تعاون علماء أوريين وأمريكين مع علماء عرب مستنيرين لا تنقصهم الجرأة والشجاعة ، وبصفة خاصة من المصريين ، إلى جانب علماء باكستانيين وماليزيين . ولقد هاجر بالفعل الكثير من هؤلاء من أوطانهم ، واستقروا فى الغرب . . . فى لندن ، و واشنطن ، ولوس أنجلوس ، لأنهم يجدون هنا وهنا فقط العوامل والشروط الضرورية لنجاح العمل ، دون أن يتعرضوا لرقابة ما أو خطر يهدد حياتهم .

إننا ، إذا أردنا تقديم الإسلام كبديل حيوى وحديث فى عصرنا هذا ، فعلىنا - لتحقيق هذا الهدف - أن نجرى عملية إصلاح هائلة ، تتلخص فى عدة نقاط :

- ١ - مراجعة الأحاديث النبوية ، وتنقيتها مما ألصق بها بدون وجه حق ، وهذا ما فعله فى وقتهم عباقرة المحدثين ، مثل : مالك والبخارى ومسلم .
- ٢ - فصل الشريعة - وهى جوهر حق الله - غير القابل للتغيير - عن أعمال الفقهاء .
- ٣ - توضيح وتحديد العلاقة بين القرآن والسنة .
- ٤ - فصل العناصر الثقافية والحضارية للتقاليد والعادات الإسلامية ، عن جوهر الإسلام .

وهذه مهام ، يصاب المرء بدوار شديد إذا ما فكر فيها مجتمعة . (٦٢) ومع ذلك ، فلأننى أجد اقتراح بوريك الثانى مثيرا للمشكلات . فهو يقترح أن ينظم المسلمون من أصل ألماني أنفسهم فى مجموعة ذات مصالح خاصة ، تتمتع بتنظيم خاص ، يعبر عن مصالحها فى شكل « مجلس مركزى للمسلمين الألمان » .

فأنا أرى أن هذا الاقتراح يتنافى تماما مع مبدأ إسلامى أساسى وأصيل ، هو عدم التفرقة بين المسلمين وفق أجناسهم ، وألسنتهم ، وقومياتهم . ونظرا لأن ٩٧٪ من المسلمين فى ألمانيا من غير الألمان - وهو ما يشكل إزعاجا شديدا من الناحية التنظيمية -

فإن المسئولين يستخدمون هذه النسبة - بترحاب شديد - لرفض قيام أى تنظيم على هذه الصورة المقترحة .

وبطبيعة الحال ، فإن من الخطر إسقاط العداء للأجانب على الإسلام ، كما أن شق وحدة الصف ، وإشاعة الفرقة بين الأمة إلى ألمان وأجانب ، لهو عمل قاتل وغير مثمر . فهل من المعقول أن نطلب من الأتراك الذين يشكلون أكثر من ٨٠٪ من المسلمين فى ألمانيا ، ويتحملون القسم الأعظم من تمويل الأنشطة الخاصة بالمسلمين بها ، أن يمثلهم عامة الألمان ؟

إن على المسلمين الألمان أن يعملوا على الإغلاء من شأن الإسلام ، وعلى الحصول على اعتراف به ، متعاونين فى ذلك مع إخوانهم وأخواتهم من الأجانب .

تقودنا هذه المناقشة إلى خلفيتها الحزينة ، أى الانقسام المزعج الذى يعانى منه مسلمو ألمانيا . فالعمال الأجانب ، ينظمون أنفسهم بطبيعة الحال وفق معايير قومية ، إذ إن من الصعب أن يشعر المرء بأنه غريب . وإلى جانب ذلك ، تقوم بعض الدول ، التى تخشى الهجرة المضادة بتمويل الاتحادات الوطنية لمهاجريها . ولكن مما يؤسف له ، أن هذه التنظيمات تشهد انقسامات عرقية ، وسياسية ، ودينية . فالمرء ليس تركيا فحسب ، بل هو أيضا إما سنى ، وإما علوى . . . إما تركى من أصل كردى ، وإما تركى من أصل شركسى . . . إما صوفى ، وإما متشدد .

وكل هذا فى جانب ، والأسئلة التالية فى جانب آخر : ما موقفك من مصطفى كمال أتاتورك ؟ ما موقفك من حزب «الرفاه الإسلامى» ، ومن منظمة «رؤية العالم القومية : أوروبا» التابعة لـ (AMGT) فى كولونيا ؟

ولهذا السبب ، نشأت فى أواسط الثمانينيات فى برلين مظلة تجمع تحتها ٢٧ جماعة إسلامية . وأبلغ مثال تلحظة العين المجردة على الانقسامات داخل نسيج العمال الأجانب ، هو تجاوز مسجدين تركيين ، أحدهما تموله الوحدة التركية الإسلامية (DITIB) ، وهى مكتب خارجى لوزارة الأوقاف التركية ، ولا يتردد عليه كثير من المصلين . أما المسجد الآخر ، فيرعاه العمال الأجانب من الأتراك ، أو على وجه الدقة (AMGT) ، وهذا المسجد غالبا ما يمتلئ عن آخره بالمصلين والرواد .

ويكمن السبب الرئيسى لهذه المأساة التنظيمية ، فى أن جميع الانقسامات التى يعانى منها العالم الإسلامى تنتقل مع المهاجرين إلى ألمانيا . فالخلافات بين أتباع المذهب

السني وأتباع المذهب الشيعي ، أو بين المتشددين والمتصوفة ، والخلافات المشتعلة بين الحكومات ، وبين الحكومات والمعارضات تجذب طرقها إلى الأراضي الألمانية . ناهيك عن محاولات التأثير السياسية التي يمارسها كل من ليبيا ، وإيران ، والسعودية ، والسودان .

هل ترغب في رؤية مسجد للشيعية ؟ إنك لست في حاجة إلى الذهاب إلى النجف . . فالطريق إلى هامبورج يفي بالغرض . هل ترغب في عقد مقارنة بين متصوفة طريقة النقشبندية السنية ، وطريقة بكتاوى (الملقبة من مدعى المسيحية ومدعى الشيعية) ؟ . . . لا تسافر إلى الأناضول ، فألمانيا تفي بالغرض . هل تريد إجراء حوار مع العلويين المميزين بمعاطفهم الخفيفة ؟ . . هيا ، لنقم بذلك هنا في الحال . هل ترغب في مقابلة ممثلين لمنظمة المؤتمر الإسلامي (OIC) . طائفة الأحمدية الباكستانية سابقا ؟ . يكفيك لتحقيق ذلك أن تقوم بزيارة قصيرة إلى فرانكفورت .

ينشأ المسلمون على فكرة أن التنوع - التعدد في الإسلام - تراث فيتبعونه . ولكن حتى هذا التراث يأخذ أحيانا أشكالا مبالغاً فيها تصل إلى حد المغالاة . ولا تبدو صورة المسلمين من أصل ألماني أفضل من ذلك ، فالمرء منا يعتقد أننا جميعاً فطرنا على الانعزال وإعلاء قيمة الفرد . ولكن أيا كانت قيمة و ثراء مساهمات الأفراد . فإن الجماعة والفعل المشترك يعتبران من أهم مقومات الحياة الإسلامية .

من الجائز أن يقوم سكرتير عام منظمة المسلمين الألمان بأعمال مفيدة ، وأن يؤدي القائم على أعمال أرشيف الإسلام^(٦٣) أعمالاً جليلاً للإسلام من خلف مكتبه في Soest ، ولكن المشاركة في حياة الجماعة تأخذ صورة أخرى ، وتكتسب كذلك قيمة عظيمة .

غير أنه لا يجوز بطبيعة الحال أن نأخذ على الشيعة الألمان إدارتهم لمركز خاص بهم ، وإصدارهم صحيفة ناطقة بلسانهم في هامبورج^(٦٤) . ومن الطبيعي كذلك أن يكون للمتصوفة مركز ودار نشر خاصة بهم^(٦٥) ، على الرغم من أن دورهم محدود جداً إذا ما قورن بالدور الذي يقوم به المتصوفة في بلد الجوار فرنسا ، حيث يتبع معظم معتنقي الإسلام نهج ابن عربي (ولد في مرسية عام ١١٦٥ ، وتوفي بدمشق عام ١٢٤٠) الملقب بـ « الشيخ الأكبر » . (تعود بدايات هذه الظاهرة إلى رينيه جينون الذي عرف فيما بعد بالشيخ عبد الواحد يحيى شيخ الطريقة الشاذلية) . ويتحرك المتصوفة الفرنسيون المحدثون من أمثال Michel Chodkiewicz Eva de Oitray

Meyerovitch و Charles Andre Gtelis مثل معلمهم ابن عربى فى منطقة الحدود التأملية بين الغنوصية الضاربة بجذورها فى أعماق الفلسفة الإغريقية (أى معرفة الله) ومذهب وحدة الوجود .

وتختلف الصورة كلية إذا ما انتقلنا إلى ألمانيا . فبفضل التأثيرات التركية ، غالبا ما يتبع المتصوفة مذهب دراويش النقشبندية المتشددين ، الذين ترجع نشأتهم إلى منطقة وسط آسيا . ولذلك ، فليس من قبيل الصدفة أن تكتب المتصوفة الألمانية Michaela Mihibran Ozelsel أكثر الكتب علمية وعقلانية عن التصوف الإسلامى (٦٦) .

إننا نعتقد أن هناك ٨ أو ٩ مجلات إسلامية تصدر فى ألمانيا ، من بينها « المجلة المسلمة » التى صدرت عام ١٩٢٤ فى حجمها الصغير ، وكذلك المجلة النسائية الإسلامية « هدى » التى تصدر فى مدينة برلين ، و « الجريدة الإسلامية » التى تصدر فى مدينة فايمار .

وعلى الجانب الآخر ، هناك إصدارات متفرقة ، يتخطى توزيعها منطقة طباعتها ، مثل : « الإسلام » ، و « الإسلام الآن » . وهذه الإصدارات تطبع فى ميونخ وتعد أكثر المطبوعات الإسلامية انتشارا وأكثرها حيوية ، وأعظمها أهمية فى ألمانيا (٦٧)

أما وجود دور نشر ، مثل « المكتبة الإسلامية » Raln Dwinwald (٦٨) و « S.K.D - بافاريا » (٦٩) بميونخ ، فهو أبلغ دليل على وجود دور نشر يدير كلا منها رجل واحد ، وتعانى من ضالة رأس المال والتخلف التكنولوجى ، بدلا من وجود دار نشر إسلامية كبرى حديثة ، قادرة على تحقيق إنجازات كبيرة .

وثمة سلبية أخرى للعمل الفردى ، تتمثل فى اللجوء إلى بعض « الخداع المذهب » ، أو « الكذب الدبلوماسى » . فلك أن تتخيل وضعك كمتحدث عن القسم الألمانى بالمؤتمر الإسلامى العالمى (الذى فقد أهميته) ، أو رابطة المسلمين الألمان . (٧٠) فلقد كانت المنظمتان وما تزالان حتى الآن ذواتى نفع كبير ، ولكنهما أقرب إلى دائرة أصدقاء صغيرة ذات اسم كبير ، وبالتالي فقدتا الكثير من فاعليتهما .

أما مبادرة محيى الدين لودن ، التى قام بها عام ١٩٨٩ ، لإنشاء حزب إسلامى (٧١) على مستوى ألمانيا كلها ، فقد ماتت فى مهدها ولم تر النور . ولقد كانت فى حقيقة الأمر أكبر بكثير مما يتحمله واقع الحياة فى ألمانيا ، حيث يوجد ٥٠ ألف مسلم فقط يتمتعون بحق الانتخاب . ففى مقاطعة Nararhein Westfalen ، حيث يتركز غالبية

المسلمين الألمان (١٤ ألفا تقريبا) ، يكون حزب كهذا بلا فاعلية أو فائدة تذكر .

إذا أراد المسلمون في ألمانيا أن ينالوا الاعتراف بهم ، فإن عليهم إقناع الناس بأن يأخذوهم مأخذ الجد . وإذا رغب المسلمون في تحقيق هذا ، وجب عليهم في المقام الأول أن يحذروا من أدنى شبهات الدجل والاحتيال والنفاق في عملهم .

أما أهدافهم السياسية ، فلا يمكن تحقيقها - في المستقبل القريب - إلا من خلال الأحزاب السياسية الموجودة بالفعل على الخريطة السياسية الألمانية ، حتى وإن لم يتفقوا مع كل ما تتضمنه برامجها السياسية ، وأن يتم مع ذلك العمل بشكل ثابت على أن يكون هناك تفهم للإسلام ، وعلى الاعتراف به ، والعمل على نشره . وتقوم جماعة من النساء والرجال بالعمل بجهد ونشاط على تحقيق هذه الأهداف من أمثال : Ahmad von Denffer , Muhammad Siddiq , Harun Bahr Fatima Grimm , Dr Mehmed , Amina Erbakan Hobhom ; Hassan Haacke Abdul karim Grimm Muhammad ~Amen Dr Ayulb kohler وكذلك بعض المؤسسات مثل : « بيت الإسلام » في Odenwold^{٧٢} ونزل دار السلام التابع له ، والذي يتمتع بإدارة إسلامية والعديد والعديد من المراكز الإسلامية الأخرى المنتشرة في ألمانيا من آخن شمالا إلى ميونخ جنوبا ، ومن كارلسروه إلى برلين .

يتسم مناخ العمل في هذه المؤسسات والمراكز بالإصرار والعزم على إعلاء كلمة الله ، وذلك دون مزایدات أو صراع . فهي تعقد مؤتمرات تلو الآخر ، وتقيم معسكرات للشباب ، وتنظم أسابيع إعلامية بشكل مكثف ، إلى جانب تنظيم رحلة حج تلو الأخرى . وفي كل ذلك ، يجري العمل بإيمان عميق ، وتفان منقطع النظير ، ولا ينقصه الإخلاص ولا الأمانة والأخوة . ويطلق على هذا الأسلوب من أساليب العمل : العمل من القاعدة ، أي رعاية جذور الشجرة بصبر وتأن ، بدلا من الرغبة في جنى ثمارها حتى من قبل أن تنمو .

إننى أشيد بنشاط الجماعة الإسلامية بميونخ ، التي تتأثر كثيرا في عملها بالكاريزما التي تتمتع بها شخصية أحمد فون دنفر . وليس من قبيل الصدفة ، أن تقام أولى دور الحضانة الإسلامية وأول مدرسة ابتدائية إسلامية في ألمانيا بميونخ . وتضم المدينة ، بالإضافة إلى ذلك ، أول مركز للخدمة العامة بصيغتها الإسلامية ، كما تتخذ منها هيئة تحرير مجلة « للإسلام » مقر لها . وهى إلى جانب ذلك ، تضم المركز الرئيس للكشافة الإسلامية (٧٣) ، والمركز الرئيس لمنظمة المعونة والإغاثة : « المسلمون يتعاونون » . كل هذه المؤسسات توجد في ميونخ ، أو بالقرب منها (٧٤) .

لم يكن من قبيل الصدفة إذن أن يكون للمركز الإسلامى بميونخ ، وكذلك للجماعة الإسلامية فى جنوبى ألمانيا ، الحق بل السلطة - أثناء مسألة سلمان رشدى - فى إدانة واستنكار التهديد بالقتل ، الذى أطلقته السلطات الإيرانية الشيعية ، ضد الكاتب المجدف سلمان رشدى . ولقد قامت الجماعة باتخاذ الموقف اللائق ، والرد قولا وفعلا على هذا الأمر (٧٥) .

وفىما يختص بالأشكال التنظيمية للمسلمين فى ألمانيا ، تمثل (TDM) «لقاءات المسلمين الناطقين بالألمانية» ، التى أخذت شكل المؤسسة ، تطورا إيجابيا ، ليس فقط من المنظور التنظيمى ، بل وأيضا بما تحققة بالفعل من أهداف .

ولا يمكن ذكر هذه اللقاءات ، دون الإشارة إلى الإسهامات القيمة لكل من أحمد فون دنفر ومحمد صديق . وتعقد هذه اللقاءات سنويا منذ عام ١٩٧٦ ، ثم صارت تعقد منذ عام ١٩٨١ ثلاث مرات فى العام الواحد . ولقد كثر عقد هذه اللقاءات ، حتى إنه تعقد الآن -بالإضافة إلى اللقاءات المركزية - عدة لقاءات محلية فى العام الواحد .

هذه اللقاءات مدت فيها ، منذ وقت مبكر ، الجسور بين المسلمين بعضهم وبعض . ووضعت هذه اللقاءات نصب عينيهما محاولة إيجاد حلول للمشكلات الملحة التى تواجه المسلمين فى ألمانيا ، مثل : الدروس الدينية بالمدارس ، ومراجعة الكتب المدرسية وإعادة النظر فيها ، وإقامة مظلة تضم مسلمى ألمانيا كافة (٧٦) .

ولقد كنت أشارك فى الفترة من (١٩٨٠ - ١٩٨٧) فى اللقاءات الشتوية بمسجد بلال فى مدينة آخن . ولقد عادت هذه اللقاءات على بمكاسب طائلة ، خصوصا تلك اللقاءات التى تعقد فى عطلة نهاية الأسبوع . ولا يعود ذلك إلى المحاضرات ومجموعات العمل ومعارض الكتب فقط ، بل وأيضا إلى لقائى بمسلمين جدد ، وكذلك لمتعة الأحاديث المتجددة والشائقة ، والتى نتجاذب أطرافها حين تضمنا مائدة طعام واحدة ، حيث كان كل منا يضيف للآخر شيئا جديدا .

وتمتاز هذه اللقاءات بالتنوع ، لأن معظم المشاركين فيها مسلمون أجنبى ، ينتهزون هذه الفرصة لارتداء أزيائهم الوطنية . وتستطيع أيضا أن تبين من هيئة بعض المسلمين الألمان ما إذا كان الذين عاونوهم فى التعرف على الإسلام عربا ، أم أتراكا ، أم باكستانين (٧٧) ، حيث يتأثرون بهم حتى فى ملابسهم .

كانت هذه اللقاءات تضم ، بالإضافة إلى المسلمين ، ملاحظين ومراقبين من المكتب

الاتحادى لحماية الدستور . وكان هؤلاء يستمتعون بهذه اللقاءات ، ويجدون فيها قدرا غير قليل من السعادة .

يواجه المسلم فى ألمانيا دائما خطر الدخول فى صراع مع العالم المحيط به ، والصدام مع من يقاسمونه الحياة فى هذا البلد . فهو يسبح ضد التيار السائد ، ويحيا وفق منظومة قيم مغايرة لمنظومة القيم التى يتبناها السواد الأعظم من مواطنى هذا البلد . ومن مظاهر هذه المشكلات ، عدم السماح للعامل بأداء الصلاة فى مكان عمله وأثناء مواعيد العمل ، وعدم توفر مواد غذائية يحل للمسلم تناولها بمحلات بيع الطعام ، وصعوبة الحصول على لحوم ذبحت وفق الشريعة الإسلامية لتناولها بالمنزل .

أما النصيب الأوفر من هذه المشكلات ، والقدر الأكبر من الأضرار الناجمة عنها ، فينا لهما الأطفال . فالفتيات ، يتعرضن للسخرية ، بسبب ارتدائهن الحجاب ، أو لامتناعهن عن دروس السباحة المشتركة مع الفتيان ، أو لرفضهن ارتداء ملابس بحر مكونة من قطعتين ، وهو الأمر الذى يعرضهن للمساءلة أمام محكمة القضاء الإدارى ومن دواعى سرورى ، أن محكمة القضاء الإدارى بميونخ ، أقرت فى عام ١٩٩٠ أنه فيما يخص دروس السباحة المختلطة ، فإن حق التربية الذى يتمتع به الوالدان يمكن أن يحد من واجبات وتكاليف التربية التى تتمتع بها الحكومة ، وبصفة خاصة إذا ما استند الوالدان إلى أسباب دينية . هذه الواقعة ، تلتها حادثة أخرى عام ١٩٩١ ، حيث أعفت محكمة القضاء الإدارى فى مدينة برمين تلميذة تركية من حضور دروس الألعاب الرياضية المشتركة للسبب ذاته : أسباب دينية . أما أكثر ما أسعدنى ، فهو قرار المحكمة بأن تفسير القرآن شأن يخص الوالدين ، وليس المسئولين أو المحكمة ، أى أنه ليس من حق أحد من غير المسلمين أن يفرض على الوالدين التركين تفسيراً للقرآن .

يعانى الأطفال المسلمون أكثر ما يعانون أثناء دروس التاريخ ، بسبب التشويه والافتراءات التى يتعرض لها الإسلام وتاريخه على صفحات كتبهم المدرسية . ولقد تكونت فى اللقاء الخامس للمسلمين الألمان عام ١٩٧٧ مجموعة عمل لتصحيح هذا الوضع . وتحمل هذه المجموعة اسم «كتاب مدرسى» وانبثق عنها فى كولونيا مشروع بحثى عن الإسلام فى الكتب المدرسية فى ألمانيا الاتحادية . ويقوم عبد الجواد الفلاتورى بدفع هذا المشروع وتدعيمه ، ويشاركه فى هذا بعض الشخصيات غير المسلمة مثل :
Peter Hans Oalking و Udo Tworuschka .

ولقد قامت هذه المجموعة بتحليل حوالى ٦٠٠ كتاب مدرسى مصرح بها فى الفترة

ما بين ١٩٧٩ و ١٩٨٦ ، فى مواد التاريخ ، والجغرافيا ، والمذهبيين الكاثوليكى والبروتستانتى^(٧٨) . وجاءت النتائج لتثير إزعاجا كبيرا ومخاوف هائلة ، إذ أعادت إلى أذهاننا مدى قدرة الفرد على ارتكاب جرائم مروعة وهو جالس خلف مكتبه ، من خلال ممارسات بيروقراطية وإصدار أوامر ، دون أن تمس يده إحدى ضحاياه (نسبة إلى إيخمان وتسببه فى قتل أعداد كبيرة من اليهود ، من خلال إصداره قرارات بعينها ، وذلك دون أن يمس إنسانا واحدا بيديه) . فهل نستطيع ، بعد مراجعة الكتب ، أن نستبعد من مضمونها ومحتوياتها ما ينطوى على تصوير سلبي للإسلام ، يُعدّ أحد دوافع العنف ضد المسلمين ، أو أحد أسباب كراهية الألمان المستمرة للإسلام ، والتي ترتب عليها محاولة إحراق المركز الإسلامى بميونخ عام ١٩٩٤ ؟

قام فلاتورى ، استنادا إلى هذا التحليل ، بنشر عدة اقتراحات محددة ، بغرض تحقيق تناول الإسلام وتاريخه تناولا موضوعيا فى كتبنا المدرسية^(٧٩) .

وعلى الرغم من هذه المحاولات ، فإن معاناة حوالى ٥٠٠ ألف طفل مسلم فى المدارس الألمانية ما تزال مستمرة ، وذلك لأن تدريس مادة الدين الإسلامى بالمدارس الحكومية لم يصبح بعد أمرا طبيعيا مسلما به ، وذلك على الرغم مما أعلنه وزير التعليم Krollmann بمقاطعة هيسن فى عام ١٩٨٤ من أن مساواة الإسلام بالكنائس المسيحية أمر دستورى^(٨٠) .

ويدعى بعض البلدان الاتحادية أن تدريس مادة الدين الإسلامى بالمدارس ، يتطلب الاعتراف أولا بالدين الإسلامى كدين لجماعة ما ، متمتع بالحقوق العامة .

وتعرب بلدان أخرى مثل Nordrhein Westfalen عن استعدادها لتدريس الدين الإسلامى ، ولكن وفق منهج تحدده هى . وتقوم بلدان أخرى بتوفير فصول خاصة بالمدارس ، لتدريس الدين الإسلامى . ولقد سمحت مقاطعة بايرن ، فى أول بادرة من نوعها ، بإنشاء مدرسة خاصة للمسلمين تدعمها المقاطعة .

أما صيام العمال والأطفال خلال شهر رمضان ، فيقابل بشيء غير قليل من التوجس وعدم الترحيب . ويسعد الأطفال أيما سعادة ، إذا ما أعفوا يوما واحدا من المدرسة أثناء عيد الفطر .

أما مسألة المساجد وبنائها ، فتثير الحزن فى النفس ، لما يتم من وضع العراقيين كافة فى سبيل تحقيق ذلك ، سواء تم ذلك بطرق مشروعة أو غير مشروعة ، ويتم هذا فى حين تتعاون الجماعات الإسلامية لبناء الجوامع .

تشابه البوسنة إلى حد كبير مع منطقة جبال الألب ، بمقاطعة بايرن ، من حيث طبيعة كل منهما . ولكن في حين تنسجم مئذنة جامع مع طبيعة البوسنة ، فإنها على ما يبدو تتنافر بل تشوه طبيعة بايرن المسيحية . فأهل المقاطعة ، يرون في مرأى مدخنة مصنع ينبعث منها الدخان بكثافة قيمة جمالية أكبر وأرقى من مرأى مئذنة .

وغالبا ما يضطر المرء لخوض غمار حرب في المحاكم ، للحصول على تصريح البناء . ولقد شن أحد مواطنى مدينة Kahl عام ١٩٨٩ حربا صليبية شعواء لوقف بناء جامع ، حتى إن حربه هذه وصلت آخر الأمر إلى المحكمة الإدارية الاتحادية . وقد طالب هذا المواطن المحكمة بحمايته من الإزعاج الذى سيصيبه ليلاً ، عندما يرتفع صوت الأذان ليدعو لصلاة الفجر . ولكن لسوء حظه ، فإن الحى الذى يقطنه يعج بأماكن تنبعث منها الضوضاء ، وبه كذلك كنيسة تدق أجراسها .

أما الشئ المخزى ، فهو عملية المساومة بشأن ارتفاع المئذنة . حتى إذا ما استصدرت تصريحاً لبناء جامع ، فلا يجب أن يتعدى ارتفاع المئذنة ارتفاع برج الكنيسة المجاور . ويعتبر نجاح المسلمين فى مدينة Pforzheim فى بناء مئذنة يصل ارتفاعها إلى ٢٦ متراً إحدى معجزات التسامح . أما إخوانهم فى Bobingen ، فقد أرغموا على الحد من ارتفاع المئذنة ، والوصول به من ٢٦ متراً إلى ١٢ متراً ، وما زالت قضيتهم محل خلاف ومتداولة فى المحاكم . أما فى مدينة آخن ، حيث يواجه المسلمون صعوبات هائلة لتوسيع الجامع الذى ضاق برواده ، فى هذه المدينة لا يحاول حزب الخضر إخفاء أسبابه الحقيقية ، أو حتى التعبير عنها بشكل دبلوماسى ، فى وضع العراقيل أمام المسلمين لتحقيق هذا الغرض . وأسبابهم تلك إنما هى أسباب سياسية بحتة ^(٨١) . وهم بذلك إنما يحرمون فى واقع الأمر ٢٠ ألف مسلم يعيشون فى آخن وما حولها من ممارسة حرياتهم الدينية ، بالمعنى العميق والدقيق للكلمة ، وهذا بمثابة إعلان الحرب على الإسلام .

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يتعداه إلى صور أخرى من التعسف . فبعض المصالح ، تسمح ببناء مئذنة ، ولكن مع الالتزام والتعهد بعدم استخدامها فى غرضها الأساسى ، أى لرفع الأذان !! ويكون هذا الشرط مقبولاً ، إذا ما منعت هذه المصالح دق نواقيس الكنائس ، ولكنهم بالطبع لا يفعلون ، لأن الكنائس تتمتع بحماية يكفلها لها « الحق العرفى » ، وكأن مادة الدستور التى تنص على المساواة لا قيمة لها مقارنة « بالحق العرفى » .

ولقد لجأ مسلمو إسبانيا إلى هذه الحجة القانونية ، ونجحوا من خلالها فى رفع الأذان مرة أخرى فى قرطبة عام ١٩٩٤ ، بعد انقطاع دام خمسة قرون .

وأنساءل أحيانا متهمكما : هل تصبح الجوامع فى ألمانيا محتملة ، إذا ما دقت الناقوس إيدانا بموعد الصلاة بدلاً من رفع الأذان !!؟^(٨٢) أو أن ينطلق المؤذن مرردا «بِمَ - بِمَ - بِمَ» بدلاً من «الله أكبر» !!؟

ولأنه لمن المثير للتفكير وللدهشة فى آن واحد ، أن يضطر المسلمون إلى اللجوء للقضاء ، حتى يحصلوا على حقوقهم ، ويتمكنوا من ممارسة حرياتهم . ويدل هذا بطبيعة الحال على أننا نحيا فى دولة يحكمها الدستور ، لكنها لا تعمل فى حقيقة الأمر بروح هذا الدستور

وربما يعتقد المرء أن مشكلات المسلم فى ألمانيا ، والتي يواجهها فى حياته ، قد تنتهى بوفاة ، ولكن هيهات !! فإجراءات الدفن وفق الشريعة الإسلامية تلقى اعتراضات هائلة ، وتقاوم بشدة !! فالمسلم يرغب فى أن يدفن راقداً على جانبه الأيمن ، مولياً وجهه شطر مكة . ولكن هذا الشرط لا توفره إلا مقابر محدودة جداً . ويجب أن يدفن المسلم فى ثلاثة أكفان بيضاء ، ولا يتم وضعه فى نعش . والمدافن الألمانية لا تجيز ذلك بطبيعة الحال . (وهم يطيلون بذلك فى الفترة الزمنية ، مما يزيد من احتمال التعفن)^(٨٣)

ولا ينتهى الأمر عند حد الوفاة ، بل يتعداه إلى مسألة الميراث . فالمسلمون يتمسكون بقوانين الميراث المنصوص عليها فى القرآن ، والتي تنظم وتحدد جميع الموضوعات المتعلقة بالإرث فى أدق تفصيلاتها ، مثلها مثل القوانين المدنية ، إن لم تتفوق عليها فى الدقة والعدل . ولذلك لا يجد المسلم فى ألمانيا مخرجاً إلا توزيع ثروته فى حياته على المستحقين من الورثة وفق النص القرآنى . أما إذا اعترض أحد الورثة ، ولم يقبل بهذا ، فإن محاولة المسلم تطبيق شريعته تلقى الفشل .

ويعتقد البعض أن جانباً من المشكلات التى استعرضتها ، قد تخف وطأتها ، وتجد لها طريقاً للحل ، إذا ما توفر لمسلمى ألمانيا جهة واحدة تمثلهم ، وتكون شريك حوار مع المسئولين الألمان والبرلمان . وهذه القضية موضع نقاش منذ اللقاء الثانى للمسلمين الناطقين بالألمانية ، والذى انعقد يومى ٨ ، ٩ من أكتوبر عام ١٩٧٦ بميونخ . وطرح السؤال التالى نفسه : هل تتم خدمة الإسلام والعمل على رفعة شأنه فى هذا البلد عن طريق تشجيعه وتنميته ، سالكين الطريق من « القمة هبوطاً » أو من « السفح صعوداً » ؟

وتمثلت إجابتي دائما في تصريحى بأن الطريقتين لا تمثلان خيارين ، بل هما عمليتان متزامتان تكملان بعضهما البعض . ونصل بذلك إلى نتيجة مفادها : لا بد من المحاولة فى الاتجاهين .

ويشير مفهوم من « القمة - هبوطا » ، فى المقام الأول ، إلى المجهودات التى تبذل حتى ينال الإسلام اعترافا حكوميا ، حتى تتاح لمثليه إمكانات العمل على نشره فى الحياة العامة فى ألمانيا ، وبشكل علنى يتمتع بحماية الحكومة . تلك الإمكانات التى تتمتع بها كل من الكنيسة الكاثوليكية ، والكنيسة البروتستانتية ، وكنيسة الإصلاح ، وكذلك الجماعات اليهودية . ومن البديهي ، أن تنعكس آثار مثل هذا الاعتراف على مجالات عدة ، هى على سبيل المثال وليس الحصر : المدرسة ، الدخل المالى ، ضريبة الكنائس ، تنظيم الأعياد ، التعامل مع وسائل الإعلام ، وغيرها من المجالات .

ولقد أدت مؤتمرا حول شروط وفروض تحقيق هذا الاعتراف . وقد عقد هذا المؤتمر فى « بيت الإسلام » بـ Lutzelsbach فى يومى ٧ ، ٨ من مارس عام ١٩٨٧ . وقد ارتكز هذا المؤتمر على مذكرة كنت قد نشرتها من قبل ، موضوعها : تأسيس « جماعة إسلامية » . ولقد أوضحت للمشاركين أن المادة الرابعة من الدستور تشكل نقطة الانطلاق والبداية التى يستند إليها اعتراف قانونى وشامل بالإسلام فى ألمانيا الاتحادية ، وذلك لأنه بناءً على هذه المادة ، فإن الدستور يكفل لكل جماعة دينية مبدأ « ممارسة الدين بدون إزعاج » . أما تفسير هذا ، فنجدته فى المادة الخاصة بالدين ، الواردة فى دستور فايمار ، والذى انتقل عبر المادة ١٤٠ إلى الدستور الحالى .

ولقد نبهت إلى وجود نقطة أساسية فى المادة ١٣٧ ، والتى تنص على أن المسئولين فى كل مقاطعة لهم الحق فى منح أى جماعة دينية مشكلة ومنظمة وفق قانون الاتحادات وضع الهيئة المتمتعة بالحق العلنى .

ويتطلب هذا ، وفق المادة ١٣٧ ، ضرورة أن تثبت الجماعة الدينية « من خلال دستورها وعدد أعضائها إمكانية استمرارها » .

ولقد اتفقت الآراء على وجود عدد وفير من المسلمين فى ألمانيا ، ولكنهم غير « دستوريين » ، بمعنى أنهم ليسوا أعضاء فى منظمة إسلامية واسعة تضمهم جميعا . ولذلك ، فإننا نرى أن نولى أهمية قصوى لتأسيس جماعة إسلامية فى ألمانيا ، بل نجعل لهذا الهدف الأولوية المطلقة .

ولكننا نتوقع مع ذلك ، حتى بعد تحقيق هذا الشرط ، أى بعد أن يتم تنظيم المسلمين فى شكل « دستورى » ، أن تواجهنا عقبات وعراقيل أخرى ، لمنع قيام تنظيم إسلامى . وسيكون شرط « ضمان الاستمرار » العقبة التى سيضعونها فى طريقنا ، وستمثل حاجتهم فى أن العمالة الأجنبية تشكل الغالبية العظمى من مسلمى ألمانيا ، وهؤلاء تمنح لهم تصاريح إقامة محدودة المدة . وهم يتبعون مبدأ يرفعونه : « ألمانيا ليست بلداً أو موطناً للمهاجرين » .

ولقد بدأ المسلمون ، بالرغم من ذلك ، فى العمل على توفير الشروط اللازمة لاعتراف كامل بالإسلام ، وذلك من خلال تحقيق شكل تنظيمى أفضل للتجمعات المسلمة ، الموجودة حالياً فى ألمانيا . ولقد أدرك المسلمون - فى حرج بالغ - فى السنوات الأخيرة عدم وجود منظمة تمثلهم ^(٨٤) .

ولقد حاول ابنى ألكسندر - وهو غير مسلم - أن يصوغ فى عدة نقاط ما يمكن أن يحققه « اتحاد المسلمين » من إنجازات هائلة :

- ١ - تمثيل المسلمين فى المجالات الخارجية كافة .
 - ٢ - انتخاب الإمام الأكبر للمسلمين فى ألمانيا .
 - ٣ - العمل على الاعتراف بالإسلام ، كهيئة ، أو جمعية دينية .
 - ٤ - إدارة مكتبة مركزية ، وأرشيف للرجوع إليه لأغراض وثائقية .
 - ٥ - إصدار مرجع للمسلمين فى ألمانيا .
 - ٦ - تنظيم لقاءات ، معارض ، رحلات حج ، وغيرها من الرحلات الجماعية .
 - ٧ - إصدار نشرة تتضمن إعلانات ، بما فيها إعلانات زواج .
 - ٨ - تشجيع بناء المساجد .
 - ٩ - توزيع منح دراسية لغير القادرين من الطلبة المسلمين .
- ووضع مشروع مثالى كهذا ، ربما يتطلب فعلاً شاباً عمره ٢٣ عاماً ، كما كان ابنى عندما صاغ هذه النقاط .

ولكن ، تكون اليوتوبيا ذات فائدة هائلة إذا ما استطاعت أن تمهد الطريق لرؤية ما . ولقد أدت محاولات وضع خطة عمل إلى تعاون بين المسلمين فى ألمانيا . . تعاون

يتخطى الحدود المحلية ، ويضم جميع مسلمى ألمانيا . ولقد تحقق ذلك عام ١٩٨٨ ، ونتج عنه تكوين «مجموعة عمل دائمة للجمعيات الإسلامية فى ألمانيا» ، فى تاريخ ١٢/٣ / ١٩٨٨ ، فى مدينة كولونيا . وتمثل هذه المجموعة مظلة للجمعيات الإسلامية فى ألمانيا ، وقد لجأت إلى استخدام العنوان البريدى لاتحاد المراكز الثقافية الإسلامية .

وانبثق عن مجموعة العمل هذه ، « المجلس المركزى لمسلمى ألمانيا » (LMD) والذى يعود تاريخ تأسيسه إلى ٢٧ / ١١ / ١٩٩٤ فى مدينة كولونيا . ويرأس هذا المجلس الطبيب السعودى / الألمانى نديم إلیاس^(٨٥) . ولقد رحبت جريدة فرانكفورتر ألمانیه Frankfurter Allgemeine ترحيبا حارا بهذا المجلس .

ويعتبر المجلس نفسه بطبيعة الحال - قياساً على وضع وواجبات المجلس المركزى ليهود ألمانيا - شريك حوار ، وجهة تخاطب مع الدولة الألمانية ، والإدارات وجماعات المجتمع المختلفة .

وتستند هذه المطالب إلى أن هذا المجلس المركزى قد ضم عند تكوينه ١٥ منظمة مركزية ، تشمل حوالى ١٢٠٠ جمعية إسلامية . . أى أن المجلس يمثل منذ البداية حوالى ٧٠٪ من مسلمى ألمانيا .

ولا يضم هذا المجلس المركزى مجموعات يديرها ألمان فقط ، مثل جمعية مسلمى بون ، أو « بيت الإسلام » ، بل وأيضا منظمات يرأسها أجنبى ، مثل : « اتحاد الطلبة المسلمين » ، و « المجمع الإسلامى » فى ألمانيا ، و « اتحاد المراكز الألبانية الإسلامية » فى ألمانيا . ولا يثير عدم انضمام جمعية المشاركة التركية ومجلسها الإسلامى إلى هذا المجلس المركزى أى دهشة ، ويعود ذلك إلى ارتباطهما الوثيق بوضع الإسلام وتطوره فى دولة تركيا .^(٨٦)

أما المنظمة المنافسة لهذا المجلس ، وهى (DITIB) ، فهى منظمة تابعة للحكومة التركية ، وهى تواجه - بصفتها غرس الحكومة التركية فى الخارج - المشكلة التالية : لا يحق لها الانضمام لعضوية أى اتحاد مدنى .

ولقد حقق هذا المجلس المركزى ما ينشده لنفسه من مكانة رفيعة ، حينما عبر عن موقفه المبني على النهج الإسلامى أمام لجنة الصحة بالمجلس النيابى الألمانى يوم ٢٨ / ٦ / ١٩٩٥ ، وذلك فى إطار مناقشة اللجنة لمسألة زرع الأعضاء ، والموت بالسكتة الدماغية (موت المخ) .

ولقد أعلن د. نديم إلياس أنه يعارض التباطؤ في إقرار الموت ، عندما نتوقف الوظائف الحيوية ، وينتهي نشاط المخ بشكل قاطع ، لأن ذلك يتعارض مع كرامة الإنسان ورؤيته ، سواء في الحياة أو الموت . وقد أيد عمليات زرع الأعضاء ، إذا ما تمثلت هذه العملية للأطباء كوسيلة العلاج الوحيدة المتاحة أمامهم ، وأن يتوفر لها فرصة نجاح كبيرة . ويشترط موافقة المتطوع ، والتأكد من عدم إلحاق أى ضرر به . وفي حالة استئصال أحد أعضاء متوفى ، فيشترط موافقة ذويه .

ولذلك ، فليس من المثير للدهشة أن يرى الرئيس الألماني في شخص رئيس المجلس شريك حوار رفيع المستوى . ولقد عبر الرئيس رومان هرتزوج عن هذا في ١١/١٢/١٩٩٥ ، عندما استقبل ممثلي المسلمين في ألمانيا ، في قصر Bellevue . ومن الجدير بالذكر ، أنه أول رئيس يبادر بمثل هذا اللقاء .

وتظل مسألة انفراد المجلس بتمثيل الإسلام في ألمانيا ، في السنوات القادمة ، غير محسومة ، لأنها ستعتمد أساساً على النجاح في تخطي بعض الخلافات داخل الجماعة الإسلامية . وربما نستطيع التوصل إلى اتفاق ، إذا ما أخذنا في الاعتبار شهادتي كل من الأشعري (توفي ٩٣٥) والغزالي (توفي ١١١١) (٨٧) .

ونحن بصدد تكوين إجماع ديني ، لا بد لنا أن نتوقف عند عدة قضايا ملحة ، ونصوغ الموقف الإسلامي منها ، مثل : سياسات السوق ذات الأبعاد الاجتماعية ، حقوق المرأة ، مفهوم الديمقراطية . . . ولا بد أن يأتي موقفنا في شكل يخدم عملية الاعتراف بالإسلام .

ولكن الاعتراف قريباً بالإسلام أمر يحيط به الكثير من الشكوك ، حيث يتطلب الأمر وقتاً طويلاً حتى تتعامل غالبية الألمان بروح يسودها الود مع الحقيقة البينة والمتمثلة في الإسلام . . هذا الإسلام الذي أصبح ظاهرة ألمانية حيوية ومتنوعة ، ويمكن بالطبع التعايش معها في سلام ، خصوصاً وأن تمنى زوالها لن يفيد كثيراً . ولكن ما زال الدرب طويلاً وشاقاً ، حتى نصل إلى تلك النقطة ، أي حتى يلقي الإسلام استحساناً وقبولاً لدى الشعب الألماني .

ولقد تنبأ جوته بهذا ، حين قال ما معناه : التسامح خلق يجب أن نتخطاه ونجتازه ، فهو يصل بنا إلى الاعتراف . أما مجرد التقبل ، فهو أمر مهين . (٨٨)

ولكننا لم نصل لشيء من هذا بعد . ولذلك ، فإننى أؤيد أحمد فون دنفر ، حين قال قبل عدة سنوات : « نحن لا نؤخذ على محمل الجد ، ونحن نستمتع فى ثقافتنا الفرعية بحرية المجنون » . (٨٩) هذا هو وضعنا ، هذا فقط ، وليس أفضل منه .

وإننى لأخشى أن يكون هذا التسامح المحدود قد تضاعف ، خاصة بعد مسألة سلمان رشدى ، وحرب الخليج الثانية ، التى أدت إلى شكوك حول مدى تمسك المسلمين بالدستور ، واحترام حقوق الإنسان ، وقدرتهم على ممارسة الديمقراطية . وبهذا ، توضع عراقيل جديدة فى سبيل الاعتراف بالإسلام . ويأتى الفصل الأخير ليتعرض لهذا الأمر .

الفصل الثانى عشر العدو : الإسلام

لقد بينت الصفحات السابقة بما لا يدع مجالا للشك ، أن المرء حديث الإسلام نظراً عليه تغيرات عديدة لا تشمل داخله فحسب ، بل أيضاً تنعكس هذه التغيرات على علاقته بمجتمعه وموقفه منه . ويشير هذا إلى عملية جدلية تؤدي أحياناً في حالات فردية إلى الهجرة .

ويعتمد رد فعل العائلة والأصدقاء والجيران وزملاء العمل تجاه مقولة « الحمد لله ، إننى مسلم » ، على مستواهم الثقافى ، وطبيعتهم ودرجة تدينهم . (ويأتى إصدار بعض الكنائس الإنجيلية فى منطقة الرور لأجندة توضيح أعياد اليهود والمسيحيين والمسلمين لعام ١٩٩٦ ، دليلاً على تأثير درجة تمسك الفرد بدينه ، سلباً أو إيجاباً ، فى تقبله للآخرين) .

ولم يمثل - لى شخصياً - اعتناقى الإسلام مشكلات بين عائلتى وأصدقائى أو زملائى . فلم أتعرض للمعاملة كمخرف يمر بأزمة منتصف العمر ، بل على النقيض . فبعد اطلاعهم على أولى كتاباتى الإسلامية ، التى نشرت ، مثل : « الطريق الفلسفى إلى الإسلام » و « دور الفلسفة الإسلامية » ،^(٩١) انفتح مجال حوار ومناقشة واسع النطاق حول موضوعات ، مثل : الله فى الإسلام ومقارنته بمفهوم الثالوث فى المسيحية . ولكن قليلاً منهم من يتذكر أن يهتنى بحلول شهر رمضان المعظم ، أو عيد الأضحى ، بدلاً من التهتة بأعياد الميلاد .

ولقد كان تقبل أمر إسلامى شاقاً وعسيراً جداً على أمى ، هذه المرأة شديدة التمسك بالمبادئ الكاثوليكية ، لأنها شعرت بمسئولية أمام الله من جراء اعتناقى الإسلام ، تلك « الزلة » . ولقد حاولت ، فى رسالة أرسلتها لها ، أن أوضح الأمر قائلاً : يرى المسلم أن المسيح أحد الرسل اليهود ، وهو أعظمهم ، المعجزة التى ولدتها العذراء ، ولذلك فالفارق بين الديانتين : المسيحية والإسلام - كيفما يختار المرء - ضئيل جداً أو عظيم جداً . ولقد اختارت أمى أن تراه عظيماً جداً^(٩١) .

لم أتعرض كذلك في عملي لأى مضايقات ، ولم يلحق بى أذى ، بسبب اعتناقى الإسلام . فلقد قلدنى رئيس ألمانيا ، د . كارل كارستن ، في فبراير عام ١٩٨٤ - أى بعد ٣ سنوات ونصف سنة من اعتناقى الإسلام - وسام الاستحقاق . كما قامت وزارة الخارجية بتوزيع كتابى « يوميات ألمانى مسلم »^(٩٢) على سفاراتها في البلدان الإسلامية ، ليكون بمثابة الدليل والمرشد لأعضائها . كما تناول Wolfgang Gunter Lerch الكتاب بالمناقشة في جريدة فرانكفورتر ألجماينه ، في العدد الصادر بتاريخ ١٣ من فبراير عام ١٩٨٦ ، في مقال يحمل عنوان : « ألمانى مسلم - مذكرات دبلوماسى حول تحوله من ديانة إلى أخرى » .

ولم يثر ذلك أى زوابع ، مثله مثل تحقيق مصور من عدة صفحات تناول شخصى وزوجتى ، ونشر بتاريخ ١٧ من فبراير عام ١٩٩١ في مجلة بيلد . ولم يجادل أحد حتى تلك اللحظة في الفائدة التى تعود على ألمانيا إذ يمثلها مسلم في بلد إسلامى . كما كانت علاقتى بممثل الكنائس مرضية جداً ، بل تشكل لى مصدراً للسعادة . فكثير منهم يدرك أن المسيحيين والمسلمين على حد سواء يستقلون الزورق ذاته في عالم ينجح أكثر فأكثر إلى المادية واللاأدرية . ولقد وجدت من بعض أعضاء الكنيسة إعجاباً يشوبه بعض الحقد ، بدلا من الإعراض عنى الذى توقعه الكثيرون . ولقد أعلن ممثل على مستوى رفيع للكنيسة الإنجيلية في ألمانيا ، أثناء الاحتفال الذى أقيم بمناسبة اليوبيل العشرين لإنشاء جامع ميونيخ أنه يشعر بسعادة بالغة وراحة بين المسلمين ، لأنهم يتحدثون عن الله بشكل طبيعى غير قابل للشك ، وهذا ما لا يجده للأسف الشديد في بعض الدوائر الإنجيلية .

وهذا هو الجو الذى ساد ملتقى الحوار المسيحى - الإسلامى ، الذى انعقد في هانوفر في الفترة بين ١٣ - ١٥ من نوفمبر عام ١٩٩٥ . ولقد شاركت الكنيسة الإنجيلية ، والأكاديمية الملكية الأردنية لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة أهل البيت) ، في ذلك الحوار . ولقد شاركت في هذا الحوار البناء ، كعضو ضمن الوفد الأردنى .

ولقد أثمرت هذه الحوارات حتى الآن نجاحاً ملحوظاً في مجال العلاقات الإنسانية ، وليس على مستوى المناقشات الدينية^(٩٣) .

وإذا كانت الكنيسة الكاثوليكية قد أعلنت في ختام المجلس الملى الثانى بالفاتيكان عام ١٩٦٥ ، أنها تتخلى عن تفردا وحدها «بخلاص الأرواح من الذنوب» ، وأنها تعترف بالإسلام كطريق للخلاص ، إلا أنها ، أى روما ، لم تتقدم إلى الخطوة المنطقية التى تتبع هذا الاعتراف ، وهى الاعتراف بمحمد كقائد لهذا الطريق ومرشد له ، وبالقرآن كوحى

إلهي . وجاء عدم اعترافها ذلك ، بالرغم من المجهودات العظيمة التي يبذلها عالم الدين هانز كونج بمدينة Tubingen ، لتحقيق تقدم بهذا الصدد .

وعلى الجانب الآخر ، تبين لي أن مثل هذه الحوارات المسيحية - الإسلامية يمكن أن تكون في بعض الأحيان غير مثمرة أو مجدية ، بل قد تكون بالأحرى محبطة ، ويمكنها أن تأتي بنتائج عكسية . ولقد كنت شاهدا على شيء من هذا القبيل يوم ١٩ من نوفمبر عام ١٩٨٨ بالجزائر ، وذلك من خلال محاضرة ألقاها العالم كونج . فبعد أن استعرض بحرص ودقة رؤيته للمسيحية والإسلام ، جاء السؤال الأول سريعا جدا : « إذا كنت تؤمن بها سمعناه الآن ، فلماذا تظل حتى هذه اللحظة مسيحيا ؟ » . وجاءت إجابة كونج في صورة كتيب كان قد أعده ، ويحمل عنوان : (لماذا أظل مسيحيا ؟) (٩٤) .

واتخذت الندوة فيما بعد مسارا خاطئا ، فلا شيء يجhez الحوار بين الأديان أكثر من محاولة استحواذ طرف على الطرف الآخر .

وتلوح في الأفق إمكانات تقارب ، حتى على المستوى الفقهي . ويعود ذلك إلى أن علماء الدين المسيحيين في الكنيستين يعيدون النظر والتفكير في مفهوم طبيعة وماهية المسيح كما رآها المسيحيون الأوائل ، أي اليهود المسيحيون ، وبعدهم المسيحيون الأريسيون . وكان Adolf Von Harnach (المتوفى عام ١٩٣٠) قد استلقت الأنظار إلى أن حوارى المسيح لم يؤلوه ، أى أن شهادة الإيمان بالمسيح إلهاً ، والمنسوبة إلى الحواريين ، لم تصدر عنهم ، ولا تعكس حقيقة إيمانهم وجوهر عقيدتهم .

ولقد استمر هذا الاتجاه الناقد والفاحص للمصادر ، والذي يتخذ من نصوص العهد الجديد موضوع بحث ودراسة ، منذ القرن التاسع عشر . بل إن هذا الاتجاه زعزع اليقين في أكثر معتقدات المسيحيين رسوخا ، حيث أثبت أن الموضع الوحيد ، الذى يشير إلى فكرة الثالوث الواردة في خطاب يوحنا الأول - الإصحاح الخامس الآية السابعة - تزوير يعود تاريخه إلى عام ٣٨٠ تقريبا بعد المسيح !!

أما الأمر الأكثر إزعاجا في الأوساط المسيحية فهو متابعة سياق ومجريات المجلس الملى الموحد الأول ، والمنعقد في نيقية عام ٣٢٥ ميلاديا ، حيث تمكنت أقلية من المسيحيين في هذا المجمع من القطع بأن المسيح لم يخلق بل وُلد ، وأنه يتساوى في ماهيته مع الرب ، وهذه القلة قد فرضت رأيها على الحاضرين (٩٥) . أما الأمر المثير للإزعاج حقا ، فهو أن الداعى لعقد هذا المجمع ورئيسه ، كان الإمبراطور الوثنى قسطنطين . ولقد اقترح

الإمبراطور هذه الصيغة الدينية الحاسمة . وفرضها لأغراض سياسية ، ألا وهى حفظ السلام الداخلى بالبلا د .

ويمكننا فى مجمل القول أن نقر بوجود مجهودات عظيمة ، يبذلها علماء الدين بالكنيستين المسيحيتين للوصول إلى ما قبل مجمع نيقية ، والوقوف على حقيقة الأمر، خصوصا ماهية المسيح الذى يرون فيه إنسانا اختاره الله فقط لا غير، كما ينادى بذلك كل من Paul Schwarzenau ، Hans Kung ، Karl Rahner ، Rudolf Bultmann و John Hick . وهذا رأى ، يتوافق تماما مع ما جاء فى القرآن بشأن المسيح : ﴿ ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خَلَتْ من قبله الرُّسُلُ وأُمّه صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظر كيف نبيّنْ لهم الآيات ثم انظر أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (سورة المائدة : آية ٧٥) .

وهناك Matthew Fox ، الذى يرى المسيح « رؤية روحانية عالمية » . ويتحدث عالم الدين الإنجيلي Schwarzenau عن دخولنا فجأة « عصر ما بعد المسيحية » ، المصاحب « لعناصر دين عالمي » .

وإذا تمكن هذا الاتجاه من فرض نفسه ، فلن تقف أى عوائق فقهية فى طريق التعاون المسيحي-الإسلامي .

أما بالنسبة للادنيين ، فلم تواجهنى أى مشكلات معهم ، بعد اعتناقي الإسلام . فلقد اقتنع هؤلاء الناس فى أعماقهم بأن الدين مسألة شخصية ، ومن أدق خصوصيات المرء . واعتقد أن موقف التسامح هذا على قدر هائل من اللامبالاة . ولقد واجهت موقفا شبيها - بشكل مثير للضحك - يوم الرابع من يونيو عام ١٩٦٠ . توجهت فى هذا اليوم إلى كنيسة إنجيلية صغيرة (تدعو إلى رفض فكرة الثلاث) بجامعة هارفارد ، لإتمام مراسم زواجي الأول .

لم يوجه لنا رجل الدين أى أسئلة عن ديانتنا ، بل أراد فقط أن يعلم أننا لسنا شواذ جنسياً . أما فوق الهيكل ، فكتب بترتيب أبجدي : بوذا ، كونفوشيوس ، عيسى ، موسى ، محمد . هذا الحياء يصل إلى حد الاستسلام . أسلوب الحياة الأمريكى الذى يتلخص فى العبارة التالية : لكل شأنه !

ولكن هناك ظاهرة أخرى تلاحظها بسهولة . فالعالم الغربى لا يقدم المسلمين مشيرا إلى ديانتهم ، حتى لا يثار شك حول ذكائهم ! ولقد صادفت تلك المواقف كثيرا ، أثناء رحلاتي لإلقاء محاضرات بصفتي مدير قسم المعلومات بحلف شمالى الأطلسي ، سواء كانت هذه الرحلات داخل الولايات المتحدة أو أوروبا . ودائما ما يتم إغفال ذكر إسلامي عند استعراض سيرة حياتي .

وتلاحظ ، بالإضافة إلى ذلك ، عدم ذكر أوحى التعرض لتأثيرات الإسلام ومساهماته في التطور الثقافي للحضارة الغربية . ويسود هذا الاتجاه معظم كتب تاريخ الفلسفة . ولا يمثل الجهل بالإسلام حتى الآن ثغرة في ثقافة الفرد ومعلوماته !

ولكن للأسف ، لم تكن جميع ردود الفعل إزاء اعتناق الإسلام بريئة ومسالمة ، كالتى وردت في السطور السابقة . ويعود ذلك إلى فزع يسكن قلوب الألمان ، ورعب متمكن من أعماق الشعب الألماني من كل ما هو إسلامي . هذا الفزع التاريخي ، يصل إلى درجة اللامعقول ، وسرعان ما يتحول وبسهولة شديدة إلى عدااء سافر .

ويتغذى هذا الفزع على ذكريات جماعية مشتركة ، يتقاسمها الألمان ، بل تتوارثها الأجيال عن المنازعات الحربية المريرة بين العالمين المسيحي والإسلامي في العصور الوسطى . لم تغب أبداً عن ذاكرة الألمان - حتى بشكل غير واع - حقيقة وجود المسلمين لعدة قرون في إسبانيا وصقلية والمجر .

ولعبت الحروب الصليبية ، بطبيعة الحال ، دوراً أساسياً في إزكاء هذا الفزع وروح العدااء تجاه الإسلام والمسلمين . فلقد أصابت هذه الحروب - برغم نجاحها العسكري - الأوربيين بصدمة ثقافية هائلة ومروعة ، لأنهم تيقنوا أن هؤلاء « الكفرة » الحقرء ، الذين يقطنون بلاد الشام ، أصحاب حضارة كبرى مزدهرة ، بل إنها تتفوق على الحضارة المسيحية - الأوربية في مختلف الأوجه والمجالات .

ولقد أدرك بعض الأوربيين ، في ذلك الوقت ، حقيقة أثار حرجهم ، بل أزعجتهم ، حقيقة مفادها أن الغرب هو غروب صباح أشرق في بلاد الشرق .

وتأتى صحوة الإسلام ، وعودة الحياة والروح إليه التى شهدتها في العقود القليلة الماضية ، لتضيف أسباباً جديدة لفزع الغرب من الإسلام ، خصوصاً وأن هذه الصحوة تتعارض تماماً مع تكهنات المحللين المتخصصين في دراسة الشرق .

عندما نشرت في عام ١٩٠١ للمرة الأولى ترجمة القرآن بقلم Max Henning^(٩٦) (ظهرت منها عشرات الطباعات الجديدة) ، كتب المترجم في مقدمتها : « إن الإسلام على ما يبدو قد استنفد دوره السياسى » . وكانت هذه العبارة في ذلك الوقت تحمل الكثير من الصحة ، نظراً لوقوع العالم الإسلامى بنسبة تصل إلى ١٠٠ ٪ تحت وطأة الاستعمار الأوروبى .

وكان دارسو الإسلام ، إبان فترة الاستعمار وحتى خمسينيات هذا القرن ، على يقين تام من موت وفناء موضوع بحثهم ، حتى إنهم انطلقوا يبحثون عن الإسلام قبل زواله وأقول

نجمه ، ليتمكنوا من وصفه وتصويره ، مثلهم مثل علماء الأنثروبولوجيا ، وعلماء النبات . فلقد كان واضحا بما لا يدع مجالا للشك ، أن ديانة السكان الأصليين البدائية ستدوب أمام شمس الحداثة الغربية .

أما الصدمة الكبرى ، والأمر المثير لاستفزاز دول الغرب وحكوماته ، فهو ذلك التطور في مسيرة الإسلام وصحوته ، والذي بلغ قمته عندما ألحقت دولة شيعية ، هي إيران ، إهانات بالغة ومتتالية لأمريكا ، بدأت منذ عام ١٩٧٩ . وأن هذه إيران تصمد لكل ردود فعل الولايات المتحدة وعقوباتها . وعلى الجانب الآخر ، أجبر المجاهدون الأفغان الجيش السوفيتي ، وهو جيش قوة عظمى ، على الانسحاب من أراضيها .

ويعتبر الكثير من الغربيين صمود الإسلام ، ورفضه الانسحاب من مسرح الأحداث ، خروجاً عن سياق الزمن والتاريخ ، بل إنه يمثل إهانة بالغة للغرب ، خاصة بعد انتصار النظام « الرأسمالي » على غريمه الشيوعي . ومنذ ذلك الوقت ، يلحظ الكثيرون انتشار ظاهرة محددة يشخصونها ، تحت مسمى أعراض مرض زهو انتصار ثقافي إمبريالي غربي .

وأبلغ بيان لهذا الوضع ، هو كتاب (ظهر أول الأمر في شكل مقال) « نهاية التاريخ » لكاتبه فرانسيس فوكوياما^(٩٧) . وقد كان فوكوياما يشغل في ذلك الوقت منصب رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية . ونلاحظ هذا التوجه في نظريات برنارد لويس ، صمويل هانتنجتون Bernard Lewis و Samuel P. Huntington حول « صدام الحضارات » .^(٩٨) . ويرى هذا الإرث الفكري الأصولي للحداثة والمتنشر كذلك فيما بعد الحداثة ، أن الحضارة الغربية (أو على وجه الدقة أسلوب الحياة الأمريكية) أفضل النماذج التي يمكن أن تصل إليها الإنسانية . وتعمل الحضارة الغربية على تشكيل منظومة القيم المسيطرة على مجريات الأمور ، بل مستقبل الإنسانية كله .

فالغرب بفلسفته الحياتية ، ونظاميه الاقتصادي والسياسي ، وفرضياته العلمية ، وتكنولوجياته ، ومفهومه عن حق الشعوب ، وغيرها من معطيات الفكر والحياة ، يمثل نموذجاً إلزامياً لما يسمى بالعالم الثالث وشعوبه . وتجد الأخيرة هذه نفسها أمام خيارين : إما أن تتغرب بلا أدنى قيود (يطلق المسلمون على هذه العملية مصطلح كوكلة ، وهو مشتق من كوكاكولا) ، وإما أن تنهش إلى فقدانها لأي قيمة ، وأن تنسحب في آخر الأمر من التاريخ .

ويتفق المحللون السابق ذكرهم على وجود حضارة واحدة فقط - بالإضافة إلى الحضارة

الكنفوشيوسية - ترغب ، بل وتعمل على التنصل والانسلاخ عن هيمنة الثقافة الغربية على العالم ، بل وتتصدى لمحاولتها القضاء على خصوصية الأقاليم المختلفة . تلك الحضارة هي الحضارة الإسلامية . فمن الواضح أن الإسلام يجرؤ على طرح نفسه كبديل للحضارة الغربية^(٩٩) . ولذلك يتنبأ كل من Huntington , Lewis بوقوع صدام بين الحضارتين الغربية والإسلامية . وقد دفع هذا السبب ذاته سكرتير عام حلف شمالى الأطلسي في ذلك الوقت ، كلايس ، إلى مطالبة المخططين العسكريين للحلف بالتأهب لصراع محتمل ومتوقع وقوعه بين الشمال والجنوب .

* * *

وتنطلق مجدداً صيحة « الأتراك قادمون » ، لتعيد إلى الذاكرة الأوربية الصدمة التي حلت بفيننا بل أوروبا كلها عندما طرق الأتراك أبواب العاصمة النمساوية . ويظهر العدو الجديد متمثلاً في الإسلام والمسلمين .

كما تتأثر العقلية الغربية من ناحية أخرى حتى يومنا هذا ، بما لحق بشخص محمد في العصور الوسطى من مساواة صورته بصورة الشيطان . ولقد تعرض محمد لقتل وسب مريرين في ذلك الوقت ، في أوروبا حيث نُعت بالذجال ، والمخادع ، والمحتال ، والشهوانى . وبلغ هذا السب ذروته بنعته بكلب الجحيم . ويسميه رشدى في روايته ماهوند (المقطع الثانى هوند يعنى بالألمانية كلب) . وتقول أنا مارى شيميل بهذا الصدد : « أثارت شخصية محمد أكثر من أى شخصية تاريخية أخرى مشاعر الخوف والكراهية والاحتقار في العالم المسيحى . وحين يلعنه دانتى في عمله « الكوميديا الإلهية » ، ويضعه في أعرق بؤرة في الجحيم ، فإنه بذلك إنما يعبر عن مشاعر عدد لا يحصى من مسيحيى العصور الوسطى^(١٠٠) .

وفي واقع الأمر ، فإن رسول الإسلام ، الذى يحظى باحترام مليار إنسان ، لا يتمتع حتى الآن في الغرب بأى حماية قانونية . فالإساءة إليه وتشويه صورته لا يقعان تحت طائلة القانون ، بل إنهما من الأمور المقبولة سياسياً .

ويشعر المسلم بآثار النظرة السلبية المتعمقة في نفوس الغربيين ، بل يتأكد منها يومياً ، عندما يرى « الكيل بمكيالين » في أى مشكلة يكون المسلمون طرفاً فيها .

وإنه لمن أشد الأمور عجباً تسامح الغرب تجاه « السوبر ماركت الدينى » ، والذى يباع فيه كل شئ لكل من شاء :

أتباع مذهب الأنثروبوسفيا لمؤسسه : Rudolf Steiner . بوذيون من أمثال : Hare Krishna - Junger . وأتباع مذهب التكهنية الهندي ، مثل Carlos Casteneda . وعابدو آلهة أنثوية ، مثل Christer Mulack ^(١٠١) . وعابدو الشيطان ، وهم أتباع بعض العبادات والطقوس التي تؤله الشيطان .

عندما أعلن النجم السينمائي ريتشارد جير اعتناقه للبوذية ، لم تثر أى تعليقات سلبية ، ولم يتعرض لأى قذف أو مضايقات . فكل شىء مسموح به ، إلا أن تكون مسلما . هذا إذا أردت أن تنأى بنفسك عن المضايقات والمشكلات .

تتحدث وسائل الإعلام ، من وقت إلى آخر ، بشكل لائق وفى احترام بالغ عن طقوس اليهودية المتشددة ، خصوصا طائفة Lubevitscher ، ويتابعون بحرص طقوس الفصل بين الجنسين ، تدابير الزيجات ، تصنيفات شعرهم ذات المغزى الدينى ، ملابسهم ، غطاء الرأس ، آداب الطعام ، النحر ورفض تناول لحم الخنزير . ولكن لا يهتمهم أحد بانتهاك حقوق المرأة ، أو أن هذه الطقوس رجعية أو متعصبة . ولكن هذه هى الصفات التي تلصق بالمسلمين ، إذا ما سلكوا نفس هذا المسلك .

و يظهر أكثر ما يظهر بوضوح نهج « الكيل بمكيالين » فى التقارير الإخبارية التي تبثها وسائل الإعلام ، والتي تتناول الإرهاب . فلم يتحدث أحد أبداً عن هتلر الكاثوليكي ، أو ستالين المسيحي الأثوذكسى . كما تتجنب وسائل الإعلام وصف زعيم الصرب كارادنش بالمسيحي . ولكن فى اللحظة التي يمسك فيها عربى بسلاح فى يده ، يتم الإشارة إليه بصفته الإرهابى المسلم ، حتى إذا كان هذا العربى مسيحيا فلسطينيا ، أو بعثيا لا يؤمن بالله .

لم يخطر ببال أحد أن يصف الأسلحة الذرية التي أسقطت على نجازاكى وهيروشيما بـ « القنبلة المسيحية » . ولكن إذا ما تناثرت شائعات أو حامت شكوك حول قيام دولة إسلامية بصنع أسلحة ذرية ، يكثر الحديث فورا عن « القنبلة الإسلامية » . كما أننى ألحظ أن صفة « متعصب » حجزت مسبقا للمسلمين . فالقذافي ، وخوميني ، وصادام حسين متعصبون ، أما ميلوشفيتش فلا . الهجمات المسلحة فى كتالونيا وإقليم الباسك وأيرلندا الشمالية ، لا يقوم بها « باسكيون متعصبون » ، أو « كاثوليك متعصبون » ، بل أعضاء جماعة ETA وجماع RAI . .

ولقد تطور هذا السلوك ، حتى إنه اتخذ شكلا عبثيا . فالمسلم يصنف كمتعصب إذا

لم يصدر منه أى سلوك يؤخذ عليه سوى الصلاة والصيام . أما إذا كان ملتجيا ، فتلصق به فوراً صفة متهم ، ويلقى صعوبات هائلة من موظفى الجوازات . (هذه اللحية ذاتها كانت تعتبر تقدمية ، نسبة إلى شى جيفارا) .

أما أكثر الأمور خطورة ، فهو التصوير الخاطئ والتشويه الذى تعرض له الإسلام فى بعض وسائل الإعلام خلال الخمسة عشر عاما الماضية ، وإضرار نار الخوف من هذا الدين وأتباعه . ولقد استهدف المسلمون من كتابات بأقلام : Gerhard Peter Scholl Latour و Konzelmann (التحدى الإسلامى عام ١٩٨١) ، Rolf stolz ، Bassam tibi : (الملا على ضفاف الراين . الزحف الإسلامى نحو أوروبا . ميونخ عام ١٩٩٤) . وبالإضافة إلى ذلك مجموعة من المقالات فى المجالات وفى برامج تليفزيونية .

فالناس تعلق بأذهانهم برامج حديثة مثل : « إرهاب باسم الله » (١٨ / ٩ / ١٩٩٤ على قناة RTL) ، و« حرب مقدسة باسم الله » (١٥ / ٩ / ١٩٩٤ على قناة ARD بافاريا) (١٠٢) .

ولقد مكنت هذه الكتابات مجلة Bunte من التساؤل فى العدد الصادر بتاريخ ١٩ / ١ / ١٩٩٥ عما « إذا ما كان مركز التهديد قد انتقل من موسكو إلى مكة » . ولقد كانت المجلة على ثقة تامة من عدم جراءة أحد من القراء على نفى ذلك أو معارضته .

أما أكثر أنواع الهجوم خطورة على السلام الدينى والتعايش السلمى بين الأديان فى ألمانيا ، فيقوده بسام طيبى - الدمشقى الأصل - أستاذ العلوم السياسية (فى مدينة Gottingen) . ولقد كان بسام يوما ما يعتنق الفكر الماركسى ، أما اليوم ، فهو ما يمكن أن نطلق عليه : « إسلامى الثقافة » . وبسام طيبى شديد الانبهار « بمشروع الحداثة الأوروبى » ، الذى أخذ يشكك فى نفسه منذ فترة ليست بقصيرة . وهو يضع - إذا كانت قراءتى له صحيحة - الإسلام كنقيض تام لهذا المشروع الأوروبى ، ويصفه باللامعقولة ، وأنه دين شمولى غير قادر على التعايش السلمى (١٠٣) .

وجاءت مقالاته بمجلة شبيجل عام ١٩٩٤ ، شاهدة تماما على أسلوبه . وقد حملت المقالة عنوانا جارفا ، مثيرا : « كالنار والماء » ، وتضمنت آيات مضللة من القرآن الكريم . وقد ادعى مجددا فى مقالته أنه « يستحيل التوفيق بين الإسلام وحقوق الإنسان الفردية » ، وأن « الشرع الإسلامى يفصل المسلمين عن الحضارة التى تعترف بحقوق الإنسان » (١٠٤) . ويوحى طيبى المسلم المقيم فى أوروبا بضرورة التوصل لـ « إسلام أوروبى » ، يتماشى مع الحداثة ، به الكثير من أوروبا والقليل من الإسلام .

ولقد شعر المسلمون في أوروبا بامتنان شديد، لأن غير المسلمين استاءوا من التشويه الذى يلحق بالإسلام. ولقد عبر هؤلاء عن استيائهم هذا، فقام Gernot Rotter بكشف القناع عن Konzelmann، وكشفه وأصابه بشكل لم يتعرض له كاتب من قبل^(١٠٥). وتعرض Scholl - Latour في عام (١٩٩٣) للشىء نفسه، بواسطة Verona Klemm، Karin Horner^(١٠٦). وفي العام ذاته، كشفت Dorothea Bolke حقيقة كل من سبق ذكرهم معا Konzelmann، Scholl Latour وبسام طيبي^(١٠٧).

وقامت الناقدتان Marfa Heimbach، Goltschhe Jung في عام ١٩٩٤، من خلال معالجة تهدم فكر طيبي، بتوجيه الأنظار إلى تحديده المستمر من تهديد يصيب أوروبا من جراء تحد إسلامى أصولى. ولكنه يعنى بالأصوليين حتى كل من يستخدم كلمتي «قرآن» و«إسلامى» فقط. ولقد توصلت الناقدتان إلى نتيجة، مفادها أن تصوير الأمر من جانب واحد سينشأ عنه في نهاية الأمر جو عام مشبع بالعداء والكراهية: «قدرة هائلة على العداء والكراهية، أدت قبل خمسين عامًا إلى حرب إبادة لليهود، كما يتعرض مسلمو يوغوسلافيا السابقة اليوم لمثلها»^(١٠٨).

ويعبر Marle Heller - ضمن آخرين - عن نظرية مفادها أن العالم الإسلامى يمثل استثناء سلبيا في إطار التطور العالمى نحو الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان^(١٠٩). وكأن المسلمين بطبيعتهم غير قادرين على ممارسة الديمقراطية. ويعتبر البعض هذه النظرية شكلا من أشكال العنصرية الثقافية، في إطار ما بعد الحداثة. ولقد تم دحض هذه النظرية في مجموعة مقالات بعنوان: «ديمقراطية بلا ديمقراطيين»؟ ولقد شاركت عالمة الإسلام الألمانية Gudrun Kramer (Bonn) بمجهودات عظيمة في هذا العمل^(١١٠).

ولقد توصلت هذه الدراسات بشكل واضح إلى نتيجة نهائية تشير إلى عدم وجود ارتباط بين الدين والاستبداد في العالم الإسلامى، وكذلك عدم وجود علاقة تناقض بين أن تكون مسلما وأن تكون ديمقراطيا. بل على النقيض، فنظم الحكم غير الديمقراطية في العالم الإسلامى لا تعانى ضغطا للتوجه نحو الديمقراطية إلا ما تمارسه عليها الحركات الإسلامية، حتى إنهم لا يتعرضون لضغوط مماثلة من الغرب.

في كلمات أخرى: يشكل الإسلام الخطر الأوحى على المستبدين من حكام العالم الإسلامى، وليس على أوروبا. هؤلاء الذين ينظرون إلى المسلمين على أنهم أعداء للدستور وللقوانين، إنما ينكرون على الإسلام نظامه الشامل الخاص بحقوق الإنسان^(١١١). هذا النظام الذى لا يخضع لأى أوامر أو تدابير إنسانية، بل هو نظام إلهى، كما ينكرون عليه

إمكاناته الديمقراطية وسيروته الديمقراطية . وبالإضافة إلى ذلك ، يتفاوضون عن عمد عن حقوق الأقليات التي كفلها الإسلام .

فقد انشغل المشرعون المسلمون على مر القرون بشكل مكثف جدا بالوضع القانوني والالتزامات القانونية للمسلمين المقيمين في بلد غير إسلامي . ومن ضمن هؤلاء المشرعين المواردي (توفي عام ١٠٥٨) الذي أيد الرأي القائل بأن هؤلاء المسلمين يتبعون قوانين البلد المضيف . ويبيح المذهب الحنفي للمسلم المقيم في إقليم مسيحي أن يتلقى الفائدة المالية ، لأن تعاليم القرآن الخاصة بالنظام الاقتصادي لا سبيل لتطبيقها هناك ^(١١٢) . فكيف يوجه الاتهام للمسلمين الألمان - في ظل تشريعات كهذه - بأنهم في مجملهم أعداء للدستور والقوانين؟!

ولكن ، إذا قرئ القرآن خارج سياقه الكلي ، وقلبت صفحاته بحثا عن انتقاص لحقوق الإنسان ملازم للقرآن ، فيجب إذن القيام بالمثل مع العهد الجديد .

وستواجهنا على سبيل المثال بعض النصوص المثيرة للشك في الرسالة الأولى لبولس ، الموجهة إلى أهالي كورثيتوس : « أما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها ، فحسن للرجل أن لا يمس امرأة » (١ / ٧) . أو « ليس للمرأة تسلط على جسدها بل الرجل » . أو « أنت مرتبط بامرأة فلا تطلب الانفصال ، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة » (٢٧ / ٧) .

ومن أقوال بولوس في الرسالة الأولى لمتوتاس : « لتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ولكن لست أذن للمرأة أن تُعلم ولا تتسلط على الرجل بل تكون في سكوت لأن آدم جبل أولاً ثم حواء » (١١ / ٢) . ويمكنني أيضا أن أستشهد متلذذا برسالة بطرس الأولى : « كذلك أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن » (١ / ٣) .

هذا النهج الذي يسعى إلى إثبات خطأ فادح يصاحب الدين المسيحي منذ المهد في حق الديمقراطية ، وكذلك الإشارة إلى عدم توافقها مع إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة ، هو ضرب من الغباء والتضليل ، وبالتالي أمر خطير . فلماذا إذن نتبع النهج نفسه مع الإسلام؟!

ولن يندش أحد ، إذا أقرنا الحقيقة التالية ، واعتقد كذلك أننا لن نجد من يخالفنا الرأي : إن تنمية الاتجاهات المعادية للإسلام وتدعيمها ، يتركان آثارهما في السياسة العليا والقرارات الحاسمة . وأوضح مثال من التاريخ القريب : دولتا الجزائر وهاييتي . تم انتخاب قائدين أصوليين في كلا البلدين ، وذلك عن طريق قنوات ديمقراطية ، وتم قمع هذا

التطور الديمقراطي عن طريق انقلاب عسكري ، وبالتالي حال دون ممارسة الديمقراطية . وقد تدخلت كل من الأمم المتحدة والولايات المتحدة في أحد البلدين ، وهو هايتي ، فأنزلت الولايات المتحدة قوات المارينز إلى أرض هايتي . أما في القطر الآخر ، الجزائر ، فقد تنفست الحكومات الأوربية الصعداء ، حينما أطاح الانقلاب العسكري بعباس مدني ، لأنه أصولي إسلامي ، وليس أصوليا مسيحيا مثل أرستيد في هايتي .

ويقف الصراع في البوسنة - من منظور إسلامي - شاهدا جليا على مبدأ « الكيل بمكيالين » . فلقد تعرض - كما كان الوضع بالنسبة للكويت - عضو صغير في الأمم المتحدة للعدوان والاحتلال من إحدى دول الجوار ، ولكن تدخل الأمم المتحدة اقتصر فقط على منطقة المصالح البترولية .

ونعود إلى البوسنة . فلقد سمى الضحايا بالمسلمين ، ولكن أغفلت وسائل الإعلام تماما الإشارة إلى ديانة المعتدين ، فخلت وسائل الإعلام من الإشارة إلى القتلة الصرب بالمسيحيين الأرثوذكس أو الكروات الكاثوليك . وذلك بالرغم من علم الجميع وإدراكهم لأسباب جرائم الصرب ، وأن تعطشهم المجنون للانتقام من معركة دارت رحاها قبل ٦٠٠ عام في Kosovo Polje ، يزيها ويضرم نيرانها كل من بطريركى الصرب الأرثوذكسى واليونان الأرثوذكسى .

ولقد حرص الغرب دائما على التأكيد بأن سلبيته إزاء المذابح والتطهير العرقى الذى يتعرض له المسلمون في البوسنة والهرسك لا تعود إلى دوافع دينية ، إنما يحكم هذا الموقف أسباب أنانية تأخذ في اعتبارها المصالح الخاصة بالدول ، أى أنها أسباب تتعلق بسياسات الدول . ولكن يعتقد المسلمون كافة أن تحيزا دينيا قد لعب دورا مهما في تحديد مسار الصراع في البوسنة .

ويتشابه هذا الموقف مع فشل الغرب في عام ١٤٥٣ ، عندما سقطت القسطنطينية على يد السلطان العثمانى محمد الثانى (الفاتح) . ونستطيع أن نقرأ بوضوح في كتابات Steven Reinciman أن مشاعر الكراهية التى يكنها الكاثوليك في روما وفرنسيا وباريس للكنيسة الشرقية المرتدة ، المارقة ، وعداءهم لها شكلا العامل الأساسى والحاسم في تخليهم عن روما الشرقية للعثمانيين (١١٣) .

لا يتوهم المسلمون على أى حال أن الغرب ما كان ليتدخل عسكريا وبقوة إذا كان الصرب - بكل ما اقترفوه من الجرائم ضد البشرية مسلمين ، والبوسنيون - بكل ما تحملوه

من آلام - هم المسيحيين . إننا على يقين تام بأن الغرب كان سيشن حربا شعواء على هؤلاء المسلمين المتوحشين الهمج . وكل هذا باسم حقوق الإنسان ، ومبادئ الأمم ، وقيم الإنسانية الغربية .

أما أن يفرض حظر سلاح على البوسنة الكاثوليكية الضعيفة ، فلا أستطيع أن أتخيل وجوده أبداً .

ولقد تجاهل الغرب ، في محاولته حل الأزمة في البلقان ، مبادئ وأسسها حلف شمالى الأطلسي ، ويلجأ إليها دائما . وبناء على هذا ، توصل المسلمون إلى النتيجة النهائية ، وهى عدم الاهتمام واللامبالاة تجاه مصير شعب إسلامى فى أوروبا .

ويلحق هذا رأى ، بطبيعة الحال ، ظلما لبعض السياسيين والعسكريين الذين يتتهجون سياسة عدم الانحياز، وذلك نظرا لاعتبارات موضوعية بعيدة عن الدين . ولقد أطلق سيناتور أمريكى صيحته : « ليت المسلمين درافيل » !! وهذه العبارة تشير إلى اهتمام جماعات السلام الأخضر بالدرا فيل .

ولكن كل هذا لا يغير شيئا فى حقيقة شعور المسلمين تجاه الغرب . فبالرغم من تدخل حلف شمالى الأطلسي (الذى تأخر كثيرا) فى خريف عام ١٩٩٥ ، فإن كثيرا من المسلمين ، خاصة فى العالم الثالث ، يتحدث الآن - وسيتحدث لفترة قادمة - بمرارة لاذعة ، ويتهمك ساخر، عن مفهوم الغرب لحقوق الإنسان والديمقراطية . ولقد سمعت مرارا من شباب عربى أن حق الشعوب - على ما يبدو - له عيون زرقاء وشعر أشقر !!

وأتفهم بطبيعة الحال توجيه العتاب للمسلمين فى ألمانيا من غير المسلمين ، لحساسيتهم المفرطة تجاه تحديد المظاهر المعادية للإسلام . ولكن بالنظر إلى أعمال العنف العديدة ، التى تمارس ضد الأجانب (غالبا مسلمين) ، فإن هذه الحساسية تصبح مفهومة ، خاصة إذا ما تذكرنا الحقبة الاشتراكية القومية فى ماضى ألمانيا القريب . فلم يمر سوى نصف قرن على عصر كان المواطنون الألمان فى وطنهم يتعرضون للاضطهاد والإبادة ، وذلك بأعداد غفيرة ، وتمثلت جريمتهم الوحيدة فى اختلافهم فى الدين والملبس والعادات ، أو حتى لأنهم يتحدثون بإحدى لهجات أوروبا الشرقية .

ولقد سمح وجود عداء للسامية ، وهو ضارب بجذوره فى أعماق أوروبا ومن ضمنها ألمانيا ، بحدوث ذلك . كما أن هذا العداء حال دون وجود رادع أخلاقى يقاوم مثل هذه الجرائم ، ويتصدى لها .

ويتمثل الخوف الأعظم للمسلمين في ألمانيا في احتمال اندلاع ميكانيزم مماثل ، ولكن هذه المرة ، فإنه موجه ضد شعب سامي آخر، ألا وهو العرب ودينهم ، أى عداء للسامية العربية . (قالت أمى ، عندما تلقت رسالتى الأخيرة من مكة : «فليبق عند العرب») .

ونسمع دائما أن تطورا كهذا غير مرغوب فيه . وكم أود أن أصدق هذا ، ولكن لا تكفى النيات الطيبة ، أو الكلمات حتى الصداقة منها ليتحقق هذا . ولكنه يتحقق أولاً بمنع الحديث عن عدم قدرة المسلمين على ممارسة الديمقراطية وعدائهم للدستور، وأنهم لا يكونون أدنى احترام لحقوق الإنسان ، وأنهم يستهدفون إقامة الجمهورية الإسلامية جرمانيستان ، ذات نظام الحكم الدينى .

وإننى لأمل أن تكون التعليقات المعادية للإسلام في ألمانيا في المستقبل أكثر حذراً . وأعتقد أن هذا الأمر بدأ يتحقق بالفعل في بعض الدوائر والمجالات . ولكن على الجانب الآخر، يلحظ المسلمون وأصدقاؤهم تزايد ونمو ظاهرة مقلقة . فلم يعد لاثنا سياسيا أن تتخذ موقفا إيجابيا من الإسلام ، أى أن تبدى بعض التعاطف مع هذا الدين !

استلقت ألكس توكفيل (١٨٠٥ - ١٨٥٩) الأنظار إلى وجود ميكانيزم جماعى ، وآليات ، لمراقبة حرية الرأى والتحكم فيه ، وكذلك في توجيه الرأى العام حتى في الديمقراطيات الليبرالية . وضمّن آراءه هذه وتحليلاته كتابا بعنوان : « الديمقراطية في أمريكا» . وبالفعل ، شهدت أمريكا هستريا في صورة الحرب التى شنها السيناتور جوزيف مكارثي (١٩٠٩ - ١٩٥٧) ، النائب عن ولاية ويسكنسن على « نشاطات غير مشروعة وغير أمريكية» ، كما جاء في كلماته .

وإذا كان التعامل النظرى مع الفكر الاشتراكى اليوم غير محرم ، ولا يمثل جريمة يتعقبها القانون ، فلا يعنى هذا انتهاء أو موت المكارثية . فالمعارض ، معرض اليوم لواجه بالتهمة ذاتها ، ولكن تحت مسميات ومصطلحات أخرى . فلم تعد التهمة أنه ينادى بأفكار « غير أمريكية» ، ولكن تستخدم مصطلحات تدل على أنه لا يتهج « تفكيراً سياسيا سليماً» . ويعرض المرء نفسه لهذه التهمة (القاتلة سياسياً وعلمياً) اليوم في الولايات المتحدة الأمريكية ، إذا ما صدرت منه أدنى بادرة توحى بتساؤل أو تشكيك يدور حول أحد ثلاث محرمات (تابو) :

١ - المساواة بين الرجل والمرأة .

٢ - المساواة بين البيض والزنج .

٣ - ارتباط السياسة الخارجية الأمريكية بمثلتها الإسرائيلية .

* * *

عُقد في شتاء عام ١٩٩٤ بفينا مؤتمر حول « أوروبا والأديان بين الحروب الدينية والتسامح المدني » . ولقد أقر Robert Spaemann بانتشار مناخ غير ليبرالي في أوروبا ، وذلك باسم كونية ليبرالية . وذلك لأن عدم وجود المذهب ، لا يقل خطراً عن وجوده . ومجمل القول إن الليبرالية ، في حقيقة الأمر ، غير متساحة مع غيرها من الأيديولوجيات ، أي أنها كأيديولوجيا مثلها مثل منظومات فكرية أخرى^(١١٤) .

وتمثل هذه الآراء الأرضية الحتمية « لتفكير سياسى سليم » في بلادنا . وتختلف المحرمات من بلد إلى آخر . فلما بدء موقف إيجابى من الإسلام ، لم يصبح بعد خطأ في الولايات المتحدة الأمريكية . أما في ألمانيا وإنجلترا ، فهو بلاشك خطأ فادح ، بل قاتل . (أخبرنى ناشر كتبى بالإنجليزية أثناء زيارتى له في ٢ / ١٠ / ١٩٩٥ ، أن المكتبات الإنجليزية تحجل وتستحى من عرض كتبى في نافذة العرض . فلم يعد عرض كتابات إيجابية عن الإسلام أمراً مقبولاً) .

ولقد وقعت أنا نفسى ضحية لوسائل الإعلام ، وذلك عندما أعلنت دار نشر Diederich في أوائل عام ١٩٩٢ عن صدور كتابى « الإسلام كبديل » ، في نهاية مارس من العام نفسه . فلقد أثار عنوان الكتاب وحده حملة ضدى في وسائل الإعلام خاصة في ARD وبيلد - يوم الأحد - .

وجهت لى هذه الحملة اتهامات عديدة ، منها أننى أؤيد الزواج بأكثر من امرأة واحدة ، وكذلك أؤيد الاعتداء بالضرب على النساء ، وبترا الأيدى ، ورجم الزانى (بيلد ٢٢ من مارس) . بل ادعت المجلة أننى أرغم السيدات اللاتى يعملن معى فى السفارة بالرباط على ارتداء الحجاب (بيلد ٢٩ من مارس) ، وأننى دفعت أحد العاملين معى إلى الموت (بيلد ٥ من إبريل) .

وبلغت هذه الحملة ذروتها في تعليقات نائبة رئيس الحزب الاشتراكى الديمقراطى الألمانى (SPD) ، وتشغل في الوقت ذاته منصب خبيرة الشؤون القانونية بالحزب . وجاءت أولى مقالاتها لتقول : « إن هذا الرجل لا يطاق ولا يحتمل كسفير يمثل بلده » . ودعت وزير الخارجية جنشر لقراءة الكتاب في أقرب فرصة ، ليعمل على الحيلولة دون أن يمثل

هذا الرجل دولتنا (مع أن اليسار ضد الفصل من العمل) . وقالت إن الكتاب يمثل لها «عمل إنسان ساذج مغفل لا يعلم حتى مبادئ دستورنا» .

وعندما طالبت السيدة Daubler - Gmetin وزير الخارجية بقراءة الكتاب موضع الاتهام ، والاطلاع عليه ، لم تكن قد قرأته هي نفسها ، لأن الكتاب لم يكن قد صدر بعد ! ! وعندما تم أخيراً الاستعلام عنى والتحرى عن شخصى ، والاطلاع على الكتاب ، وجدوا أن جميع الاتهامات التى وجهت لى لا أساس لها من الصحة ، وبعيدة كل البعد عن الحقيقة^(١٥) . وصدق القرآن مرة أخرى (السورة ٥٣ : الآية ٢٨) .

تزامنت هذه الأحداث مع حلول شهر رمضان المعظم ، فواصلت صيامى هادئاً مطمئناً . وكنت كثيراً ما أذكر الآية الواردة فى القرآن (السورة ٢٩ : الآية ٢) ، وكذلك (السورة ٤ : الآية ١٣٢) . ولقد احتار الكثير من زملائى من جراء هدوئى تجاه الحملة واسعة النطاق ، التى استهدفت شخصى ، ولكنى كنت على يقين - وما زلت - بأن هذه الادعاءات كانت ترمى إلى ما وراء شخصى ، فهى تستهدف الإسلام عامة والمسلمين فى ألمانيا خاصة .

كنت قد أخطأت بالفعل ، من وجهة نظرهم ؛ فموقفى الإيجابى من الإسلام كان عام ١٩٩٠ مقبولاً سياسياً ، ولكنه لم يعد كذلك عام ١٩٩٢ . وهذا هو التفسير الوحيد لتجاهل ممثلى وسائل الإعلام والسياسيين للمبدأ الأساسى الذى يحكم عملهم : « استمع إلى الطرف الآخر » ، وذلك فى أثناء حملة الاتهامات التى وجهت لى . لم تكن هناك حاجة أو ضرورة لسماع دفاعى ، لأننى كنت قد ارتكبت الجرم الأفظع ، بل وصرحت به : « إننى مسلم » !

وتكرر الموقف ذاته فى خريف عام ١٩٩٥ : محاولة ممارسة الضغوط من خلال وسائل الإعلام ، لفرض موقف « لائق سياسياً » فى سياق يكون الإسلام طرفاً فيه .

واستهدف الأمر هذه المرة شخصية بارزة ، ذات مكانة رفيعة ، وهى شيخ وكبيرة علماء الإسلام الألمان أنا ماريا شيميل Annemarie Schimmel (Bonn) . فلقد جرؤ القائمون على الأمر على منحها جائزة السلام ، لاتحاد الكتاب الألمانى ، لعام ١٩٩٥ ، أى لعالمة يربطها بالإسلام صلات وثيقة ، ولها إسهامات فى التصوف الإسلامى . . عالمة تحظى باحترام عظيم فى بلدان العالم الإسلامى وبخاصة باكستان . وكانت العالمة قد أعلنت رفضها لفتوى قتل سلمان رشدى ، التى أصدرها الخوimini ، ووصفتها بأنها « مروعة »

و«خيفة». وكان هذا الحكم القانوني موقفاً سياسياً ومقبولاً من الرأي العام. ولكنها أقرت في الوقت نفسه بأن رشدى «جرح بأسلوبه مشاعر عدد كبير من المؤمنين». «لقد رأيت بالفعل مسلمين يكون بسبب ما ورد في هذا الكتاب». فهي ذاتها غير المسلمة الباحثة في تاريخ الأديان، قد تعرضت لصدمة شديدة، مع أن الأمر كله يدور حول رواية. وكان إقرار الحقيقة هذا، والتعبير عن مشاعرها أمراً مرفوضاً سياسياً، ولا يلقى استحساناً لدى الرأي العام.

أما تلميذها وزميلها Gernot Rotter ، والذي أجرى حديثاً معها، نشر في مجلة Spiegel، فقد رفض وصف تأثير «آيات شيطانية» في العالم الإسلامى، قائلاً: «إننى ما زلت على رأى: فمحمد لا يتعرض حقيقة لإهانة في كتاب رشدى» (١١٦).

وعلى أثر ذلك، اشتعلت حملة في وسائل الإعلام، وحملة للكتاب، استمرت لعدة شهور، تستهدف شيميل والحيولة دون منحها الجائزة، واستمرت هذه الحملة حتى الموعد المحدد لتسليمها الجائزة في ١٥/١٠/١٩٩٥.

وغلب على الحملة مقولة إن هذه الشخصية لا تطاق كعالم، وإنما تمارس مادتها، أى الإسلام، بكثير من التعاطف غير المسموح به على الصعيدين السياسى والعلمى.

ولقد شغلت المجادلات حول جائزة السلام الرأي العام في ألمانيا حتى اليوم المقرر لتسليمها. ولا بد أن نفهم حرص الرأي العام على متابعة مجريات الأمر، نظراً للدلالة الخطيرة التى كان الاتحاد العام للكتاب سيحملها إذا ماسحب جائزته تحت ضغوط معينة، إذ سيكون هذا الموقف - الذى لم يحدث - بمثابة إنذار وتهديد لمكانة حرية الفكر والرأى العام والتعبير، التى يتمتع بها المرء في ألمانيا.

ولقد حاول رئيس قسم الدراسات الشرقية في بون، ستيفان فيلد، في حديث أدلى به للإذاعة يوم ١٤/١٠/١٩٩٥، استلفات الأنظار إلى المحاولة الواضحة لمعاقة شيميل على توصيلها لأخبار سيئة، أى غير مرغوب فيها، كما جرت العادة في العصور القديمة. وكان موقفه هذا موقفاً رقيقاً بين الزملاء.

وكان بمقدور الأستاذ Wild توجيه اتهام لـ Gernot Rotter ، مفاده عجرفة تجعله يرى في أوروبا مركزاً أوحداً للكون.

كان رئيس الدولة مدركا لحقيقة المناخ الفكرى في ألمانيا، عندما أعلن عن قيامه بتسليم الجائزة بنفسه يوم ١٥/١٠/١٩٩٥، في كنيسة باول في مدينة فرانكفورت.

ولم يأت حديث عمدة المدينة، Betra Roth من فراغ، عندما تحدثت عن تصوير الإسلام كعدو. كذلك لم يحتج الرئيس جزافاً في خطبته الاحتفالية على المحاولات التي تمارسها وسائل الإعلام لفرض آراء بعينها على الرأي العام. وكنت أتمنى أن يشير إلى الظاهرة «بالألمانية»، لأن ظاهرة عدم التسامح الفكري استوطنت ألمانيا فعلاً.

إننى أتساءل :

إلى أين سيصل بنا المطاف، إذ ما كملت الأفواه في ألمانيا، لأنها تتحدث عن حقائق لا تتوافق مع أيديولوجية بعينها؟ ماذا سيحل بنا، إذا ما استباح الأساتذة والعلماء الألمان الحق لأنفسهم في إملاء مشاعر بعينها على مليار من البشر (غير المرغوب فيهم)؟!

فليحفظ الله ألمانيا - ليس مسلميها فحسب - من جراء عدم تسامح الأصوليين الليبراليين، وتصويرهم الإسلام عدواً!

الخاتمة

لا يتبع الكتاب نظاما محددًا سلفًا. لكن بالرغم من ذلك، فإنه يمكن للقارئ أن يتبين توجهها أساسيا في تقسيم فصول الكتاب، ألا وهو « أركان الإسلام الخمسة ».

فيتضمن الفصل الثانى الشهادة، ويدور الفصل الثالث حول الصلاة، والرابع حول الزكاة. ويتحدث الفصل الخامس عن الصيام. أما الفصل الأول، فموضوعه الحج.

ويتطرق الكتاب، بالإضافة إلى ذلك، إلى أهم الأوامر والنواهي التى تصوغ ممارسات الدين الإسلامى. فيناقش الفصل الرابع مسألة تحريم الخمر والمخدرات، ويستعرض الفصل السادس النهى عن تناول لحم الخنزير، وكذلك النحر وفق ما تمليه الشريعة الإسلامية.

أما الإيمان بالقضاء والقدر، فيتناوله الفصل السابع. ويدور الفصل الثامن حول الأضحية. ويحتل الحديث عن الزواج فى الإسلام المساحة العظمى من الفصل التاسع. أما الفصل الحادى عشر، فيتناول العمل على نشر الدين، وتجهيز المتوفى ودفنه فى الإسلام، وكذلك الاستعداد للتضحية بالنفس فى سبيل الله ودينه (الفصل الأخير : جهاد).

وبالرغم من طابع السيرة الذاتية، الذى يتصف به الكتاب، فإنه يصلح فى المقام الأول كدليل عملى للطريق إلى الإسلام، أى فى سبيل الله.

تعليقات الهوامش

١- Koran ، هي الكتابة الصوتية للكلمة العربية : قرآن (الذي يقرأ) . والكلمة تنطق في مقطعين منفصلين . ويتكون القرآن من ١١٤ سورة ، وما يزيد على ٦٠٠٠ آية ، وهي مجمل الوحي الإلهي الذي تنزل على الرسول محمد ، منذ عام ٦١٠ م حتى وفاته في عام ٦٣٢ م . ولا يتطابق الترتيب الزمني لنزول الآيات مع الترتيب الذي نقرأه اليوم في القرآن . فترتيب آيات القرآن تم تحديده في شكله النهائي - الذي بين أيدينا اليوم - عام ٦٤١ م .

٢- الحج ، كلمة عربية تشير إلى الرحلة المقدسة الكبرى إلى مكة وما حولها . والحج فريضة يجب على المسلم القادر أداؤها مرة واحدة في حياته ، وذلك في ميقات محدد ، هو شهر ذي الحجة ، أي الشهر الثاني عشر من الشهور القمرية العربية . أما العمرة ، فهي رحلة إلى الأماكن المقدسة في أي وقت من العام . ويمكن كذلك أداء العمرة مع الحج في الوقت نفسه . ويقوم غالبية الحجاج والمعتمرين بزيارة مسجد وقبر الرسول في المدينة .

٣- للاطلاع باستفاضة على مناسك الحج والعمرة ، انظر : كتاب « رحلة الحج إلى مكة » لمؤلفه أحمد فون دنفر ، والصادر في ميونخ عام ١٩٨٧ ، وكذلك : « الدليل إلى مكة والمدينة » من سلسلة كتاب « السفر اليوم » ، مجلد ٤٩ ، الصادر في باريس عام ١٩٨٢ .

أما عن رحلات الحج في القرن ١٩ ، فيمكن الرجوع إلى كتاب : « في مكة والمدينة » لمؤلفه Johann Ludwig Burkhardt ، الصادر في برلين عام ١٩٩٤ ، وكذلك : « رحلة حجي إلى مكة » لمؤلفه Von Maltzan Heinrich ، الصادر في توينجن عام ١٩٨٢ ، وكذلك على وجه الخصوص في كتاب : ريتشارد بيرتون الذي يحمل عنوان « قص شخصي حول رحلة الحج إلى مكة والمدينة » ، والصادر في جزايرن عام ١٩٦٤ في لندن ونيويورك .

٤- Carsten Niebuhr : « وصف الرحلات إلى الجزيرة العربية ، وبعض البلدان المجاورة » . زيورخ (١٩٩٢) ، ص ٣١٨ .

٥- مراد هوفمان : « درب فلسفي إلى الإسلام » . الطبعة الثانية ، كولونيا ، (١٩٨٣) .

٦- هرمان هسه « طُرق إلى الداخل » ، فرانكفورت (١٩٧٣) . وكذلك : « لعبة البلورات الزجاجية » (١٩٤٣) ، طبعت عديدة في دار نشر Suhrkamp .

- ٧- صحيح البخارى : « السنوات الأولى للإسلام » (ترجمة محمد أسد) ، جبل طارق (١٩٨١).
- فى متن ١ الخاص بالمقطع ١١ (ص ١٦٨) ، تردد روايتان مختلفتان لاعتناق عمر للدين الإسلامى .
- ٨- الغزالى : « المنقذ من الضلال » ، (دار نشر Felix Meiner ، رقم ٣٨٩) . هامبورج (١٩٨٨) ، ص ٦٠ و ص ٤٢ .
- ٩- محمد أسد : « الطريق إلى مكة » (١٩٥٤) ، جبل طارق (١٩٨٢) ص ٣٥٠ و ص ٣٦٠ .
- ١٠- كريستيان هوفمان : « بين كافة الكراسى » ، بون (١٩٩٥) ، ص ٢٥ .
- ١١- Les Accord d'Evian : Benyoucef Ben Khedda الطبعة الثانية ، الجزائر (١٩٨٧).
- ١٢- من يهتم بخطوات ومصطلحات الباليه الكلاسيكى ، سيجد خير دليل فى كتاب : « أسس الرقص الكلاسيكى » مؤلفه A.J. Waganowa ، (ترجمة : Jochen Scheibe) ، والصادر فى برلين عام ١٩٦٤ .
- وكذلك كتاب : « الباليه الكلاسيكى » تأليف : Muriel Stuart / George Balanchine ، نيويورك (١٩٥٢) .
- ١٣- كاترين جيلبرت وهلموت كونز : « تاريخ علم الجمال » ، بلومنجتن ، إنديانا ، عام ١٩٥٣ .
- ١٤- فلفيد هوفمان : « الباليه . الموضوعى وغير الموضوعى » ، فى : « المسرح والعصر » ، فوبرتال (١٩٦٥) ، عدد ٦ .
- ١٥- فلفيد هوفمان : « عن الجمال فى الرقص - أسس جماليات الباليه » ، فى « أرشيف الرقص » كولونيا (١٩٧٣- ١٩٧٤) العدد ٦- ٨ . ونشرت كذلك مصورة تحت عنوان « عن الجمال والرقص . نحو أسس جماليات الباليه » باللغة الإنجليزية فى « آراء حول الرقص » ، نيويورك (١٩٧٣) العدد ٥٥ .
- ١٦- نقلاً عن : « إيفا بركون » : « نظريات عن التأثير العربى فى الموسيقى الأوربية فى العصور الوسطى » صدر فى الدورف عام ١٩٧٦ ، ص ١١٠ .
- ١٧- هوجوفون هوفمانستال / كارل بوركهاردت : (رسائل) فرانكفورت (١٩٥٧) ، خطاب بتاريخ ١٥/١/١٩٢٩ .

- ١٨- انظر ١٧ ، خطاب بتاريخ ١٢ / ١ / ١٩٢٩ .
- ١٩- ريتشارد سوبرن : « وجود الله » شتوتجارت (١٩٨٧) .
- ٢٠- انظر : وصف اعتناقي الإسلام في كتاب « الحمد لله ، مسلم ذو أصول غربية » في : « ألمان هداهم الله » ، كولونيا (١٩٨٢) .
- ٢١- تجمد المعنى ذاته في الآيات التالية : سورة ٦ الآية ١٦٤ ، سورة ١٧ الآية ١٥ ، سورة ٣٥ الآية ١٨ ، وسورة ٣٩ الآية ٧ .
- ٢٢- محمد رسول : « الصلاة في الإسلام » ، كولونيا (١٩٨٣) .
- ٢٣- هذا الوضوء لا يفي بالغرض في حالتنا المعاصرة الزوجية والحيف عند المرأة ، ولهذا يلزم الغسل .
- ٢٤- انظر لتفصيلات أدق : مراد هوفمان : « يوميات مسلم ألماني » الطبعة الثانية . كولونيا (١٩٩١) ص ١٥٦ .
- ٢٥- أنا ماري شيميل : « لك الملك وحدك : صلوات وأدعية إسلامية . فرايرج (١٩٧٨) ، و«فلتكن مشيتك - أجمل الأدعية الإسلامية » . بوندورف (١٩٩٢) .
- ٢٦- Islam and the Perennial Philosophy : Frithjof Schuon لندن (١٩٧٦) .
- ٢٧- Frithjof Schuon : « أن نفهم الإسلام » ، ميونخ (١٩٨٨) ص ٨٥ . وانظر كذلك : « أدعية الإسلام » لمؤلفه عادل تيودور خوري . ماينز (١٩٨١) .
- ٢٨- خطوات تحريم المخدرات ، انظر هلموت جتيه : « القرآن وتفسيره » شتوتجارت (١٩٧١) ص ٢٦٤ ، ص ٢٧٦ .
- ٢٩- سورة ٢ آية ٢١٩ ، سورة ٤ آية ٤٣ ، سورة ٥ آية ٩٠ .
- ٣٠- لتفاصيل أخرى ، انظر « الصيام » ، منشورات المركز الإسلامي بميونخ عدد ٥ ، ميونخ (١٩٧٨) .
- ٣١- يبدأ اليوم الإسلامي بغروب الشمس .
- ٣٢- انظر G.S.P. Freeman - Grenville : التقويم الإسلامي والمسيحي ، الطبعة الثانية (١٩٩٥) .
- ٣٣- انظر عبد الحميد بنتشيكو : « مواقيت الإسلام » ، (باللغات الإنجليزية ، الفرنسية ، العربية) (١٩٩١) .

٣٤- انظر Hans Heinrich Reckeweg : « لحم الخنزير والصحة » ، بادن- بادن (١٩٧٧) .

٣٥- يستطيع الإنسان الأشول أن يأكل بيساره .

٣٦- أسس وقواعد الطعام وآداب المائدة واردة في القرآن : (السورة ٥ الآيات من ٣- ٥ ، سورة الآية ١٤٥ ، سورة ٧ الآية ٣١ ، سورة ١٦ الآيات من ٦٦- ٦٩ ، سورة ١٢٤ الآية ٦١ ، سورة ٣٣ الآية ٥٣ ، السورة ٨٠ الآيات من ٢٤- ٣٢) . وكذلك أحاديث الرسول في صحيح البخارى (ترجمة م.م. خان) ، ٩ أجزاء ، الطبعة الثالثة ، شيكاجو (١٩٧٧) ، الجزء ٧ كتاب ٦٥ (عن الطعام) ، وكتاب ٦٩ (عن الشراب) . وكذلك في صحيح مسلم (ترجمة عبد الحميد صديقى) ، ٤ أجزاء لاهور (١٩٨٠) ، الجزء ٣ في كتاب رقم ٢١ أحاديث رقم : ٥٠٣٧ ، ٥٠٣٩ ، ٥٠٩٧ و ٥١٢١ .

وتجدر الإشارة كذلك إلى كتاب أبى حامد الغزالي : « إحياء علوم الدين » (ترجمة : مولانا فضل الكريم) لاهور الجزء ٣ ، كتاب ٣ ، الفصلان الثانى والثالث .

وكذلك هانز كندرمان : عن العادات الطيبة لتناول الطعام والشراب- الكتاب ١١ من العمل الرئيس للغزالي . ليدن (١٩٦٤) .

وأوستروب : آداب وذوقيات شرقية . أشكال وصيغ فى الإسلام . ليبزج (١٩٢٩) .

أما التهذيب والانحطاط فى بلاط الخلفاء العباسيين ، فنقرؤهما فى كتاب ابن الوصا : « كتاب الثوب المطرز » (ترجمة ديتير بلمان) ، ليبزج (١٩٨٤) ، خاصة الجزء الثانى الفصل ٢٩ (الأخلاق التى يجب أن يتبعها عليه القوم عند تناول الطعام) ، والفصل ٣٠ (عن سلوك عليه القوم عند تناول الشراب) .

٣٧- يتبع بروتوكول البلاط المغربى العادات الغربية وليست السنة .

٣٨- كانت النتيجة مسودة لم تطبع بعد : بلبن هوفمان : المطبخ الإسلامى ١٥٠ أكلة من المغرب والمشرق وتركيا .

٣٩- لقد رأى الفيلد مارشال هلموت فون ملىته عادات الأكل هذه وغيرها أثناء خدمته كمستشار عسكرى للسلطان العثمانى . ولقد قام بوصفها بدقة . انظر : هلموت فون ملىته : « فى ظل الهلال . وقائع وأحداث فى تركيا القديمة ١٨٣٥- ١٨٣٩ » توبنجن (١٩٧٩) ص ٨٥ ، ص ١٠٥ ، ١٣٦ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٨١ ، ٢١٦ ، ٢٢٧ ، ٢٧٣ ، ٢٩٢ .

٤٠- لتفاصيل أخرى ، انظر أنيس محمد كرديا : « الطريقة الإسلامية للنحر » فى « الإسلام » ، ميونيخ (١٩٩٠) العدد ٢- ٤ .

- ٤١- انظر مراد هوفمان : « الإسلام كبديل » . الطبعة الثالثة ، ميونيخ (١٩٩٥) ، فصل «القدرة» .
- ٤٢- انظر ألويس شتادمُلمر : « أشفنبرج أثناء الحرب العالمية الثانية : قذف بالقنابل ، احتلال ، تسليم » أشفنبرج (١٩٧٠) .
- ٤٣- انظر : محمد رسول : سورتا الحرز . (المعوذتان) كولونيا (١٩٨٢) .
- ٤٤- انظر : الزكاة : سلسلة مطبوعات المركز الإسلامى بميونخ ، العدد ٦ . ميونخ (١٩٧٨) .
- ٤٥- يتناول غانى غوس إشكالية اقتصاد بلا فوائد ربوية بشكل رائع فى كتابه : « الفكر الاقتصادى فى الإسلام » ، شتوتجارت (١٩٨٦) ، ص ٦١ .
- وكذلك سيد نواب ناقفى فى كتابه الصادر باللغة الإنجليزية : « الأخلاقيات والاقتصاديات » ، لايبكستر (١٩٨١) . وكذلك عمر شابرا : « الإسلام والتطور الاقتصادى » إسلام آباد (١٩٩٣) .
- ٤٦- لنظرة شاملة لمجمل إشكالية نظام اقتصادى إسلامى ، انظر : خورشيد أحمد فى : إبراهيم أبو رابى (ed) « عودة الروح الإسلامية » ، إسلام آباد (١٩٩٥) . و « استبعاد الربا من الاقتصاد » ، إسلام آباد (١٩٩٤) .
- ٤٧- عن حقوق المرأة فى الإسلام ، انظر : مراد هوفمان : « الإسلام كبديل » (٤١) ص ١٦٣ - ص ١٨٥ .
- ٤٨- لقد استعنت بترجمات القرآن التالية : محمد على : « القرآن المقدس » ، زيورخ (١٩٥٤) . يوسف على : « القرآن المقدس » (باللغة الإنجليزية) ، الطبعة ١٢ ، برنتوود (١٩٨٩) . محمد أسد : « رسالة القرآن » (باللغة الإنجليزية) ، جبل طارق (١٩٨٠) . جاك بيرك : « القرآن » (باللغة الفرنسية) ، باريس (١٩٩٠) . حمزة بوباكير : « القرآن » (باللغة الفرنسية) ، الطبعة الثالثة ، باريس (١٩٨٥) . لازاروس جولد شميت : « القرآن » (١٩٢٠) فيزيادان (١٩٩٣) . محمد حميد الله : « القرآن المقدس » (باللغة الفرنسية) ، الطبعة الثالثة عشرة ، برنتوود (١٩٨٥) . ماكس هنينج : « القرآن » ، ليبزج (١٩٠١) . عادل خورى : « القرآن » ، جُتيرسلوه (١٩٨٧) . دينيس ماسون : « القرآن » (باللغة الفرنسية) باريس (١٩٦٧) . دينيس ماسون وصبحى الصالح : « محاولة لتفسير القرآن » (باللغة الفرنسية) ، القاهرة- بيروت (١٩٨٠) . صدوق مازغ : « القرآن » (باللغة الفرنسية) ، باريس (١٩٨٥) . روى باريت : « القرآن » ، شتوتجارت (١٩٧٩) . محمد رسول : « القرآن الكريم » ، الطبعة السابعة ، كولونيا (١٩٩٥) . مجموعة من المترجمين : « القرآن المقدس » (باللغة الفرنسية) ، المدينة (١٧٨٣) . م . سافارى : « القرآن » (باللغة الفرنسية) باريس (١٨٣٩) .
- ٤٩- هوفمان : انظر رقم ٤١ ص ١٧٨ .

٥٠ - لقد أصدرت دار نشر برتلمان كتاباً ملونا ، يجدر بكل معنى أن يقتنيه . جُثير سلوه (١٩٨٩) .

٥١ - عن النشأة الأولى للجماعة الإسلامية في ألمانيا ، انظر : كتاب م . س . عبد الله (هربرت كرافنكل) : « تاريخ الإسلام في ألمانيا » ، جراتس (١٩٨١) . و« هلال وسط نسر بروسيا » ، ألتنبرج (١٩٨٤) . و« موجز لتاريخ الأقلية الإسلامية بألمانيا » ، ألتنبرج (١٩٨٧) .

٥٢ - كلاوس جنزيكه : « مفتى القدس أمين الحسيني والاشتراكيون القوميون » . فرانكفورت ، (١٩٨٨) .

٥٣ - نشرت قائمة تشمل الترجمات المختلفة للقرآن ، وفق ترتيب أبجدي ، على الصفحات من ٢١٣-٢٣٥ من بيبليوجرافيا العالم لترجمات معاني القرآن المقدس ، المطبوعة في الأعوام بين ١٥١٥ حتى ١٩٨٠ . وهذه الببليوجرافيا أصدرها معهد الأبحاث الدولي للتاريخ-الفن والثقافة الإسلامية القائم بيلديز-إسطنبول .

كما تتضمن مقدمة محمد حميد الله (انظر أعلى ٤٨) قائمة مرتبة زمنياً لترجمات القرآن .

٥٤ - انظر السلسلة المكونة من ١٩ جزءاً ، والتي تحمل عنوان « الإسلام وجوته » ، بقلم أحمد فون دنفر ، والمنشورة في جريدة الإسلام ، ميونخ (١٩٩٠) ، عدد ١-١٩٩٤ ، وعدد ٤ ص ٢٨ لعام ١٩٩٠ ، ففي عمل جوته « الشعر والحقيقة » يقول : « ما كنت لأعتبر محمداً محتالاً أبداً » .

لقد سبقنا جوته حتى في هذا . انظر أعمال جوته (دار نشر إنزل) ، فرانكفورت (١٩٩٣) ، المجلد ٥ ، ص ٥٦٩ .

٥٥ - فريديريك روكيرت : « القرآن » ، فرانكفورت (١٨٨٨) ، إعادة طبع هلدسهام (١٩٨٠) .

٥٦ - محمد رسول (انظر أعلى ٤٨) ، والترجمة الجماعية التي قامت بها دار نشر بافاريا SRD بميونخ في ٥ أجزاء (١٩٩٦) .

٥٧ - سيل . باريس (١٩٨٦) .

٥٨ - دار نشر المكتبة الإسلامية ، كولونيا (١٩٨٢) .

٥٩ - نقلاً عن ليزابث روشيه ، وفاطيمة شرقاوي : « من عقيدة لأخرى » ، باريس (١٩٨٦) ص ٢٠ .

٦٠ - أحمد فون دنفر : (ed) « الإسلام هنا واليوم » ، كولونيا (١٩٨١) ص ٧٣ .

٦١ - نشر النص كاملاً في جريدة : الإسلام ، ميونخ ، (١٩٩١) العدد ٢ .

٦٢ - أما ما يجب إيجازه ، فتدلنا عليه قراءة الكتب الآتية : حسين أمين : « كتاب المسلمين »

(باللغة الفرنسية) ، باريس ، (بناءً على الطبعة العربية الصادرة عام ١٩٨٣) . طه جابر : « القرآن والسنة - عنصر الزمان والمكان » ، هرنند (١٩٩١) (باللغة الإنجليزية) . محمد أسد : « الدولة والحكومة في الإسلام » (باللغة الإنجليزية) ، جبل طارق (١٩٦١) . و «قانوننا هذا» ، جبل طارق (١٩٨٧) . محمد كاريال : « المنح الدراسية الغربية والصحة الإسلامية في العالم العربي » ، المنشورة في المجلة الأمريكية للعلوم الاجتماعية الإسلامية ، هرنند ، الجزء ١٠ ، العدد ١ ، ربيع عام ١٩٩٣ . عمران أحسن خان نيازي : « نظريات في الشرع الإسلامي - منهج الاجتهاد » إسلام آباد (١٩٩٤) . عبد الحميد أبو سليمان : « نحو نظرية إسلامية عن العلاقات الدولية » ، الطبعة الثانية ، هرنند (١٩٩٣) . وإسهامى الخاص : « إسلام عام ألفين » ، القاهرة (١٩٩٥) ، متوفر باللغة العربية فقط .

٦٣- عنوان المعهد المركزى إسلام - أرشيف ألمانيا : سويست ٥٩٤٩٤ ش بريدر رقم ١٦ . ت ١٤١١٦ (٢٠٢١) . وتصدر عن هذه الدار «المجلة المسلمة» المدير : م . س . عبد الله .

٦٤- عنوان المركز الإسلامى (الشيعى) وجامع الكبير التابع له : ش : شونه أوسنريشت ٣٦ ، هامبورج ٢٢٠٨٥ . ت : ٤٧٨٠٤١ (٠٤٠) . ويدير المركز د . على عمارى . ويصدر عنها جريدة «الفجر» ت (٢٢١٢٢٠) .

٦٥- المقصود هنا : جماعة الطرق الصوفية بألمانيا ، التى أسسها الألمانى حسين عبد الفتاح فى زالتسها وزن بشمالى ألمانيا ، ويصدر عنها مجلة « صوفى » .

أما دار نشر تريبان (يعنى العمامة « مترجم ») فى بوندورف فى منطقة الغابة السوداء ، فتتبع طريقة النقشبندى . انظر تعاليم الصوفى ناظم عدل الحقانى التى صدرت عن هذه الدار ، فى كتاب يحمل عنوان : « درب رفقاء الطريق » ، بوندورف (١٩٩١) .

العنوان ش شول رقم ١٥ بوندورف ٧٩٨٤٨ ت : ٩٤١٥ (٠٧٦٥٣) .

٦٦- انظر ميثاقه أئسلمزل : « ٤٠ يوما - تقرير عن تجربتى وسط جماعة دراويش تقليدية » ميونخ الطبعة الثانية (١٩٩٥) .

٦٧- « الإسلام » ، شارع فالنر رقم ١-٥ ميونخ ٨٠٩٣٩ . ت : ٦٢ / ٣٢٥٠٦١ (٠٨٩) .

٦٨- دار نشر المكتبة الإسلامية ، ص . ب ٨٣٠١٣٥ . كولونيا ٥١٠٣٤ . ت : ٦٠٣١١١ (٠٢٢١) . مدير الدار : م . ا . رسول .

٦٩- دار نشر SRD ، بافاريا : ص . ب ٤٣١٠٢٩ . ميونخ ٨٠٦٤٠ . ت ٣٩٢٠٨٨ (٠٨٩) مدير الدار : د . ا . خفاجى .

٧٠- رابطة المسلمين الألمان . ص . ب . ٢٠٢٢١٧ . هامبورج ٢٠٢١٥ . مدير الأعمال :
عبدالله بوريك Abdullah Borek .

٧١- قام ا . د . محيي الدين لودن ، عام ١٩٨٩ ، بتوجيه الدعوة للعمل في هذه المنظمة في
جريدة « الإسلام » ، العدد ١ ، والتي تصدر في ميونخ . ولكن دعوته ذهبت أدراج الريح .

٧٢- بيت / دار الإسلام : ش شيلر رقم ٤٦ . ليتزلباخ ٦٤٦٥٠ ، ت : ١٣٤٨ (٠٦١٦٥) .
المدير : محمد صديق .

٧٣- تكونت عام ١٩٨٨ ، ويقوم تيلمان شايبله برعايتها ، وترفع شعار : « الله أكبر - على
استعداد دائم » . وشعارهم يحوطه هلال ونجمة خماسية .

٧٤- هذه المؤسسة ، تتعاون مع المؤسسة المماثلة لها في لندن : معونة المسلم . ولقد قامت
المؤسسة بتوفير المواد الغذائية والأدوية للاجئين من البوسنة والسودان . العنوان : ص ب ١٦٠٧ ،
جارشنج ٨٥٧٤٠ . ت : ٣٢٦١٩٨١ (٠٨٩) . رقم حساب لتلقى المعونات : بوستجيرو أمت
فرانكفورت ، رقم حساب ٦٠٤-٦٥٦٩ (BLZ ٥٠٠١٠٠٦٠)

٧٥- أعلن أحمد فون دنفر وقتها ، أن فتوى الخوميني غير ملزمة لأي فرد ، وأن حكم الخوميني
يستند إلى خطأ قانوني ، حيث إن تهمة الردة لا يجب أن تتساوى مع الخيانة العظمى . ولقد ذكر في
رسالة عامة قوله : « نحن لا نرحب بتهديد القتل الصادر عن إيران » . انظر مجلة : الإسلام ، ميونخ
(١٩٨٩) ، عدد ١ (واحد) ، ص ٩ وص ١٩ .

٧٦- انظر أحمد فون دنفر (ED) : الإسلام هنا واليوم . أوراق من لقاءات المسلمين المتحدثين
بالألمانية ١-١٢ (١٩٧٦-١٩٨١) كولونيا : (١٩٨١) .

٧٧- أحمد فون دنفر . انظر أعلى (٧٦) ص ٣٢ .

٧٨- انظر : دراسات في الأبحاث الدولية للكتب المدرسية ، مجلد ٥٣ : « الإسلام في الكتب
المدرسية في جمهورية ألمانيا الاتحادية » . هانز فوكنج ومجموعة من الباحثين : « تحليل لكتب الدين
الكاثوليكية وتناول للإسلام » ، براونشفايج (١٩٨٨) .

٧٩- عبد الجواد فلاتوري (ED) : « الإسلام والتدريس بالمدارس . مساهمات للتربية المتداخلة
الحضارات في أوروبا » . براونشفايج (١٩٩١) .

٨٠- جريدة فرانكفورت الألمانية بدءاً من ٢١ / ٥ / ١٩٨٤ .

٨١- المركز الإسلامي بأخن (مسجد بلال) ، ش بروفيسير بيرليه رقم ٢٠ ، ت ٨٢٠٣٣٠٣٤
(٢٤١) . المدير : العطار . المسئول عن الحوار والمجال العام : أيمن مازيك .

مقاومة الخضمر لبناء مسجد جديد ، انظر : مجلد « دى تسايت » عدد ٤٢ ، تاريخ ١٢ / ١٠ / ١٩٩٠ .

٨٢- الأصل فى هذه الفكرة رسم كاريكاتير هولندى .

٨٣- تكفين المتوفى ، ووضعه فى نعش ، ودفنه فى تابوت ، يطيل من عملية تحليل الجثة ، وتصل بها إلى سبع لعشر سنوات . انظر أحمد الخليفة : « الدفن فى الإسلام » ، مجلة « الإسلام » ، عدد ٣ ميونخ (١٩٨٩) .

٨٤- فولفجانج جنتر لرش : FAZ ~ تاريخ ١٢ / ١ / ١٩٩٤ .

٨٥- المجلس المركزى لمسلمى ألمانيا . ش فوجلز انجر ، رقم ٢٩٠ . كولونيا ٥٠٨٢٥ ت / فاكس : ٥٤٢٦١٦ (٠٢٢١) / ٢٤٤٣٤ (٠٢٤٠٣) .

٨٦- طبقا للبيانات الرسمية ، يتم فى تركيا بناء جامع جديد كل ٦ ساعات ، وذلك بالجهود الأهلية . وكثير من هذه الأموال المستخدمة فى بناء المساجد مصدره الأتراك الذين يعيشون فى ألمانيا .

٨٧- انظر : أرنولد هوتنجر : الله اليوم . زيورخ (١٩٨٠) .

٨٨- جوته : مبادئ وتأملات . رقم ١٢١ .

٨٩- أحمد فون دنفر- انظر ٧٦ ص ٦٩ .

٩٠- دار نشر المكتبة الإسلامية . كولونيا (١٩٨٤) .

٩١- عن مشكلات المسلمين الجدد مع عائلاتهم ، انظر مراد هوفمان : « كيف أخبر أمى » فى مجلة « الإسلام » ميونخ (١٩٨٥) العدد ٥ .

٩٢- دار نشر المكتبة الإسلامية ، كولونيا (١٩٨٥) الطبعة الثانية (١٩٩١) .

٩٣- يمكن للمهتم بإشكالية هذا الحوار ومده ، أن يرجع إلى : موريس بورمانس ، وكتابه : « دروب وسبل للحوار المسيحى-المسلم » . وإسماعيل راجى الفاروقى : « ثلاثية الإيمان الإبراهيمى » هرندون الولايات المتحدة ، الطبعة الثالثة (١٩٩١) . وميشيل ليلونج : « إذا ما كان الرب أراد . . . » ، باريس (١٩٨٦) . ومراد هوفمان : « عن الحوار المسيحى المسلم » ، فى « الإسلام » ، ميونخ (١٩٨٦) ، العدد ٦ . وباول شفارتسناو : « علم القرآن للمسيحيين » ، شتوتجارت (١٩٨٢) .

٩٤- باريس (١٩٨٨) . وكانت النسخة الألمانية قد نشرت قبل ذلك عام ١٩٨٥ ، فى زيورخ ، تحت عنوان : « ما الذى نتمسك به ؟ » .

٩٥- لم يتمكن سوى خمسة أحبار من أتباع المسيحية الغربية الأريسية من الحضور .

٩٦- قد يكون هذا اسماً مستعاراً لأوجوست ملر (أستاذ الاستشراق) .

٩٧- فرانسيس فوكوياما : « نهاية التاريخ والرجل الأخير » . نيويورك (١٩٩٣) . ولقد نشرت المقالة عام ١٩٩١ .

٩٨- س . م هانتختون : « صدام الحضارات » ، فى « شئون خارجية » ، المجلد ٧٢ ، العدد ٣ ، صيف ١٩٩٣ . نشر قبلها مقال : « جذور الغضب الإسلامى » لكاتبه برنارد لويس (« الأطلنطى » ٢٦٦ ، العدد ٣ ، سبتمبر عام ١٩٩٠) ، والذي تناول فيه الصراع بين الحضارتين [الغربية والإسلامية (مترجم)] .

٩٩- جاء كتابى « الإسلام كبديل » ديدريشسى ميونخ (١٩٩٢) [ردا غير مباشر على كتاب فوكوياما المذكور فى ٩٧] ، وقد ظهرت منه عدة ترجمات . طبعته الإنجليزية : « الإسلام : البديل » ريدنج ، المملكة المتحدة (١٩٩٣) . وطبعته العربية : « الإسلام كبديل » ميونخ / الكويت (١٩٩٣) .

١٠٠- أنا مارى شيميل : « ومحمد رسوله » الطبعة الثالثة . ميونخ (١٩٩٥) ، ص ٧ .

١٠١- : « علي درب الآلهة » مارل (١٩٩٢) .

١٠٢- قام محمد أمان هربرت هوبوم بتحليل تحيز وسائل الإعلام الألمانية بشكل رائع فى : الإسلام والمسلمون فى وسائل الإعلام والدوائر الحكومية فى ألمانيا . مساهمات قدمت فى المؤتمر السنوى للأكاديمية الملكية الأردنية بعمان (١٩٩٤) .

١٠٣- نعتبر أكثر أعماله انتشارا : « أزمة الإسلام الحديث » ، فرانكفورت (١٩٩١) . « التآمر : كابوس السياسة العربية » هامبورج (١٩٩٣) . « الأصولية الإسلامية ، العلم الحديث ، التكنولوجيا » فرانكفورت (١٩٩٢) . « الإسلام ومشكلات التغلب الحضارى على التغير الاجتماعى » فرانكفورت (١٩٨٥) . « فى ظلال الله - الإسلام وحقوق الإنسان » فرانكفورت (١٩٩٤) .

ويدعى المؤلف فى كتاباته « أن الشرق كان سيبقى متخلفا حتى وإن لم يقع تحت طائلة الاستعمار » وهذه المقولة أبلغ وصف للمؤلف ، وليس للشرق .

١٠٤- بسام طيبي : « كالنار والماء » فى مجلة « دير شبيجل » العدد ٣٧ لعام (١٩٩٤) ص ١٧٠ ص ١٧٢ .

١٠٥- جرنوت روتر : « أدياء الله » ، و « الغزوات الإعلامية لخبير الشرق الأدنى جرهارد كونتسلمان » ، هايدلبرج (١٩٩٢) .

١٠٦- فيرونا كلليم وكارين هرنر : « سيف الخبير » . صورة العرب والإسلام المشوهة عند بيتر شول لاتور . . هايدلبرج (١٩٩٣) .

١٠٧- دورثى بلكه : « ثلاثة رجال فى قارب واحد . الأصولية الإسلامية عند بيتر شول لاتور ، جرهارد كونتسلمان وبسام طيبي » ، فى « سيف الخبير » . انظر ١٠٦ .

- ١٠٨- ج . يوخ وم . هايمباخ : « بسام طيبى »- آراء حول الحداثة الأوربية والأصولية الإسلامية «
فى « حوار الأديان . حوار حول التراث والمعاصرة » . العدد ٣ ، بالف (١٩٩٤) .
- ١٠٩- مارك هللر : « الشرق الأوسط : خطوة خارج التاريخ » (باللغة الإنجليزية) ، فى « شئون
خارجية » ، المجلد ٥٩ ، العدد ١ ص ١٥٢ و ١٨٨-١٩٩ .
- ١١٠- غسان سلامة (ED) : « ديمقراطية بلا ديمقراطيين ؟ » (باللغة الإنجليزية) ، « تحديث
السياسات فى العالم الإسلامى » . لندن / نيويورك (١٩٩٤) . وانظر : مناقشاتى فى كتاب «العالم
المسلم» لايكستر (١٩٩٥) ، مجلد ١٦ ، عددا «واحد» ص ٣٦-٣٩ .
- ١١١- انظر فصول حقوق الإنسان : و« جمهورية أم ملكية ؟ » فى كتاب مراد هوفمان : « الإسلام
كبديل » . انظر رقم ٩٩ .
- ١١٢- خالد أبو الفضل : « التشريع الإسلامى والأقليات المسلمة » فى « التشريع الإسلامى
والمجتمع » ، مجلد ١ عدد ٢ ، لايدن (١٩٩٤) .
- ١١٣- ستيفن رونسيما : « الاستيلاء على القسطنطينية (١٤٥٣) » . ميونخ (١٩٩٠) .
- ١١٤- نقلا عن جريدة فرانكفورت ألمانيه بتاريخ ٧ / ١٢ / ١٩٩٤ ، ص ٥ .
- ١١٥- كتبت مجلة « دير شبيجل » فى عددها الصادر بتاريخ ٣٠ / ٣ / ١٩٩٢ ، تقول : « يقوم
القانونى خريج هارفاد بالدعوة صراحة لتعدد الزوجات ، ويرفض العنف فى الزواج » .
- وكتب فريدى كشنايجر فى مجلة « دى تسايث » يوم ١٥ / ٥ / ١٩٩٢ قوله : « أما مؤلفو
الروايات الساخرة عن الشطط الذى يمارسه آيات الله فى ظل العلم الألمانى ، فقد فاتهم أن يقرءوا
مائتى الصفحة التى كتبها هوفمان » .
- ١١٦- « دير شبيجل » ٢١ / ١٩٩٥ ، بتاريخ ٢٢ / ٥ / ١٩٩٥ ، ص ٢١٤-٢١٦ .

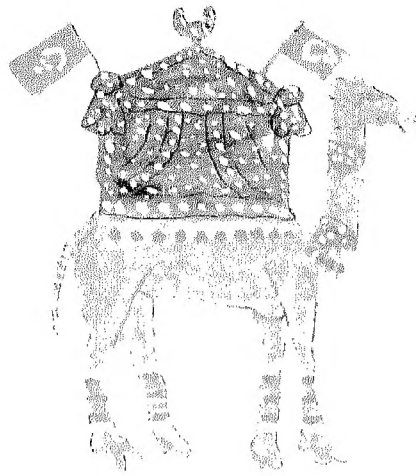
الفهرس

٥	مقدمة :
٧	الفصل الأول : الرحلة إلى مكة
٢٩	الفصل الثاني : دروب فلسفية إلى الإسلام
٤١	الفصل الثالث : خمس مرات يوميا كما هو مفروض
٥١	الفصل الرابع : الإفاقة من السكر
٥٧	الفصل الخامس : اختبار الجلد
٦٥	الفصل السادس : مع مسلمين حول مائدة الطعام
٧٥	الفصل السابع : قديرون طموحون
٨٧	الفصل الثامن : عن حب المال
٩٣	الفصل التاسع : فتش عن المسلمة
١٠٩	الفصل العاشر : إنسانية باردة كالجليد
١١٩	الفصل الحادى عشر : الإسلام فى ألمانيا . إسلام ألماني؟
١٤٣	الفصل الثانى عشر : العدو : الإسلام
١٦١	الخاتمة
١٦٣	تعليقات الهوامش

رقم الإيداع ٩٨/٥٤٣٢
الترقيم الدولي 4 - 0455 - 09 - 977

مطابع الشروقة

القاهرة : ٨ شارع سيديو المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



الطريق إلى مكة

عندما نشرت دار ديتريش الألمانية ، فى عام ١٩٩٢ ، للمؤلف د. مراد هوفمان كتابه « الإسلام كبديل » ، ثارت زوبعة هائلة فى وسائل الإعلام ، وفى دوائر الأحزاب ، وفى البرلمان . وكان القبول بما ثار آنذاك يعد تفريطا ، لأنه كان يتجاوز شخص المؤلف بكثير ؛ فقد كان حملة قذف وتشويه منظمة تستهدف ما هو أبعد من ذلك .

لقد حاول المؤلف فى كتابه السابق « الإسلام كبديل » ، وبمنهج عقلانى دحض جميع التحيزات والأفكار الخاطئة واللامعقولة ، المسبقة والضاربة بجذورها فى أعماق الوجدان الألمانى ، حيال الإسلام .

أما الكتاب الحالى « الطريق إلى مكة » فهو يعنى بشىء آخر ، هو حقيقة الإيمان كما يعيشها المؤلف ويعايشها . ويحاول أن يساعد على إدراك القوة الدافعة التى يستمدّها المسلم المؤمن من دينه ، وكيف تستطيع أن تسمو به ، وأن يساعد كذلك على تبين الأفق الذى يمكن أن يصل إليه العالم الإسلام عند تمسكه بهذا الدين فى حياته اليومية .

الأهمل

١٢٠٧٧

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العنوية - مدينة نصر
 من . ب : ٣٢ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٢)
 بيروت : من . ب : ٨٠٦٤ هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)